القافلة

مجلة ثقافية تصدر
كل شهرين • نوفمبر - ديسمبر 2006

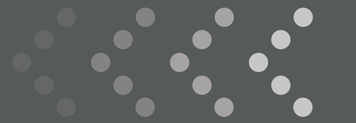


ملف العدد
الضحك!

تغيّر المشهد في سوق العمل

العدد 6
المجلد 55

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً الهدف منه إشراك الباحثين الراغبين، خاصة طلاب وطالبات الجامعات، بأبحاث ميدانية معمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدمون أنفسهم.
والهدف من هذه الخطوة هو كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي وتحقق الشمولية و الإحاطة بكافة زوايا الموضوع المطروح، ليتم تقديمها في النهاية على شكل موادٍ صحفية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحفي .

للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تحديد الفترة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستتم مكافأة الباحث حسب سلم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكتابها.

صورة الغلاف

تخصص القافلة غلاف هذا العدد لقضية التدريب المهني الممثلة بصورة لشبان في إحدى المؤسسات

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
عبدالله بن صالح بن جمعة

نائب الرئيس لشؤون أرامكو السعودية
مصطفى عبدالرحيم جلالي

مدير العلاقات العامة
زياد محمد الشيحة

رئيس التحرير
محمد عبدالعزيز العصيمي

مدير التحرير الفني
كميل حوّا

سكرتير التحرير
عبود عطية

فريق التحرير
فاطمة الجفري
محمد أبو المكارم
مأمون محيي الدين
أمين نجيب
رولان قطان (بيروت)
ماجد نعمة (باريس)
رياض ملك (لندن)

تصميم وإنتاج
المحترف السعودي

طباعة
مطابع السروات، جدة

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

نوفمبر - ديسمبر 2006
شوال - ذو القعدة 1427

قضايا 12–25

التدريب المهني.. العلم الذي يفرضه سوق العمل على المتعلمين 12
قول في مقال: دور الفرد في ردم الهوة 24

طاقة واقتصاد 26–35

إسهام سوق الأسهم في اقتصادات العالم والأفراد.. هل البورصة ضرورية؟ 26
أسواق السلع العالمية 32

بيئة وعلوم 36–48

الثقافة الثالثة.. توفيق العلوم الإنسانية والتطبيقية 36
زاد العلوم 44
قصة ابتكار: البطاقة الممغنطة 46
قصة مبتكر: تشستر كارلسون 47
اطلب العلم: الحقيقة العلمية.. غير الاستقامة 48

الحياة اليومية 55–67

حياتنا اليوم: هل نحب عصرنا؟ 55
قائد الأوركسترا.. العازف الكبير الذي لا يعزف على أية آلة 56
المشي.. الفعل البديهي الذي أصبح قضية 64
صورة شخصية: جان لامبير.. 66

الثقافة والأدب 68–86

رحلة الرعب.. من القارة القديمة إلى هوليود 68
ديوان الأمس: البحتري في وصف منازلة الأسد 76
ديوان اليـوم: بقية سحر 79
باموق.. فخر لتركيا أم قضية جديدة لها؟ 80
قول آخر: سؤال في الثقافة 86

الملـف 87–102

الضحك.. 87

الفاصل المصوّر 49–54

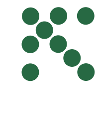
توزع مجاناً للمشتركين
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa

- **الهواتف:** رئيس التحرير 7321 874 3 966+
فريق التحرير 0607 897 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

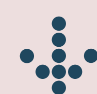
رسالة المحرر

1 قضايا

تستهل القافلة رحلتها لهذا العدد بتخصيص مساحة أكبر لواحدة من أهم القضايا التي تشغل سوق العمل في العالم بأسره، وفي المملكة بشكل خاص، ألا وهي قضية التدريب. وفي تناول القافلة لهذه القضية تندمج أربعة إسهامات مختلفة تبحث في التدريب بشقيه: تدريب الخريجين الجدد على التعامل مع أعمال لا خبرة ميدانية لهم فيها، وتدريب العاملين بغية تطوير أدائهم، وتمكينهم من الاستفادة من المستجدات التي تطرأ على مجالات عملهم، خاصة المجال التقني.





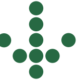


ولا يبتعد باب «قول في مقال» كثيراً عن موضوع التدريب، إذ يتناول جانباً من هذه القضية قلَّما يدخل في الحسبان، ألا وهو دور الفرد، ومبادرة أصحاب الكفاءات إلى تدريب من كانوا أقل حظاً منهم.

2 طاقة واقتصاد

وفي باب الطاقة والاقتصاد موضوعان: أولهما يتناول الدور الذي تؤديه البورصة على صعيد الاقتصادات الوطنية وتغذية شركات القطاع الخاص بالرساميل الضرورية للنمو. والثاني يتناول «سوق السلع العالمية» وماهية هذه السلع التي كثر الحديث عنها مؤخراً، بعد ارتفاع أسعار أبرزها على الإطلاق: النفط والذهب.



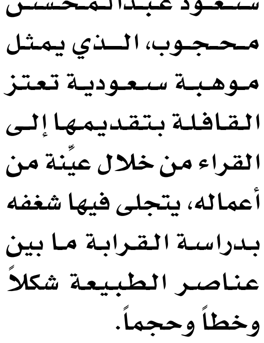


3 علوم وبيئة

أما مناخ العلوم والبيئة فيبتعد في هذا العدد قليلاً عمَّا ألفه القارئ من مواضيع، ليتناول هذه المرة مسألة انقسام المعرفة الإنسانية إلى علوم إنسانية وأدبية من جهة، وعلوم دقيقة من جهة، هذا الانقسام الذي بات البعض يقول عنه أنه لم يعد ملائماً لعصرنا ولمستقبلنا، ويدعو إلى دمج هذين الشقين من المعرفة في ثقافة واحدة، باتت تعرف باسم الثقافة الثالثة.

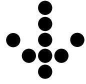


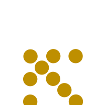
الفاصل المصور



وفي الفاصل المصور استراحة مع المصور سعود عبدالمحسن محجوب، الذي يمثل موهبة سعودية تعتز القافلة بتقديمها إلى القراء من خلال عيِّنة من أعماله، يتجلى فيها شغفه بدراسة القرابة ما بين عناصر الطبيعة شكلاً وخطاً وحجماً.







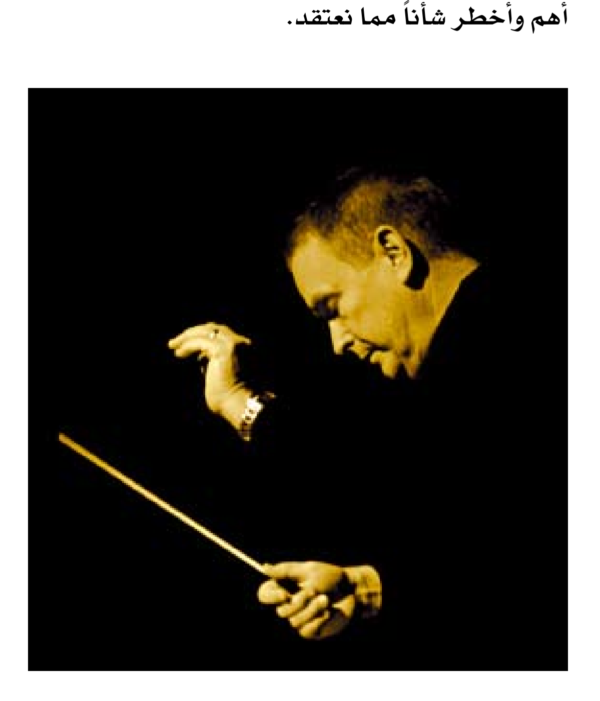
5 الثقافة والأدب

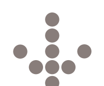
ويسعى المناخ الثقافي في هذا العدد إلى الإجابة عن الأسئلة المحيِّرة التي تثيرها كثرة أفلام الرعب في السينما الغربية. ومن خلال هذا الموضوع تتضح العلاقة ما بين هذا النوع من الأفلام وفن الرواية الغربية الذي سبق السينما إلى عالم الخوف وإجهاد الأعصاب قلقاً وتوتراً.. وربما اشمئزازاً.

أما الصفحات التي اعتادت القافلة تخصيصها للرواية، فقد كان من الطبيعي أن يحتلها الروائي التركي أورهان باموق، الذي فاز قبل أسابيع بجائزة نوبل للآداب، واللغط السياسي الذي صاحب هذا الفوز، خاصة في تركيا.

4 الحياة اليومية

وبالوصول إلى الحياة اليومية يطالع القارئ موضوعاً رئيساً وهو «قائد الأوركسترا»، هذا الموسيقي الذي نراه أمام كل فرقة موسيقية من دون أن يعزف شيئاً، ومن دون أن نعرف حتى ما إذا كان وجوده ضرورياً. إضافة إلى موضوع آخر عن «المشي»، هذا الفعل البديهي، الذي يقول العلم عنه إنه أهم وأخطر شأناً مما نعتقد.





6 ملف العدد

وختامها مع الضحك.. هذا الفعل البسيط وقصير العمر، هو أكثر تعقيداً وأهمية كما يبيِّن لنا ملف العدد في جولته بنا على كافة أوجه الضحك، الذي وعلى الرغم من عفويته، فقد قامت عليه فنون وصناعات كاملة بدءاً بالأدب وصولاً إلى السينما.

المحرر

الرحلة معاً

حـال الترجمة وجائزتها

إليكم الحقائق والأرقام التالية على ذمة رواتها:

- «ليس من الغريب أن يقال إن أول حركة خَطِرة للترجمة في التاريخ، إنما ظهرت على أيدي العرب في أواخر العصر الأموي، ثم انتشرت انتشاراً واسعاً في العصر العباسي، حيث تناولت ضروباً من النتاج العقلي بفضل تشجيع الخلفاء للترجمة». *د. محمد بلاسي، عضو اتحاد كتاب مصر.*

- «من الغريب أن يكون الإجمالي التراكمي للكتب المترجمة إلى العربية منذ عصر المأمون إلى غاية سنة 1999م يقدَّر بـ 10000 كتاب وهو يوازي ما ترجمته إسبانيا في عام واحدٍ». *الأستاذ مسدود فارس، أكاديمي جزائري.*

- «مصر تترجم مائة كتاب في العام مقابل 25 ألف كتاب يترجمها اليونانيون و 18 ألف كتاب يترجمها الأتراك. أما مقارنة باليابانيين فإننا نترجم كتاباً واحداً مقابل 1700 كتاب». *د. جمال التركي، اختصاصي تونسي في الطب النفسي، مهتم بالمعلوماتية.*

- «تشير الإحصاءات المتوافرة أن متوسط الكتب المترجمة بلغ 4.4 كتاب لكل مليون من السكان في الوطن العربي مقابل 519 كتاباً في المجر و420 كتاباً في إسبانيا لكل مليون من السكان». *تقرير التنمية الإنسانية العربية الثاني.*

أمام هذا الواقع المفجع لحال الترجمة في الوطن العربي لا بد أن نأسى على أمرين، الأول أسانا على حالنا التاريخية التي كان فيها العربي يصطاد الأفكار والكتب من مشارق الأرض ومغاربها ليحوِّلها إلى لغته ويبثها مكتنزة بعافية البيان وجدة البحث في أوصال أمته. أما أسانا الثاني فهو متعلق بما نحن عليه اليوم حيث تبدو الترجمة مجرد اجتهادات فردية متناثرة عليها ألف تحفظ من حيث عافيتها اللغوية وجدتها في التقصي والبحث.

ليست الترجمة وحالها الآن بدعاً في أمرنا، فهي تقع، كمنتج فكري، تحت نفس مظلة التردي التي تسود العملية التعليمية العامة والتعليم العالي وصناعة النشر والمكتبات وتواضع مراكز البحث الأدبي والعلمي، وقلة حيلتها من جانب توافر العنصر البشري المؤهل والأدوات المناسبة ومصادر التمويل. كان المأمون، تنزلت عليه شآبيب الرحمة لقاء ما قدَّم للعقل العربي، يكافئ المترجم بوزن



كتابه ذهباً. وإذا كان البعض يذهب مذهب التفسير الأسطوري لهذه الرواية، غير أنها تدل دلالة قاطعة على العصر الذهبي للحضارة العربية. كما تدل على أن الإنسان العربي كان على قدر المسؤولية الفكرية الكبرى: حاكماً ومؤلفاً ومترجماً وقارئاً. لقد كان الورَّاق قدراً جميلاً يسكن شوارع وأزقة مدن الحضارة العربية، إلى الدرجة التي يصبح معها من الأعيان وجلساء السلطان. ويكون أجره، مقابل ما ينسخ من كتب المؤلفين والآخَرين، منافساً لأجر الوزير الأول.

لذلك، أي لرفعة الكتاب وكاتبه أو مترجِمه أوناسِخه، بلغت الحضارة العربية أوجها وتركت بصماتها واضحة على جبين البشرية إلى وقتنا الحاضر. والغريب أننا نحن أصحاب البصمة التاريخية الفكرية خرجنا من ثيابنا ولبسنا ثياباً أخرى مهلهلة ومرقَّعة بالسذاجة والاستسهال والفراغ الفكري والعقلي المريع. هذا الفراغ الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم: قوم يستوردون كل شيء ما عدا الكتاب والأفكار الخلاَّقة المبدعة.

لكن، هل الصورة قاتمة إلى هذا الحد؟ أعتقد أن هناك ما يشير إلى حالة تفاؤل، فمن خلال متابعتي لبعض النشاطات الثقافية في هذا البلد العربي أو ذاك أستطيع أن أقول إننا بدأنا نضع إصبعنا على جرح الترجمة. وهناك مؤسسات مثل مؤسسة الفكر العربي والمنظمة العربية للترجمة في بيروت ومركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العالي العربي للترجمة في الجزائر، تنشط في رسم خارطة طريق لمجال الترجمة من حيث إعداد المترجم العربي وتوفير أدواته ونشر الكتاب المترجم وإشاعة ثقافة الترجمة على وجه العموم.

وقد دخلت المملكة العربية السعودية مؤخراً على خط تنشيط حركة الترجمة، بعد أن تم الإعلان عن موافقة خادم الحرمين الشريفين على إنشاء جائزة عالمية تحت مسمى جائزة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة للترجمة. والشيء الجديد والجميل في هذه الجائزة أنها تهتم بالنقل من العربية والنقل إليها، ما يعني أنها ستتيح فرصة للتثاقف المتبادل، خاصة وأننا نحتاج إلى تعريف الآخر بنا وبأفكارنا وطريقة حياتنا بنفس القدر الذي نحتاج إلى التعرف بهذا الآخر وبأفكاره وطريقة حياته.

وفي يقيني أن هذه الجائزة ستحدث أثراً بالغاً في سد فجوات الترجمة إلى العربية، لما عرف عن مكتبة الملك عبدالعزيز من جدية ومثابرة على إنفاذ مشروعاتها وتحويلها من الإطار النظري إلى الإطار التطبيقي. فنحن معشر المهتمين بصناعة الثقافة نحمد للمكتبة ما أطلقته من مشروعات مثل مشروع القراءة للجميع ومشروع الفهرس العربي الموحد ومشروع موسوعة المملكة. وبالمناسبة فقد بشَّرنا المشرف العام على المكتبة، الأستاذ فيصل ابن معمر، أثناء مشاركتنا في اللقاء التحضيري للقاء الوطني السادس للحوار الفكري، بتشكيل أمانة لتشجيع الاتصال بالكتاب، الأمر الذي سيضاف إلى جملة جهود المكتبة ويزيد ثقتنا بمستقبل أفضل لعلاقة الناس بالكتاب، تأليفاً وترجمة ونشراً وقراءة.

وإذا أذن لي المشرف العام، فإنني سأقترح، فيما يتعلق بجائزة الترجمة، أن تكون واسعة وسخية لتتمكن بالفعل من الإسهام في إحياء هذه الفريضة الفكرية شبه المغيبة في عالمنا اليوم. وفي شقها العربي، ربما خصصنا فرعاً في الجائزة لأفضل كتاب مترجم من حيث سلامة اللغة، فخبرتنا كقرَّاء مع بعض الكتب المترجمة لا تسر، ولدي من الأمثلة، إن أردتم، الكثير.

رئيس التحرير



قافلة القرّاء

إلى..
رئيس التحرير

ترحّب القافلة برسائل قرائها وتعقيباتهم على موضوعاتها، وتحتفظ بحق اختصار الرسائل أو إعادة تحريرها إذا تطلب الأمر ذلك.

للمشاركة في الكتابة

لما لمجلة القافلة من اهتمام متميز بالنشر عن الطاقة والاقتصاد، والأدب والعربية، والعلوم والبيئة، والثقافة العامة، فإنني أرجو ما يلي:

1 - المشاركة بالكتابة القضائية، والأدبية، في المجلة.

2 - التفضل بتزويدي بأعداد المجلة السابقة والقادمة.

وأقدِّر لكم عالياً هذه الإسهامات الإعلامية في إعلامنا المحلي والعربي، وأشكر لكم ما اعتدنا عليه من لطيف تعاملكم، وجميل مشاركتكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبدالرحمن بن محمد الجوفان

رئيس محكمة بديوان المظالم بالرياض

القافلة: ترحب القافلة بإسهاماتكم، وتقترح عليكم زيارة موقع قافلة الأبحاث المشار إليه داخل غلاف هذا العدد للتنسيق. وبخصوص الأعداد المقبلة من المجلة فستصلك، إن شاء الله. أما الأعداد السابقة، فنرجو أن تحدد ما تحتاجه منها.

صداقة قديمة

نفيد سعادتكم بأن نادي المجد بينبع من الأندية التي خصصت لها الرئاسة العامة لرعاية الشباب مبنىً متكاملاً يحتوي على صالات رياضية ومسابح وملاعب رياضية، بجانب مبنى إداري شامل، يشتمل على مقر لمكتبة ثقافية نموذجية تحتل مساحة كبيرة في المبنى لخدمة جميع منسوبي النادي وشباب محافظة ينبع لتوفير العديد من الكتب والمجلات الثقافية والعلمية.

وحيث إن مجلة القافلة من المجلات التي تستحوذ على إعجاب كافة منسوبي النادي، لما تمتاز به من معلومات ثقافية وعلمية شاملة، بجانب الإخراج الفني والتغطية لكافة الأحداث للوطن الغالي. وقد استمر وصول المجلة لمكتبة النادي لأكثر من عشرين عاماً، بواقع 4 أعداد من كل إصدار جديد. وفجأة، منذ أكثر من سنتين توقف وصول المجلة وإصداراتها عن النادي.

ولذلك نكتب إليكم وكلنا أمل ورجاء في موافقتكم الكريمة أن تصل إصدارات المجلة المهمة بالنسبة لمنسوبينا إلى مكتبة النادي الثقافية كما كان متبعاً في السنوات السابقة.

هاشم خضر الغفاري

رئيس مجلس إدارة نادي المجد بينبع

القافلة: نأسف لانقطاع القافلة عنكم لبعض الوقت، وستصلكم أعدادها قريباً، بانتظام، إن شاء الله.

الملصق السياحي

في كل عدد تطالعنا القافلة بجديد يفاجئنا. ولو كان بإمكاني أن أعدد لكم عناوين المواضيع التي فاجأتني فعلاً لامتدت لائحتها على صفحات. ولكن رسالتي هذه هي للإشارة إلى أن واحدة من أجمل المفاجآت تمثلت في هدية العدد 4 من المجلد 55، ألا وهي خريطة المواقع السياحية السعودية. إني لا أجاملكم أبداً إذا قلت لكم إنه ملصق

البيت لحسان وليس لزهير

يطيب لي أن أبعث إليكم خطابي هذا معبراً عن شكري وتقديري وامتناني لكم، حيث إنني من المتابعين لقراءة مجلتكم الغرَّاء لما فيها من مواضيع متعددة وجيدة ومفيدة للبحث العلمي القيم.

وقد شدني البحث المقدَّم عن العلاَّمة العربي ابن خلدون في العدد 3 من المجلد 55. وفي نفس العدد قرأت باستحسان مقالة الدكتور عبدالله خلف العساف «الشعر يرسم لوحات بالكلمات»، ولكنه أخطأ بسرد هذا البيت منسوباً إلى الشاعر زهير:

بيضُ الوجوه كريمة أحسابهم
شُمُ الأنوف من الطراز الأول

فهذا البيت أتى ضمن قصيدةٍ مدح فيها حسان بن ثابت أبناء عمه ملوك الغساسنة، وعلى مايبدو قبل إسلامه. وفيها يقول:

لله در عصابة نادمتهم
يوماً بجلق في الزمان الأولِ

أولاد جفنه عند قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم
بردى يصفق بالرحيق السلسل

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

بيضُ الوجوه كريمة أحسابهم
شُمُ الأنوف من الطراز الأول

هذا ما أحببت الإشارة الية والمشاركة المتواضعة لما فيه خدمة للبحث العلمي. سائلاً المولى القدير أن ينفع به كل من اطلع عليه. والله من وراء القصد.

فهد بن خالد السديري

الرياض

يغني عن مقال. إذ إن عرض هذه الصور المتنوعة (وياليتها كانت أكبر ولو قليلاً)، يعطي صورة واضحة عن المعالم الأثرية والطبيعية في المملكة العربية السعودية، وهذا بدوره كان مفاجئاً لمن لا يعرف السعودية. أرجو أن تفيدوني بعنوان الجهة المعنية بالسياحة في السعودية التي أستطيع الحصول منها على مزيد من المعلومات والصور.

الحامد أطلس
الرباط

القافلة: الجهة المختصة بالسياحة في المملكة هي الهيئة العليا للسياحة. ويمكنك زيارة موقعها الإلكتروني:
www.sct.gov.sa
www.sauditourism.gov.sa

للأساتذة والطلاب

في بداية خطابي هذا، يطيب لي أن أتقدَّم إليكم أصالة عن نفسي، وبالنيابة عن جميع الأخوة الزملاء وأبنائنا الطلاب منسوبي المدرسة، بجزيل الشكر وعظيم التقدير والامتنان لكم ولجميع الأخوة زملائكم الكرام العاملين معكم بالمجلة.

كما أود أن أحيطكم علماً بأن منسوبي مدرستنا العامرة يقارب 50 موظفاً، وكذا الطلاب الذين يفوق عددهم 350 طالباً. وللحق، فإن جميع الأخوة الزملاء وكذا الطلاب لدينا بالمدرسة حريصون على مطالعة مجلتكم الموقرة، بل وفي أحيان كثيرة أشاهدهم وأسمعهم يتبادلون الحديث والنقاش حول بعض المواد التي يتضمنها ذلك العدد. وهم ونحن دائماً ما نستمتع

ردود خاصة

إلى الأخوة

- **زكريا عبدالقادر خنجي، البحرين:** سبق للقافلة أن تناولت موضوع الأغذية المحورَّة جينياً.

- **فلياشي كمال، الجزائر:** ما تطلبه ليس من اختصاص القافلة، نرجو لك التوفيق في مساعيك مع الجهات المعنية.

- **سليمان الأخنس الشراري، الجوف:** وصلنا الكتاب ونشكرك عليه، وهو يستحق الاستحسان والتقدير.

- **بشير بن عمارة، الجزائر:** قافلة الأبحاث ليست مسابقة، بل ميدان تنسيق الكتابات وإسهامات القرَّاء. وللمزيد من التفاصيل، يمكنك أن تزور الموقع.

- **محمد مروان مراد، دمشق:** المحاضرة قيِّمة ومهمة من دون شك، ولكنها لا تشكل مادة صحافية.

- **أحمد سيد طايل، القاهرة:** لم يتضح لنا من رسالتك إذا كانت الحوارات التي أشرت إليها قد نشرت سابقاً أم لا. ونرجو إرسال واحداً منها قبل البت في أمرها.

- **زهرة عبدالهادي محمد الغوير، القديح:** نأسف لعدم قدرتنا على تزويدك بأعداد كل السنوات الماضية. نرجو أن تحددي ما تحتاجينه بدقة، وسنوافيك بالمتوافر منه.

مهاجر

(1)
على خُطاهمْ سارْ
يُحطِّمُ القيودَ والإسارْ
وفي دروبهمْ لا بُدَّ أن يُهاجر
مِنْ عالَمٍ يَنهارْ
لِعالَمٍ يَلُوحُ كالأُفْقِ البعيدِ
كالمَنارْ
هُوَ وَحْدَهُ لا صاحِبٌ
يُؤْنِسُهُ، لا غَارْ
لا مَلجأً إلا إلى الذي يُكَوِّرُ النَّهارْ
ففي غَدٍ تلقاهُ
مُشَرَّداً مُهاجراً
قد عَزَّهُ القَرارْ
لكنَّ في عَزَماتِه
شوقاً إلى الإبحارْ
وفي العيونِ الظامئاتِ
للعُلا إصرارْ
على خُطاهمْ سارْ
لِيَبْدَأَ المَسارْ

(2)
على خُطاهمْ سارْ
وَخَلَّفَ الصِّغارْ
لا قُبلَةٌ، لا بَسْمَةٌ
لا نجمةٌ تَلُوحُ في الدِّيارْ
لا زهرةٌ في مَوْسِمِ الأزهارْ
فَحَسْبُهُ أنْ سارْ
تَحوطُهُ الأقْدارْ
لِيبدأَ المَسَارْ
وَقد دَنا النَّهارْ

(3)
إذا طَوَى مُوهَنٌ من عجزِهِ الشِّراعْ
وصار كمّاً مُهْمَلاً
وآثَرَ المَتَاعْ
وظَنَّ أنَّ الراحةَ الكبرى
تكونُ في الضَّيَاعْ
وخيَّلَ الوهمُ له أنَّ النهارَ
مُشْرِقٌ، وبازِغْ
وغَرَّهُ التماعْ
لكنَّه، لكنَّه وهو المهاجِرُ الوحيدُ في
الدروبْ
يُتابعُ الإبحارْ

(4)
كُلُّ الذينَ في الدروبِ يَعْبُرونْ
كانت عزائمُ مَدِّهم تَيَارْ
يغالبُ الأمواجَ في البِحارْ
فمنهُمْ مَنْ تابَعَ المَسَارْ
وآخرونَ شَدَّهم لشاطئِ السلامةِ انحِسارْ
وآثَروا شواطئَ الأمانِ والقَرارْ
لكنَّه قد سارْ
رَغْمَ الرياحِ الهُوجِ والإعْصارْ
فَكُلُّ ما في دَرْبِهِ
يُؤَخِّرُ النهارْ
وَهُمْ يُزيغُ القلبَ والأبصارْ
وكلُّ زُخْرُفٍ قد شَعَّ في دُنياه
مجردُ انبهارْ
أو التواءاتٌ على الطريقِ، أو عِثارْ

يحيى بشير حاج يحيى
ينبع الصناعية



بالمواضيع الجيدة والهادفة التي تحويها مجلتكم الموقرة وأيضاً بالروعة والدقة والتميز في الإعداد والإخراج. وما كان ذلك ليكون لولا وجود الرجال المخلصين أمثالكم.
وقد رأيت الكتابة إليكم عن ذلك بأمل تكرمكم وتكليف من ترون، بزيادة عدد النسخ الخاصة بمدرستنا نظراً لكثرة الأخوة الزملاء منسوبي مدرستنا، وأيضاً كثرة عدد طلاب مدرستنا الذين من بينهم أكثر من 30 طالباً متفوقاً البعض منهم حصل على النسبة المئوية كاملة 100% والبعض الآخر 99% وبعض منهم 98%. وللحق فهم يستحقون التكريم والتشجيع من شركة سعودية رائدة مثل أرامكو السعودية التي يحرص المسؤولون فيها على دعم وتشجيع أبناء هذا الوطن المعطاء، وطن الشموخ والعزة.

عبدالله بن محمد ضيف الله
مدير مدرسة بالعلاء، الباحة

القافلة: نأسف لعدم تمكننا من تخصيص مثل هذا العدد الكبير من النسخ لمدرستكم. ولكننا سنسعى إلى زيادة عددها الحالي قدر المستطاع.

نجيب محفوظ.. وغيره

غداة وفاة الأديب العربي الكبير نجيب محفوظ، أحببت العودة إلى قراءة بعض رواياته. ووقع خياري على واحدة لم أقرأها سابقاً، وهي «عبث الأقدار».
إنها واحدة من أقدم روايات نجيب محفوظ وأقلها شهرة. ومع ذلك، فهي أجمل من عشرات ومئات الروايات التي تصدر اليوم عن كتَّاب و«روائيين» يخبئون ضعفهم الأدبي تحت قناع الحداثة المعاصرة.
لقد أحببت فعلاً المقالة الجميلة التي كتبها الناقد جهاد فاضل. غير أني آمل أن أرى يوماً مقارنته لروايات محفوظ بروايات غيره من أدباء الأنابيب اليوم.. لغة ومضموناً. علَّ الكل يعرف عندها لماذا فاز أديبنا الكبير بجائزة نوبل، وغيره لا يزال يرشح نفسه لهذه الجائزة في صحف أصدقائه ومجلاتهم.

حسَّانة عرفة
القاهرة

نقولا زيادة يستحق أكثر

عندما قرأت رسالة المحرر في العدد 5 من المجلد 55، لم يفاجئني تخصيص موضوع من عدة صفحات للروائي المصري الكبير نجيب محفوظ لمناسبة رحيله.
ولكنني شعرت بخيبة من غياب أي ذكر لراحل كبير آخر توفي في الفترة نفسها، ألا وهو شيخ المؤرخين العرب الدكتور نقولا زيادة.
وعندما قلبت الصفحة طالعتني افتتاحية رئيس التحرير، التي خصصها للحديث عن زيادة ومحفوظ.
صحيح أن مقالة رئيس التحرير الحارَّة والمهمة عوَّضت بعض الشيء.. ولكن اسمحوا لي أن أقول لكم إنه كان بالإمكان أفضل مما كان. وشيخ المؤرخين يستحق لفتة تكريم أكبر من حيث المساحة على الأقل. فهو بالنسبة إلى التأريخ العربي والإسلامي لا يقل شأناً أبداً عن محفوظ بالنسبة إلى الرواية. وقد كتب مذكراته، وكان يمكن للقافلة التي نعتز بها وباتزانها أن تتناول هذه المذكرات، ولو بعرض مختصر. خاصة حسبما أذكر، أن المؤرخ الكبير الراحل، كان خلال سنوات عديدة ماضية من كتَّاب القافلة. فاقتضى التنويه

كمال نسيم حطيط
بيروت

المشتركون الجدد

علي بن عبدالله خواجي، أبها - محمد إبراهيم المسلم، الأحساء - علي بن صالح الحجاج، القصيم - خالد صلاح الحويل، الأحساء - حمداوي عبدالعزيز، الجزائر - عمر بن ترحيب الدوسري، المدينة المنورة - زهير بن جمعة الغزال، الأحساء - خالد بن عبدالله الغانم، الرياض - محمد عائض سرحان، أبها - برحال مسعودة، الجزائر - عمر بن حسن الزهراني، قلوة - عبدالله طاهر الحجي، الظهران - ضيف الله بن هليل العضيدي، تبوك - حمزة شقاقة، الجزائر - تركي عثمان عبدالمحسن الشريان، بريدة - عماد بن عبدالله الكنعان، الهفوف - أحمد بن عمر عبدالغني، الدمام - علي حسن البحراني، الأحساء - عادل حجي الخليفة، المبرز - علي عبدالوهاب الباشا، سيهات - صلاح الدين إبراهيم، المجمعة.

القافلة: وصلتنا عناوينكم، ونرحب بكم أصدقاء للقافلة التي ستصلكم أعدادها بانتظام من الآن فصاعداً إن شاء الله.

وردنا

القافلة: لا شك أنشيخ المؤرخين نقولا زيادة يستحق التكريم والتقدير، ولدى فريق التحرير رؤية حالياً عن كيفية تناول حياته، ربما تطالعها في عدد قادم.

المجلس البلدي بالقطيف

يسعى المجلس البلدي بمحافظة القطيف إلى مد جسور من العلاقات الوطيدة مع الجهات والإدارات والشركات الفاعلة بالمنطقة، وتبادل الخبرات العلمية معها بما يحقق المصلحة العامة التي نعمل جميعاً لأجلها. وترسيخاً لذلك الهدف يسعدنا كثيراً إهداءكم لنا عدد أربع عشرة نسخة من مجلتكم الغرَّاء القافلة بشكل دوري، بمعدل نسخة لكل عضو مع أمين المجلس، على عناوينهم الموضحة بالبيان المرفق، وثلاث نسخ لأمانة المجلس.

عبدالله بن حسن شهاب
أمين المجلس البلدي بمحافظة القطيف

القافلة: وصلت العناوين، وقد أحلناها إلى قسم الاشتراكات، لتصلكم الأعداد بانتظام، إن شاء الله.

العدد الخاص

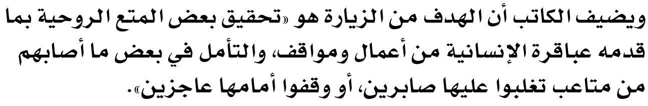
كنت أظن أن الحب من أول نظرة محصور بين البشر، لا يتعداهم إلى سواهم، حتى وقع في يدي عن طريق الصدفة عدد خاص أصدرته مجلة القافلة، أظن ذلك كان في عام 1423هـ، كان يحتوي على مجموعة كبيرة من المقالات التي نشرتها القافلة على مدى سنين طويلة من تاريخها. قرأتها من الغلاف إلى الغلاف، ومنذ ذلك اليوم وقعت في حبها وعلمت أن الحب من أول نظرة يكون مع غير البشر، فشكراً للقافلة التي حرصت أن تكون جذابة وفاتنة عندما التقيت بها والتقت بي قبل سنين مضت، ولم يعكِّر هذا الحب إلا أنني لا أستطيع أن أشاهدها وأملأ عيني منها كلما أطلت بثوب جديد، فآمل منحي اشتراكاً حتى أتمكن من متابعة المجلة.

سلطان بن مرزوق البدراني
الرس

القافلة: شكراً على العاطفة التي تكنها لمجلتك، ويسرنا أن نضع اسمك على قائمة المشتركين.

• فلاسفة وفنانون

كتاب جديد للكاتب المصري المعروف رجاء النقَّاش، صدر عن دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي في القاهرة.
يتناول هذا الكتاب بعض اللمحات العامة في حياة فلاسفة وفنانين من خلال ستة أعلام، هم: سقراط، موليير، جورج صاند، سارة برنار، جورج برنارد شو، ولورنس داريل.
ويؤكد النقاش في المقدمة أن هذا الكتاب هو رحلة حرة غير مقيدة، تقوم على تنوع الشخصيات والأحداث والعصور.. فالكتاب هو في النهاية «زيارة إلى عالم العبقرية الإنسانية بما فيه من فلاسفة وفنانين».



ويضيف الكاتب أن الهدف من الزيارة هو «تحقيق بعض المتع الروحية بما قدمه عباقرة الإنسانية من أعمال ومواقف، والتأمل في بعض ما أصابهم من متاعب تغلبوا عليها صابرين، أو وقفوا أمامها عاجزين».

• ثلاثة ملوك



«ثلاثة ملوك في بغداد» هو عنوان الكتاب الذي ترجمه إلى العربية سليم طه التكريتي، لمؤلفه الإنجليزي العقيد جرالد دي غوري، ويتضمن سرداً للأحداث التي شهدها العراق منذ قيام العهد الملكي وحتى نهايته في يوليو 1958م. كما يتناول بعض الأحداث التي قلَّما تناولتها الأقلام مثل انقلاب بكر صدقي، ومقتل الملك غازي، وغير ذلك. وقد صدر عن «الأهلية للنشر والتوزيع» في عمَّان.
وعلى الرغم من أن مقدمة المترجم تعتبر الكتاب بمثابة مصدر من مصادر تاريخ العراق الحديث، إلا أن قراءته تتطلب حذراً وتدقيقاً في موضوع رواياته. ولكن هذا لا ينفي كون الكتاب يتمتع بلغة سهلة خالية من التعقيد، وبأسلوب قريب من الأسلوب الصحافي، يأخذ القارئ بسهولة إلى عالم العراق في النصف الأول من القرن العشرين.

• بقايا امرأة



رواية جديدة للكاتبة السعودية نجاة الشيخ، صدرت مؤخراً عن دار الكفاح للنشر والتوزيع في الدمام.
ويقول تقديم الناشر: «عندما تقرأ هذه الرواية تشعر بمعاني الإنسانية السامية التي تعبِّر عن الحياة وتقلباتها، والغربة وقسوتها على الإنسان، وتحكي لنا مأساة امرأة طوحت بها الأقدار..». ومن هذا التقديم يمكننا أن نضع هذه الرواية في مربع الأدب النسائي السعودي المعاصر، الذي هو موضوع تتبع الكثير من الباحثين والنقَّاد.

قافلة القرّاء

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات تناقش موضوعات طرحت في أعداد المجلة فتكون أكثر من رسالة وأقل من مقال.

قراء القافلة مدعوون للمساهمة في هذه المناقشات على أن تكون كلمات المشاركة ما بين 300 و 600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة لذلك.



الوضع الوسط.. نعمة أم حفلة استمتاع بالفقر؟

قرأت في العدد الأخير من القافلة مقالاً بعنوان «نعمة الوضع الوسط» بقلم الكاتبة رنا المسفر، واستوقفني محتواه لأنني فهمت منه أن الكاتبة تنتمي إلى جيل لم يتجاوز العشرينيات من العمر. ولأن «الخديعة» التي تعرضت لها وانطلت عليها، تنطلي في الواقع على الآلاف وربما الملايين من المستمتعين بنعمة الوضع الوسط، وبالجيل الوسط، وهم في الواقع لا يستمتعون إلا بفقرهم.

الوسط.. جيلاً أم مستوى؟

أولاً، أود الإشارة إلى أن هناك ضياعاً وخلطاً غير مفهوم عند الكاتبة بين أمرين لا يجمعهما إلا الانتماء إلى «الوسط». فتارة نفهم الجيل الوسط الذي تتحدث عنه على أنه ذلك الذي ينتمي زمنياً إلى ما بين مرحلتين تاريخيتين كبيرتين، وتارة على أنه جيل يتميز إنتاجه بمستوى ونوعية معينة (أقيّمها شخصياً: وسط).

ولكن، وبغض النظر عن هذه الملاحظة، تكمن خطورة الأخطاء الواردة في مقالة الكاتبة المسفر، في أنها، مثل آلاف المقالات التي تطالعنا بها الصحافة الثقافية «الوسط»، تنظر إلى الثقافة ومعطياتها في عصرنا هذا على أنها حالة أولى من نوعها في التاريخ، لمجرد وجود أدوات واختراعات لم تكن موجودة في الماضي. أما التاريخ فينفي ذلك جملة وتفصيلاً.

الوسط زمنياً كان دائماً موجوداً

إن التاريخ، أولاً، مليءٌ بالأزمنة الوسط التي تقع بين فترات صاخبة فكراً وتحديات. فبماذا تختلف المرحلة الواقعة ما بين القومية العربية وجيفارا ومؤتمر باندونغ من جهة، والعولمة أو الأمركة من جهة أخرى، عن المرحلة الفاصلة ما بين عصر النهضة الأوروبية وانتفاضة البرجوازية وثوراتها؟ أو بين عصر الانحطاط في البلاد العربية ومشروع النهضة؟ وهل العولمة تشكّل تحدياً أكبر من مشروع النهضة الذي تصدى له الأفغاني وعبده ولاحقاً ساطع الحصري؟ وهل انتهى التاريخ عند استيلاء البرجوازية على السلطة بالثورة الفرنسية، أم أن التحولات ظلت مستمرة حتى ظهرت الاشتراكية بفلاسفتها وثوراتها؟

نعم، لسنا في زمن مشابه للستينيات من القرن الماضي. ولكن المذهل أن هذا القول يصدر عن لسان عربي. فإذا صحَّ أن الغرب الأوروبي والأمريكي تجاوز الستينيات بعد أن قطف ثمارها أو أفضل ما فيها للوصول إلى ما هو عليه اليوم، فإن حالنا في البلاد العربية تختلف تماماً. فالتحديات التي نواجهها منذ القرن التاسع عشر لا تزال نفسها، فلم نحقق نهضتنا الكفيلة بوضعنا على قدم المساواة مع الغرب، ولم نحقق وحدتنا القومية، لا بل أضيفت إلى تحدياتنا القديمة تحديات جديدة. والحاصل ثقافياً وفكرياً هو ببساطة: غض النظر عنها.

ففي غياب المفكر الكبير الذي يدلنا على طريق النصر ضد أعداء أمتنا، نجد الكثيرين من الجيل الوسط الذين يقدِّمون تحليلاتهم وقراءاتهم السهلة والممتعة غير الممتنعة لأحداث العراق وفلسطين ولبنان.. تماماً كما أن الجيل الوسط الذي يحدثنا عن مطاعم مكدونالدز والوجبات السريعة لا يعوِّض علينا في شيء افتقارنا إلى علماء من الصف الأول يتولون هم في مختبراتهم وأبحاثهم دراسة هذه الوجبات السريعة والطلوع علينا بنتائجهم الخاصة بدلاً من جمع المقتطفات من هنا وهناك وترجمتها.. أو إبقاء مضمون المقولات على نطاق الانطباعات والخواطر الأدبية.

والوسط مستوىً كان دائماً موجوداً

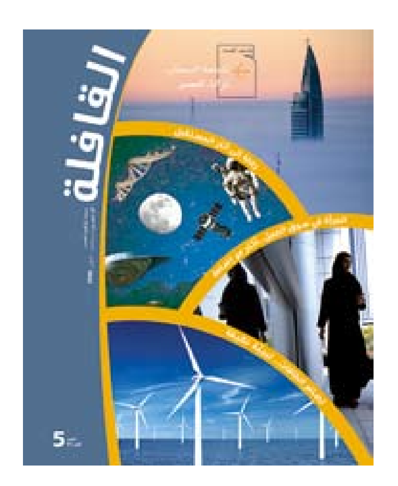
إن اعتبار مفكري الجيل الوسط «حدثاً فريداً» هو بدوره خطأ من يجهل أبسط معطيات تاريخ الثقافة والفكر أينما كان في العالم. فالمفكرون الوسط كانوا دائماً موجودين، وليسوا أبداً من خصوصيات عصرنا. فالنخبة المثقفة كانت دائماً تتوزع على مستويات وطبقات. ويحتل أعلى الهرم الفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين يكتبون بلغة الفلاسفة (التي لا تحبها الكاتبة المسفر)، ومن ثم هناك «المفكرون الوسط» الذين يدرسون أعمال النخبة العليا ويتناولونها شرحاً ونقداً، أو يكتبون في مواضيع شتَّى آخذين أعمال الصف الأول بعين الاعتبار، لينقلوها إلى صغار المثقفين والمدرِّسين ومن شابههم، ومن هؤلاء إلى كافة طبقات المجتمع التي تُوَجَه وفق أفكار الفلاسفة وكبار المفكرين من دون أن تكون على تماس مباشر معهم أو مع مؤلفاتهم.

مشكلة الجيل الوسط العربي هي أنه قطع قمة الهرم وألغاها، أو توهم نفسه قادراً على الاستغناء عنها. بدليل أنك تراه اليوم يكتب عن ألف موضوع وموضوع من دون بوصلة واحدة توجهه. فيحاول التكهن هنا، أو الترجمة هناك، أو التساؤل هنالك. وفي الحالات القليلة حيث تكون هناك بوصلة (ونلاحظ أن الكاتبة مهتمة فعلاً بوجود هذه البوصلة بدليل إشارتها إلى رياح قاسية تود أن تقتلع ثقافتنا وهويتنا)، فإن هذه البوصلة هي من تصميم وصناعة الجيل الأول الكبير، الجيل الذي درس ودرَّس القومية العربية ومشروع النهضة العربية.

الجيل الوسط.. في موضعه الصحيح

لا يمكن لأحد أن يلغي الدور المهم الذي يقوم به المثقفون المتوسطون. فهم ضرورة لا غنى عنها لإشاعة المعرفة وتنوير من هم دونهم مستوىً على الصعيد الثقافي. أما الخلط بينهم وبين مفكري الصف الأول فهو الخطأ بعينه، والتساؤل ما إذا كان الجيل الوسط سيحظى بشهرة تصب في نهر التمجيد الذي تمتع به الجيل الأول من المفكرين، فتسهل الإجابة عليه بالقول إن معظمهم يحظى اليوم بشهرة إعلامية ودعائية على الأقل أكثر من مفكري الصف الأول. ولكن هذه الشهرة قصيرة العمر، ولن يبقى منها شيء بتغير القضايا التي يطرحونها كتلك التي تضربها الكاتبة كأمثلة: ما تبثه الفضائيات، والصداقة على الإنترنت ومطاعم مكدونالدز.

إن تطور المجتمعات والحضارة ككل مدين، وبالدرجة الأولى، إلى نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى دوره في هذا الكون. وكل أدوات التطور من صناعات واختراعات



هي وليدة هذه النظرة. والذين يدرسون هذه النظرة وما يمكن أن يطرأ عليها من تحولات هم نخبة النخبة في الصف الأول من فلاسفة ومفكرين. والباقي يأتي كنتيجة.

إن الصناعة المتطورة والتكنولوجيا الحديثة وغزو القمر وبيل غيتس والإنترنت لم يصنعوا أمريكا. ما صنع أمريكا وضخامة قوتها هي الفلسفة التي ظهرت في أوروبا بدءاً من القرن السادس عشر، وتطورت في شقها الأنكلوساكسوني الذي يقدّس العمل والاجتهاد وسعي الإنسان إلى تحسين حياته اليومية كواجب والثقة بمردود العدالة وتكافؤ الفرص وما إلى ذلك الكثير.. وكل ما يدهشنا في أمريكا اليوم من قوتها العسكرية إلى الإنترنت إلى ثروة بيل غيتس هو نتيجة وليس سبباً في الصميم.

نحن غيرهم.. والمثقفون أيضاً

كل البلدان المستقرة نسبياً من أمريكا إلى أوروبا الغربية تعيش وفق أيديولوجية مستمدة من فلسفة (رأسمالية-قومية)، ترى أنها لا تزال صالحة رغم مرور مئات السنين عليها في بعض الأماكن. وفي مثل هذه البلدان من الطبيعي أن يزداد دور المثقفين المتوسطين الذين يتعاملون في فكرهم مع قضايا الحياة اليومية. أما في البلاد العربية، (وأنا سأتحدث هنا عن أسئلتي الخاصة) فمن الأسئلة التي أطرحها على نفسي: من أنا بالنسبة إلى الفرنسي والأمريكي والهندي؟ ويستتبع السؤال أسئلة عن علاقتي بأبناء العرب الآخرين. لماذا يموت كل هؤلاء الناس في العراق وفي فلسطين، وكيف السبيل إلى وقف ذلك؟ أو حتى يمكن للسؤال أن يكون: هل أنا معني حقاً بموت هؤلاء؟ لماذا لم تثمر الإنترنت في بلادنا اقتصادياً وعلمياً أكثر مما أثمرت في الموزامبيق؟ اللهم إلا إذا استثنينا مكافآت الكتّاب الوسط الذي أغرقونا بآلاف التحليلات والمقالات عن فوائد الإنترنت وآثارها.. والتي كان بإمكاننا الاستغناء عنها، لأنها موجودة على الإنترنت أصلاً.

ويمكن للائحة أسئلتي أن تطول إلى أن تصل إلى عجزي عن اختراع حبة أسبيرين لمداواة صداعي.. وكل هذه الأسئلة أجمعها في سؤال واحد حول قيمتي ووجودي ومصيري ودوري في هذا العالم.. ومثل هذا السؤال لا يمكنه أن يكون برسم «الجيل الوسط»، لأن لا أحد منهم قادر على التنطح لهذه المهمة.. إنه برسم جيل الصف الأول الغائب عن ساحتنا العربية لأن مشروع نهضتنا الذي بدأ في القرن التاسع عشر تعثر وتدهور. ومن المرجح أنه تعثر وتدهور لأننا اعتمدنا على «الجيل الوسط» لنقص في الصف الأول. أوليس في كتبنا ما يصف بعض الشعراء والأدباء على أنهم «فلاسفة»، مع العلم أن لا علاقة لهم بالفلسفة؟

حجمه عربياً.. عنوان مشكلة

كان تضخم قطاع المثقفين المتوسطين في العقود الأخيرة نتيجة عوامل عديدة، من أهمها تزايد المطبوعات الثقافية ووسائل الإعلام ذوات الطابع الثقافي أو البرامج الثقافية. وهذا التضخم بدأ في بيروت خلال السبعينيات (عشية اندلاع الحرب الأهلية) فكل حزب أو تيار سياسي أو فكري أصدر مطبوعة أو أكثر، واحتاج إلى دعاة وأنصار.. ووجد الجميع مبتغاهم على أنقاض المشروع النهضوي الذي كاد يلامس النضوج في النصف الأول من القرن العشرين.

وبتعزيز الإقليمية الجديدة عقب تداعي المشروع النهضوي القومي العربي، سعت كل دولة عربية إلى تحقيق اكتفائها الذاتي من الانتلجنسيا. وهكذا بات عدد المنابر الإعلامية والثقافية في البلد العربي الواحد، أكبر من عدد المفكرين الذين يستحقون فعلاً هذا الاسم، والذين كان يمكننا أن نكتفي بثلاثة أو أربعة منهم لتحقيق نهضتنا فعلاً، والتخلص من الأسئلة التي لا نجد لها جواباً اليوم.

ومن الأحكام الفادحة في مغالطتها للواقع، قول الكاتبة في وصفها لكتابات من تسميهم «المفكرين الأوائل» بأنهم كتبوا ويكتبون من دون أن يؤطروا كتاباتهم في أمثلة حية وقريبة من حاضر القارئ. والحقيقة أننا لا نعرف عن أي مفكرين تتحدث الكاتبة. ما نعرفه عن المفكرين من أرسطو عند اليونان قديماً، إلى ساطع الحصري عندنا حديثاً، مروراً بفولتير وروسو في فرنسا وكارل ماركس ونيتشه في ألمانيا (فلسفياً واجتماعياً فقط)، هو أنهم يدينون بكل خاطرة فلسفية وفكرة إلى انغماسهم في متابعة تطورات مجتمعاتهم بكل ما في الحياة اليومية فيها من تفاصيل.. وحشوا هذه الأمثلة حشواً في مؤلفاتهم.

والواقع أن الكاتبة المسفر ليست وحدها في إطلاق مثل هذا الحكم مجهول الأساس. فقد ظهرت في الآونة الأخيرة بعض التنظيرات التي تدعو إلى ثقافة ثالثة، لأن هناك من يرى أن أصحاب العلوم الإنسانية مثل الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وما شابه يفتقرون إلى ثقافة العلوم الدقيقة مثل الفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا الحديثة. ويدعون إلى دمج الثقافتين الإنسانية والعلمية في ثقافة واحدة.. وهو طرح يشبه مقولة المسفر لجهة التعامي عن أن كبار مفكري العلوم الإنسانية كانوا ولا يزالون دائماً على اطلاع واسع للتطورات العلمية والتقنية في عصورهم. وعوضوا عن خوض غمارها تخصصاً، بقراءة مستقبلها والتحولات الاجتماعية الناجمة عنها.. وهذا هو اختصاصهم.

باختصار، لا يجوز للكاتبة المسفر أن تخلط بين الجيل الوسط، ابن الصحافة الثقافية، وعالم الفكر الأعلى منه، والأعمق تأثيراً. والخطأ يصبح إنذاراً بوجود خطر داهم على أبناء جيلها الذي تتحدث باسمه فتقول إن «فكر الجيل الوسط هو حائط الصد الذي سيحتمي به جيلنا».

وأنا أقول لها ولأبناء جيلها، إن حائط الصد هذا هش، ويزداد هشاشة، وقد تجدون أنفسكم في العراء، أو قد تعون أنكم في العراء، لأن جيلنا وجيلكم هو الآن كذلك.

الدكتور نزار إبراهيم آغة القلعة

بغداد

حول قول في مقال «نعمة الوضع الوسط»، القافلة عدد سبتمبر-أكتوبر 2006

القافلة: عطفاً على إشارتكم إلى موضوع «الثقافة الثالثة» نلفت نظركم إلى أن عدد القافلة الذي بين يديكم الآن، يحتوي بحثاً مفصلاً بشأنها، نرجو أن يكون باعثاً على مزيد من التأمل والبحث في القضية التي تشيرون إليها.



التدريب المهني

العلم الذي يفرضه سوق العمل على.. المتعلمين

قليلة هي القضايا التي تشمل مفاعيلها ما تشمله قضية التدريب المهني ذات الوقع المباشر على الشباب ومستقبله والتعليم وسوق العمل والاقتصادات الوطنية وصولاً إلى استقرار الفرد اجتماعياً. وعلى الرغم من كل ما تحقق على صعيد التدريب المهني، سعودياً وعالمياً، فإنه لا يزال موضوع بحث وتطوير.. وقبل كل شيء حاجة لا يمكن الاستغناء عنها.

عرض القافلة لهذه القضية هنا يتضمن إسهامات أربعة باحثين، هم: إبراهيم السحيباني ويوسف القبلان ومحمد الطريري في الجانب السعودي من الموضوع وهدى حوّا حول التجربة الأوروبية، الذين يسلِّطون الضوء على جوانب مختلفة من هذه القضية بدءاً بما هو حاصل محلياً، وصولاً إلى ما هو عليه وتحولاته في العالم.

1 سعودياً.. جهود كبيرة وحاجات أكبر



المحترف السعودي

حينما نتحدّثُ عن التدريب، فنحنُ نتحدث عن منظومة تحتوي على متدرب ومدرب ومادة تدريبية. وقد يُضاف لها بشكل غير مُباشر (الجهة المشرفة على التدريب) سواءً أكانت هذه الجهة شركة عاملة في المجال التجاري بشكل عام لهدف تطوير المتدرب، أم شركة متخصصة في التدريب لتأهيل المتدرب وإعداده لخوض غمار سوق العمل، متسلحاً بأكبر قدر ممكن من المهارات اللازمة لتحقيق الأهداف العامة في أية منشأة ترغب في توظيفه.

ونلاحظ أننا اليوم أمام طريقين لتدريب الشاب السعودي، وتأهيله للوظائف العملية، إما عن طريق التحاقه بمنظومة عاملة، وتأهيله على رأس العمل، أو من خلال مبادرة شخصيّة من المتدرب نفسه لتأهيل مهاراته قبل التقدّم لأية وظيفة. وكلا الطريقين يحملُ الكثير من المفاجآت والمخاطر، والكثير أيضاً من الفوائد والمنعطفات.

إن المتأمل في جداول الدورات المطروحة في الصحف لتأهيل الشباب للعمل في الوظائف الحكومية أو الشركات الخاصة يلحظ أن شركات عديدة بدأت بتغيير استراتيجياتها من اقتصار التأهيل على دورات الحاسب الآلي واللغة الإنجليزية -رغم أهميتهما- إلى توسيع مدارك المتدرب، وتنظيم دورات أخرى كمهارات الاتصال، والتفاوض السريع، والمحافظة على العملاء، وغيرها من المهارات المتعلّقة بشخصية المتدرب أكثر من مهنيته في تأدية عمله الروتيني اليومي كالمحاسبة مثلاً أو الأرشفة أو حتى ترتيب اللقاءات والمناسبات فيما يتعلّق بوظائف العلاقات العامة ونحوها.

هذا التغيّر في تفكير الشركات الداعمة لبرامج التدريب كان بناءً على مطالبات حثيثة من سوق العمل مُمثلاً بالشركات الراغبة في توظيف شباب مؤهل عملياً، ونفسياً، واجتماعياً.. مروراً بتغيير كبير وواضح طرأ على عقلية الشباب السعودي في التعاطي مع هذه الدورات عمّا

كانت عليه في فترات مضت، وكانَ لهذا التغيير (على شقّيه) التأثير الواضح على الدورات المطروحة من ناحية المضمون والكيف.. وكذلك الكم.

شركات عديدة بدأت بتغيير استراتيجياتها من اقتصار التأهيل على دورات الحاسب الآلي واللغة الإنجليزية إلى توسيع مدارك المتدرب

ومن خلال نظرة سريعة إلى وضع الشباب السعودي المؤهل تأهيلاً قريباً خلال السنتين الماضيتين، نجد الفرق واضحاً بينه وبين من تمّ تأهيله قبل خمس أو ست سنوات، من ناحية التفكير، والأداء، والانضباطية، وقيم العمل.. ومعانٍ كثيرة غُرست في ذهنيّة المتدرب من خلال برامج تدريب حديثة كانت سبباً في تطور الكثير من المنشآت، وكانَ هذا التأهيل كفيلٌ بأن يجعل الشركة أو المنشأة بشكل عام تتمسك بهؤلاء الشباب وتقدِّم الحوافز الكبيرة لهم، لضمان استمراريتهم، واستمرارية المنفعة المتبادلة بين الطرفين.

وزارة العمل وصندوق تنمية الموارد البشرية

لقد نجحت وزارة العمل في المملكة في السنوات الأخيرة في شدّ الاهتمام صوب التدريب ومجالاته التي يطرحها صندوق تنمية الموارد البشرية والعديد من المؤسسات الأهلية التي تتبنى التدريب كحل للتأهيل الوظيفي.

فبعد أن كان الشباب السعودي يطالب بفرص ووظائف، طرحت الوزارة الفرص زائد التدريب. إذ إن المعادلة السهلة التي تفترض وجود عاطل وتطالب له بعمل، تشترط في الوقت ذاته أن يكون مؤهلاً. وبغض النظر عن استخدام وزارة العمل لعبارة «طالبي العمل»، بدلاً من «عاطلين»، أثناء تناولها لقضية البطالة، فإن مؤشر جديتها يبقى واضحاً للعيان من خلال برنامج «تهيئة طالبي العمل في القطاع الخاص»، الذي انطلق في شهر ذي القعدة من عام 1425هـ. وركَّز التعريف بالبرنامج على أنه جاء «لسد الفجوة» بين رغبات أصحاب الأعمال، وتطلعات طالبي العمل من المواطنين للانخراط في العمل، من خلال إكسابهم بعض المهارات والمعارف السلوكية الضرورية المطلوبة للعمل في القطاع الخاص، وكذلك تعريفهم بالوظائف المتاحة وكيفية الحصول عليها بما يتوافق مع إمكاناتهم وقدراتهم.

وإذا اتفقنا على أن الحديث عن التدريب يأتي بعد بروز إشكالية البطالة، فإن من الضروري الحديث عن التوظيف كنتيجة لهذا التدريب، وهنا يأتي إنشاء مركز الملك فهد للتوظيف في كل من الرياض وجدة والدمام، ومن أهم نشاطاته توفير قائمة بيانات لسوق العمل، تتركز على أصحاب الأعمال والوظائف المتاحة وطالبي العمل، وتقديم خدمات التوظيف والإرشاد المهني.

وتفيد الإحصاءات الأخيرة لصندوق تنمية الموارد البشرية أن عدد من تم توظيفهم حتى الآن يزيد على 72 ألف مواطن. والاتفاقات التي يبرمها الصندوق متواصلة لتدريب وتوظيف أكثر من 110 آلاف آخرين. وتبلغ نسبة الوظائف النسائية التي قام الصندوق بدعمها 15 في المئة من مجمل الوظائف. وما عدا التدريب عن طريق الصندوق، هناك مبدأ التدريب المرتبط بالتوظيف «إذ يتم التعامل منذ اليوم الأول مع المتدرب على أنه موظف، ويتم تسجيله في التأمينات الاجتماعية».

وإزاء الاهتمام بموضوع التدريب تأتي شكوى القائمين عليه «من وراء الكواليس» من عدم جدية المتدربين في البرامج المطروحة، إذ تصل نسبة التسرب من البرامج إلى 30 في المئة في بعض مسارات التدريب المطروحة من قبل بعض الجهات التنفيذية. ولا يعني هذا وصف جميع المتدربين باللامبالاة، بل نسبة محددة منهم لا تمثل التيار الغالب بكل تأكيد، إلا أن وجودها يطرح مشكلة يحاول القائمون على عملية التدريب إيجاد تفسيرات منطقية لها ومن ثم وضع الحلول لتلافيها.

العوامل المؤثرة في التدريب

بشكل عام، ليس على صعيد المملكة بشكل خاص، يمكن القول إن نجاح التدريب لا يعني تحقق فعاليته حكماً، فقد ينتهي البرنامج التدريبي برضا جميع الأطراف (المدرب، والمتدرب، ومدير التدريب)، وقد تكون النتائج جيدة في النهاية، ويأتي تقييم البرنامج من قبل المشاركين من دون سلبيات تذكر، ومع ذلك تبقى مرحلة التطبيق مرحلة مهمة، عن طريق نقل أثر التدريب إلى بيئة العمل سواء أكان هذا الأثر معرفة أم مهارة أم سلوكاً.

إن نقل ما تعلمه أو اكتسبه المتدرب إلى بيئة العمل هو محط اهتمام الجميع، فالمنشأة تنتظر نتائج التدريب لتبرير كلفته، والمدرب سيشعر بالرضا حين يعلم أن متدربيه طبقوا عملياً ما تعلّموه في قاعات التدريب. أما المتدرب فإنه يتوقع بعد العودة إلى العمل أسئلة محرجة من الرؤساء والزملاء عن فائدة التدريب، وقد يعود ليواجه المشكلات السابقة نفسها فيُطلب منه حلها. فالمتدرب هنا يهمه، ومن مصلحته، أن يستفيد عملياً من التدريب، فقد يؤدي ذلك إلى الترقية، أو على الأقل إلى رضا الرئيس والزملاء والشعور بالإنجاز وتحقيق الذات.

وبناءً على معرفة أهمية التدريب ومكاسبه المهمة للجميع، يبرز التساؤل الملّح عن المانع الذي يحول بين المتدرب

وبين التطبيق؟ وتتعدد وجهات النظر تجاه ذلك. ويوجه النقد عادة إلى أحد عناصر عملية التدريب (المنشأة، المتدرب، المدرب، محتوى التدريب، أسلوب التدريب... الخ) في إعاقة نقل أثر التدريب.

دور المنشأة

إن التحديد الدقيق للاحتياج التدريبي، وإعداد خطة تتضمن تحديد من يحتاج للتدريب، ثم نوع التدريب المطلوب وفقاً لدراسة علمية تشمل تحليل التنظيم، وتحليل العمل، كل ذلك يشكّل مسألة جوهرية لمساعدة المتدرب على الاستفادة من التدريب وتطبيقه.

وإذا كانت هذه الخطوة تتم بطريقة غير منظمة، أو بمبادرة من الموظف لتحقيق مكاسب ذاتية من التدريب لا علاقة لها بطبيعة العمل، وإذا كانت المنشأة تنظر للتدريب نظرة دونية وتعتبره كالإجازة للمتدرب، وليس كوسيلة للتطوير والتنمية، فإن هذا يؤدي تلقائياً إلى عدم متابعة آثار التدريب، وبالتالي عدم معرفة ما تحقق، بل وعدم تشجيع المتدرب على التطبيق.

ولا يخفى أن بعض الشركات تعتبر الدورة مكافأة للموظف – لتحقيق ما سبق ذكره- بينما بعض الموظفين يعتبرها فرصة للهرب من روتين العمل، أو أخذ محفّزات ماديّة -أثناء أو بعد الدورة- والاستفادة منها في رفع رصيد السيرة الذاتية بدورة متخصصة. وتكون -الدورة- سبباً في تمييزه عن زملائه في حال وجود منافسة على ترقية وظيفية أو نحو ذلك.

يرى الإداريّون في هذه المسألة رأيينِ مُتباينين:

أحدهما؛ فائدة الموظف متحصّلة في كلّ الأحوال، سواءً أكانت نيّته الاستفادة والإفادة أم كانت النيّة فقط لزيادة المكسب المادي من أي جانب..



المحترف السعودي

ورأيٌ آخـر يُنـادي بتقييـم أداء الموظف قبل وبعـد الدورة التدريبيـة، لتأكيد الجـودة، وضمان تحقق الفائـدة. وبناءً على التقرير المقدَّم من عدة جهات لتقييم هذا الأداء يكون القـرار النهائي بمنح هذا الموظف شهـادة تدريب معتمدة أو إتاحة الفرصة له من جديد لخوض غمار التجربة مرة أخرى.

هناك فرق واضح في وضع الشباب السعودي المؤهل تأهيلاً حديثاً، من حيث التفكير والأداء والانضباطية وقيم العمل

هـذا الحديث، يجرّنـا لتنـاول مُخرجـات الـدورات التدريبية على رأس العمل، وهل زيادة المبيعات لمديـر المبيعات في شركةٍ مـا -بعـد تأهيله بـدورة خاصة فـي مجال عمله- تعني نجاحـه في الدورة، واستفادته منهـا.. وإخفاقه -بالطبع- يعني فشلها كمضمون، أو فشله كمُتلقٍ؟!

لا نظـن أن هـذه النظـرة نظـرة سليمـة، فأقـل العارفيـن بالمجـال التجـاري -خصوصـاً- يعـي أن المسألـة مسألـة تكاملية لإدارات متعددة وعامليـن كثر.. كلهم يسهمون في بنـاء منظومة واحـدة. ولا يعني إخفاق قسـم إخفاق مديره أو المسـؤول عنه، ولا يعني نجاح قسم نجاحاً للمشرف عليه أو صاحـب الصلاحيـة فيه. إنها مؤشرات لا بـد وأن تؤخذ بالحسبان، ولكنها ليست معياراً نهائيا.

هنا نستطيع القـول بأن المنشاة تستطيـع الإسهام بصورة مباشـرة في تحقيـق آثار التدريب، أو في نقـل أثر التدريب عن طريـق إيجاد إدارة لهـذا الشأن في الهيـكل التنظيمي للمنشـأة، وربط هذه الإدارة بالإدارة العليا، وإيجاد سياسة واضحـة للتدريب معلومة للجميع، إضافـة إلى إعداد خطة للتدريب وفقاً للاحتياجات التدريبية، وتقييم المتدرب قبل وبعد التدريب، والتنسيق مع معاهد التدريب.

المتدرب وقياس فاعلية التدريب

من جهـة أخرى يشكـو المتدرب عادة من عـدم تمكنه من تطبيـق ما اكتسبه من الدورة التدريبيـة، ويلقي باللوم على عوامـل خارجية كالرئيس المباشر، أو محتوى التدريب. ولا نستطيع تبرئة المتـدرب أو إعفائه من المسؤولية، حيث إن التطبيـق يعتمد في البداية على مبادرتـه واهتمامه ورغبته فـي التطويـر والمساهمة. كمـا أن وجـود الحافـز الذاتي للمتـدرب قبـل التدريـب، يجعله يحرص علـى الاستفادة النظرية والعملية، ويعود إلى عمله متحمساً لحل المشكلات التـي كانت تزعجـه. ونتيجة لذلـك بمقدورنـا أن نقول إن على المتـدرب ألاَّ يعتمد على مبادرة رئيسه، الذي قد تكون لـه مشاغل كثيـرة لا تسمح له بسـؤال المتـدرب عن نتائج التدريب. ولذا قد يكون من المناسب أن يبادر المتدرب إما بالحديث إلى زملائه أو رئيسه عن التدريب، أو يقوم بكتابة تقريـر عن التدريب إلى رئيسه يتضمـن النقاط التي يمكن الاستفادة منها في بيئة العمل.

إن تقييـم فاعلية التدريب لا تتحقق باستخدام الاستبيانات أو الاختبـارات قبـل وبعـد التدريـب، فالمتدرب قـد يقول باستفادتـه مـن البرنامـج، وقـد يحقـق درجـة عاليـة في امتحانـات البرنامـج التدريبـي، ولكـن ذلك كلـه لا يُعتمد كمعيـار لقيـاس فاعليـة التدريب، لأنـه لا يعنـي تطبيق ما تعلمـه المتـدرب في بيئة العمل، إذن كيـف يمكن تقييم أثر التدريب؟

يقترح بيش (1975م) استخدام أسلوب مقارنة الأداء قبل التدريـب مع الأداء بعـد التدريب، مع ضـرورة التأكد من عـدم تدخل عوامل أخرى غير التدريب في تحسين الأداء، فإذا كان مديـر المبيعات قد حصل على دورة تدريبية في مجال عمله ثم عاد للعمل وارتفعت نسبة المبيعات، فيجب أن نتأكـد إذا كان التدريـب هـو سبب الارتفـاع، أم مجرد ارتفاع الطلب. ولنفترض أن المبيعات انخفضت فيما بعد، فهل يمكن القول إن التدريب فشل في تحقيق أهدافه؟

الخريجون الجامعيون والتدريب

يشكـو الشباب من ظلم الشـركات لهـم بمطالبتها بشباب مُدرب، وذي خبرة واسعة في مجال عمله، وتشكو الشركات مـن شبـاب لا يحمل للمسؤوليـة معنى، ولا يعـي أخلاقيات المهنة (لعدم معرفته بها مسبقاً).

ثمّـة حلقة مفقـودة اليـوم بينَ العناصـر الثلاثـة المتعلّقة بالتدريب مـن جهة والجهـة المستقبلة للمتـدرب من جهة أخرى، كجهة لها قرار نهائي بقبول هذا المتدرب من عدمه، أو على أقل تقدير في قبول مؤهلاته التدريبية ورفضها.

الحديـث هنـا ليسَ عـن شبـاب المرحلة الثانويـة -على اعتبـار أنها مرحلة انتقاليّة للدراسة العليا- بل هو حديثٌ عن مخرجـات الجامعـات، من تخصصـات ذات علاقة وطيـدة بسـوق العمـل (التسويق – المبيعـات – الإعلام – المحاسبـة – الهندسـة.. وغيرها).. وتكمن المشكلة في إعادة تأهيل هؤلاء الشبـاب بنفس تخصصاتهم التي قضـوا معها أربـع أو خمس سنـوات جامعيّـة يتعلمون كل دقيقة وجليلة فيها.

كانَ الجانـبُ التطبيقـي لمـا يُدرس هوَ الجانـب المفقود. فالجامعـة تعطي الطالـب معلومة مجـرّدة مـن أيّ تطبيق عملـي، بالإضافة إلى عدد ساعـات دراسية مرتفع لا يسمح للطالـب بالعمل أثناء الدراسـة للتوفيق بين ما يعمل ويتعلم في آنٍ واحد.

وقد اتجهت الشركات التجارية للاستعانة بخريجي المعاهد -الخاصة أو العامة- لعدّة أسباب، قد يكون من أهمها توافر أساسات المادة العلمية للتخصص المدروس، وهذا يكفي للانطلاق في سوق العمل وتطوير الذات مهنياً عن طريق الممارسة على أرض الواقع. كما أن الشاب في هذه المرحلة يعتبر أشبه بالعجينة سهلة التحوير والتصريف وفق ما يتطلبه مجال العمل، فضلاً عن قلّة دخل الفرد المؤهل تأهيلاً نصف جامعي عن خريج البكالوريوس، وهذا في النهاية ينعكس على مُدخلات ومخرجات الشركة المالية.

بعد أن كان الشباب السعودي يطالب بفرص ووظائف، طرحت وزارة العمل الفرص زائد التدريب.

لذا، من الضروري أن يُعاد النظر في الوضع الأكاديمي للتخصصات ذات العلاقة المباشرة بسوق العمل، والعمل على إعادة تأهيلها بما يتناسب مع متطلبات الواقع، لا الحديث من برج عاجي، وإخراج شباب يحملُ معلومةً دون أن يعرف أساسات تطبيقها على الواقع إلا بعد اجتهادات فرديّة لا تكاد تُذكر.

الحاجة إلى مظلة وطنية للتدريب

يؤكد مدير التدريب والتطوير بغرفة تجارة الرياض صلاح جفاره، الحاجة إلى «مظلة وطنية» تشرف على جميع مؤسسات التدريب في المملكة وتقوم بتوجيهها نحو السياسات والاتجاهات والإستراتيجيات التي تستهدفها الدولة. حتى لا تحدث ازدواجية وهدر في الأموال المخصصة للعملية التدريبية، على أن يكون عمل هذه المظلة القومية في اتجاهين: الأول دراسة احتياجات سوق العمل وخطط السعودة المستهدفة، والثاني، دراسة مخرجات المؤسسات التعليمية من مختلف التخصصات وتوجيه مؤسسات التدريب على ضوء ذلك.

وعلى ضوء تفاوت نسب السعودة المستهدفة في جميع الأعمال، الذي يفرض نفسه على منظومة العملية التدريبية، يطالب جفاره بتخفيض التدريب في الفترة الحالية على الأعمال والمهن التي أثبت الواقع عزوف بعض الشباب السعودي عن العمل بها، لأن التدريب عليها يمثل استنزافاً للموارد، مقابل تركيز مؤسسات التدريب، خاصة فيما يتعلق ببرامجها التأهيلية، على الوظائف والمهن التي ترتفع فيها نسبة السعودة المستهدفة.

ويضيف: «يجب أن تقوم مؤسسات التدريب بداية بحصر هذه الوظائف وتصميم برامج تأهيلية لها، حتى ولو كنا نتوقع زيادة الفترة الزمنية للبرامج التأهيلية لهذه الوظائف، حتى يمكن تخريج كوادر وطنية ذات كفاءة مقنعة لأصحاب الأعمال».

ويعتبر جفاره أن التدريب ما زال يسير في اتجاه أحادي البعد، يستهدف تحسين مستوى أداء الفرد، ويقول: «لا شك أن هذا أثر جيد من آثار التدريب وإن كنا نأمل زيادة واتساع نطاق العملية التدريبية لتساعد على تحسين الأداء النفسي والاجتماعي والثقافي للفرد داخل المجتمع. ويمكن تحقيق ذلك عن طريق تضمين برامج التدريب بعض الكفاءات اللازمة للفرد، والتي تحقق لديه كلاً من المواطنة التنظيمية والمواطنة القومية، فلم تعد الكفاءات الفنية اللازمة لتأدية العمل هي العنصر الوحيد الذي يعول عليه التدريب في الفترة الحالية، بل أصبحت كذلك الكفاءات النفسية والعقلية والوجدانية من العناصر التي يمكن تنميتها من خلال التدريب. ولا تقتصر أهمية هذه الكفاءات على تكوين المواطن الصالح والمتألق وظيفياً ووطنياً فقط، بل يمكن أن تنسحب آثارها على العديد من الممارسات الإيجابية للفرد داخل مجتمعه، وهذا يمثل المناط بعيد الأثر للعملية التدريبية».

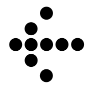
ويشدد جفاره على أهمية استيعاب انضمام المملكة العربية السعودية إلى منظمة التجارة العالمية، قائلاً: «لا شك في أن انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية قد يغيِّر كثيراً من ملامح منظومة التدريب مستقبلاً. فعلى مستوى محتويات البرامج التدريبية نجد أن هناك كثيراً من المستحدثات العلمية التي يجب أن يضمها المحتوى التدريبي، سواء ما يتعلق بمحتوى الوحدات التدريبية أو آليات تنفيذ هذه الوحدات بما يضمن تنمية معارف ومهارات المتدربين وتغيير اتجاهاتهم وأنماطهم السلوكية، بما يتناسب مع التغيير الحاصل في مجال الأعمال.

وعلى مستوى المتدرب، يجب التركيز على جوانب المرونة الفكرية حتى يكون قادراً على استيعاب متناقضات الأشياء والتعامل معها، وإلاَّ سيكون دوغمائياً على المستوى الفكري، لأن استيعاب آثار التجارة العالمية يحتاج إلى زيادة المرونة الذهنية للمتدربين.

وعلى مستوى المدرب، ينبغي تأهيله بكل معطيات القرن الحالي، وأن يخرج بثقافته من مستوى التخصص الدقيق إلى مجالات أكثر اتساعاً. وبالتالي يجب أن يكون موسوعة لمختلف فروع العلم بجانب الاهتمام بتخصصه الأساس.

وعلى مستوى آليات تنفيذ البرامج التدريبية قد يكون من الملائم في الفترة القادمة الاشتراك مع مراكز التدريب في دول العالم الحديث، لتقديم أفضل خدمة تدريبية ممكنة».

وبناءً على النظر في مختلف التقاطعات المؤثرة في عملية التدريب، يراهن بعض المراقبين على «عامل الزمن» في هدوء فورتها بما يتناسب مع حاجة السوق والمجتمع.



العبد الحافظ:

الحاجة إلى كيانات تدريبية عملاقة

لم يكن الحديث عن التدريب ليتجاوز صندوق تنمية الموارد البشرية وهو المتخصص في أكبر عملية تدريب وطنية، من خلال أكثر من 35000 مستفيد من برنامجه التوظيفي المبني على التدريب. «القافلة» أجرت هذا الحوار القصير مع مدير إدارة التدريب في صندوق تنمية الموارد البشرية، محمد بن علي العبدالحافظ، للوقوف على ملامح من استراتيجيات المركز وآلياته.



هل تعتقدون أن هناك استراتيجية واضحة للتدريب في المملكة؟

لاشك في أن ما يدخل سوق العمل من مخرجات المؤسسات التعليمية والتدريبية يلبي احتياجات هذه السوق في كثير من التخصصات. ورغم تعدد الجهات المعنية بالتدريب والتعليم بالمملكة، إلا أن هناك حاجة ماسة إلى مزيد من التنسيق في مجال التدريب والتخصصات القائمة، ومدى الحاجة إليها وإدخال تخصصات جديدة مبنية على الاحتياجات الفعلية واحتياجات المناطق. هذا بالإضافة إلى أن سوق التدريب في المملكة سوق واسعة، بناءً على الحاجة الكبيرة لسوق العمل. وهذا بدوره يتطلب قيام كيانات تدريبية عملاقة من خلال إنشاء شركات جديدة أو اندماجات بين ما هو قائم، وخاصة في ظل انضمام المملكة إلى منظمة التجارة العالمية وفتح الأسواق ودخول شركات منافسة. والمعاهد والمراكز التدريبية القائمة تؤدي دوراً مهماً في إعداد كوادر بشرية مؤهلة من خلال برامج تدريبية متنوعة.

إذاً ما هي طبيعة الدور الذي ينهض به صندوق تنمية الموارد البشرية في دعم التدريب والتوظيف؟

يتمثل الهدف الرئيس للصندوق بدعم وتسهيل تدريب وتوظيف الشباب السعودي على أعمال القطاع الخاص. في مختلف المهن وفق احتياج المنشآت. وذلك عن طريق دعم تكاليف التدريب في جهات تدريب خارجية بنسبة تصل إلى 75 في المئة من تكاليف التدريب وبحد أعلى 1500 ريال شهرياً. كما يتم دعم راتب الموظف بعد التدريب بنسبة 50 في المئة بحد أعلى 2000 ريال ولمدة لا تتجاوز سنتين.

وقد جاء إنشاء الصندوق كإحدى الاستراتيجيات الفاعلة التي تبنتها الدولة لتوطين الوظائف في القطاع الخاص. ويمثل الصندوق حافزاً كبيراً للمنشآت للاستفادة من الخدمات التي يقدمها من خلال دعم جهود التدريب والتوظيف ويجد قبولاً كبيراً في القطاع الخاص. وقد استطاع الصندوق توطين العديد من الوظائف في القطاع الخاص من بداية نشاطه. ولا يكاد يمضي يوم إلا ويعقد الصندوق عدة اتفاقيات دعم مع القطاع الخاص في جميع أنحاء المملكة. ومن خلال التعامل مع هذا القطاع يتضح أن هناك عدداً كبيراً من الشركات والمؤسسات الباحثة عن الشباب السعودي التي تسعى إلى توظيفه متى ما وجدت الكفاءة والتأهيل المناسب لتنفيذ متطلبات الوظيفة. وللصندوق دور واضح في توفير الظروف المناسبة لاستقرار المواطن في الوظيفة، من خلال دعم تكاليف التدريب ومن خلال دعم الراتب، خاصة في السنوات الأولى من التحاقه بالوظيفة التي تتيح له أن يثبت جدارته. الأمر الذي يجعل المنشأة أكثر استعداداً للقبول باستمراره واستقراره بالوظيفة. إضافة إلى أن رواتب القطاع الخاص تخضع لمعيار الكفاءة والإنتاجية، والترقيات الوظيفية فيه لا تخضع لشروط ثابتة، بل تخضع لتوافر المهارات والإمكانات المناسبة.

إلى جانب الزخم الكبير من برامجكم الموجهة للشباب، ما نصيب المرأة من جهود الصندوق في مجال التدريب؟

تحظى المرأة بالدعم نفسه الذي يحصل عليه الشاب سواء في مجال التدريب أو مجال التوظيف.

تحدثتم عن دور رئيس لقطاع التدريب الأهلي، ما مقياس جودة التدريب الذي يقدمه، وكيف تدعمونه؟

آليات الدعم التي نطبِّقها تقوم على التدريب المرتبط بالتوظيف، إيماناً من الصندوق بأهمية التدريب. ولذلك، فإن الصندوق يسعى إلى دعم جميع المراكز التدريبية الأهلية من خلال إسناد البرامج التدريبية التي تحتاجها الجهات الموظفَة إلى تلك المعاهد وفق معايير وضوابط محددة من قبل الصندوق. بالإضافة إلى ذلك، فإن الصندوق تبنى تنفيذ برنامج تهيئة طالبي العمل في القطاع الخاص مجاناً، والذي استفاد منه أكثر من 35000 شاب وشارك في تنفيذه أكثر من 175 معهداً ومركزاً أهلياً في مختلف مناطق المملكة. وقد تم ذلك من خلال اشتراطات من قبل الصندوق تتعلق بالبيئة التدريبية والمدربين، حيث تم عقد العديد من الحلقات التدريبية، تم خلالها تدريب أكثر من 1300 مدرب، كما تم اعتماد ما يقارب 60 معهداً ومركزاً نسائياً لتنفيذ برنامج التهيئة لطالبات العمل للمرحلة الأولى الجاري تنفيذها. كما قام الصندوق بإعداد حقيبة تدريبية لتهيئة طالبي العمل، وفق أحدث الأساليب التدريبية.

عطفاً على أهمية دور الصندوق، هل هناك آلية معيَّنة لتفعيل دوره؟

يسعى الصندوق، كواحد من الجهات المناط بها هدف تقليل معدلات البطالة، إلى تحقيق الأهداف من خلال التوظيف المبني على التدريب وليس التوظيف لمجرد التوظيف، حتى نكون بذلك قد قدمنا الشاب السعودي المؤهل للعمل في القطاع الخاص من خلال ثلاثة برامج رئيسة، تتمثل في التدريب المرتبط بالتوظيف، والتنظيم الوطني للتدريب المشترك، وبرامج ومشاريع المناطق بالمملكة.

2 التدريب أوروبياً..

أهدافه: • التشجيع • التمهن • المواصلة • الشراكة • التقدير

من الصعب استثناء بلد أوروبي لم يقم في العقد الأخير ولا يزال بتعديلات أساسية في سياسات وبرامج التدريب، بعضها مدفوع بالمصاعب الداخلية وحاجات أسواق العمل والأوضاع المتغيرة وبعضها الآخر بالسياسة الأوروبية الموحدة. والمنحى العام يتجه لزيادة حيز التدريب ورفع مستوى التعليم والتدريب المهني وفتح منافذ له على التعليم التقليدي (الأكاديمي)، وجعل التدريب أقرب لمتطلبات أسواق العمل، ومعالجة مخاطر الإقصاء الاجتماعي من خلاله.

وتتعدد المتغيرات الاقتصادية والمجتمعية التي تدفع بهذا الاتجاه، إلا أن المتغير الأساس هو سوق العمل، الذي أصبح أكثر تخصصاً. وباتت الاقتصادات تتطلب مهارات أعلى، دافعة الحكومات وقطاعات الأعمال إلى التوظيف المتزايد في مستقبل التعليم المهني والتدريب. فهو حسب أهداف أكثر من بلد «عنصر أساس في بناء والحفاظ على قوة عاملة عالية المهارة تعمل ضمن مجتمع معرفي»، ودخل موضوع التدريب المهني ضمن الاستراتيجية الأوروبية المعروفة باسم «استراتيجية ليشبونة» الساعية إلى دعم القدرة المعرفية والتكنولوجية من أجل بناء اقتصادات أكثر تنافسية عالمياً.

المتغير الآخر هو الضغط المتزايد على العاملين في سوق يجري العمل على جعله مرناً، أي متحرراً من قيود أنظمة الوظيفة. فهناك إقبال متزايد من العاملين على التدريب للحفاظ على وظيفة أو لإعادة تدريب لوظيفة أخرى. كما أن متطلبات السوق باتت تضغط على الشباب للإقبال على الطريق المهني للمهارات المطلوبة أكثر من غيرها. والتغيرات في طبيعة الأعمال تقلل الاحتمالات في أن يتبع الناس سبيلاً مهنياً أو وظيفياً واحداً آمناً وثابتاً خلال حياتهم الوظيفية. تدريب، مواصلة تدريب، إعادة تدريب، باتت سمات ظاهرة للتأقلم مع الأوضاع المتغيرة والتكنولوجيا المتطورة في مستلزمات الوظيفة.


Corbis

التدريب.. للتأقلم مع متغيرات العصر

البعد الاجتماعي له أيضاً موقع خاص في سياسات التدريب. فمنذ أن أصبحت البطالة في أوروبا حالة دائمة وليست مؤقتة خلال العقود الثلاثة الأخيرة، يتزايد الميل إلى تخفيض الأعباء المالية لتعويضات البطالة واستبدالها بمزيد من التوظيف في برامج التدريب المختلفة المشارب لإعادة تأهيل العاطلين من العمل. ويتجه الاهتمام اليوم إلى الشباب في استخدام التدريب كوسيلة لتدارك نتائج الترك المبكر للدراسة، وتجنب مخاطر الإقصاء الاجتماعي لفئات شابة غير متعلمة وغير ماهرة. بعض البلدان تزيد سنوات التعليم أو التدريب الإلزامي (لأكثر من السنوات التسع الحالية)، والبعض الآخر يبادر إلى برامج خاصة للوصول إلى هؤلاء الشباب. وعلى سبيل المثال، فمنذ عام 1999م أصبح لزاماً على الشباب في إيطاليا أن يأخذوا مكانهم في التعليم أو التدريب المهني لغاية سن الثامنة عشرة، وزادت إسبانيا سن التعليم الإلزامي من 14 إلى 16 سنة.

سوق العمل أصبح أكثر تخصصاً، وباتت الاقتصادات تتطلب مهارات أعلى، دافعة الحكومات وقطاعات الأعمال إلى التوظيف المتزايد في مستقبل التعليم المهني والتدريب

تشجيع الطريق المهني

أصبح جذب الشباب إلى التعليم والتدريب المهني في مراحله الثانوية سياسة شبه معممة أوروبياً. ويُنظر إلى هذا التشجيع باعتباره، من ناحية طريقاً للتغلب على ترك الدراسة مبكراً، ومن ناحية أخرى، سياسة لمواجهة مشكلة نقص العمالة الماهرة الوسطى خاصة بالنسبة للدول الأقل صناعياً. التعليم والتدريب المهني، اللذان يعملان على إعداد الشباب لمهن ووظائف تعتبر تقليدياً غير أكاديمية ومتعلقة بشكل مباشر بحرفة أو صنعة أو مهنة، وأحياناً بتخصصات تطبيقية تقنية ترتبط باستخدام تكنولوجي، هما في معظم الحالات شكل من أشكال الدراسة الثانوية وما بعد الثانوية ونادراً ما يندرج في إطار التعليم العالي الجامعي. وصورته ضعيفة في الجنوب الأوروبي، في بلدان كاليونان (حيث نسبة تفضيل التعليم الجامعي هي الأعلى في أوروبا) وإسبانيا، إذ يرتبط بالفشل الأكاديمي وبنشاطات الفئات الأفقر من المجتمع. هذه الصورة يجري العمل على تغييرها في واقع تزداد فيه المهارات تنوعاً وطلباً في قطاعات خدماتية أيضاً كالسياحة والبنوك والأعمال وتكنولوجيا المعلومات ومهارات تكنولوجية أخرى. وتعمل السياسات الحالية على تحسين نوعية التدريب المهني ورفع شأنه وزيادة جاذبيته وربطه بحاجات العمل. وقد قامت معظم الدول الأوروبية بشكل أو بآخر، في إطار توجه من أجل «تعادلية التقدير» بين المهني والأكاديمي، بتعديلات أساسية على النظام المهني الثانوي لفتح المجال أمام طلابه لمتابعة الدراسات العليا الجامعية، إما من خلال دورة استكمالية تسمح بالتقدم للامتحانات الثانوية العامة (بعد دورة مؤهلات مهنية) أو من خلال تحديد مواضيع في إطار الثانوية المهنية والتقنية تنتهي بشهادة ثانوية تسمح بمواصلة الدراسات العليا الجامعية. ومن الأمثلة التي يمكن ذكرها في هذا المجال، إيطاليا التي أدخلت الشهادة التقنية الثانوية (خمس سنوات دراسية) في التجارة والصناعة والسياحة والبحرية والزراعة. وباتت المهن، التي تحتاج إلى دراسة ثانوية لمدة سنوات ثلاث للحصول على مؤهل، ملحقة بسنتين استكماليتين لنيل الشهادة الثانوية العامة. وأصبح ممكناً الحصول في بريطانيا (منذ عام 2000م) على شهادات مهنية معادلة للثانوية العامة «مستوى آي»، وتتوافر في ثمانية موضوعات: العلوم التطبيقية، التكنولوجيا المعلوماتية التطبيقية، الفن التطبيقي والتصميم، الهندسة، الصناعة التحويلية، الصحة والعناية الاجتماعية، الترفيه والسياحة. وكذلك في فرنسا حيث سمح قانون جديد (نوفمبر 2005م) بالشهادة الثانوية المعادلة في عدد من الموضوعات المهنية. وأجاز القانون في اليونان (مايو 2006م) التقدم للشهادة الثانوية العامة من الملتحقين بالمهنية بعد دراسة استكمالية.

أما الوجه الآخر لسياسة التشجيع هو ربط التدريب بالعمل من خلال تحفيز الانخراط في العمل أثناء الدراسة «التمهن».



Getty images

التمهّن

التمّهـن، أي الدراسـة والعمـل، هـو تقليـد مهم فـي بعض البلـدان الأوروبية. وتتفـاوت درجاته بين طابعـه الإلزامي فـي ألمانيا من خلال نظام التعليـم المهني الازدواجي بين العمل التدريبي والمتابعـة الدراسية وحيث ينخـرط فيه أغلبية تاركـي المدارس، وبين دول أخـرى ذات نظـام تمهّـن قائـم علـى أساس تعاوني بيـن المدارس والشركات. وتأخذ تقوية التمهّن اليوم أشكالاً عديدة. إذ يجـري تطبيقه في بعض الدول على مراحل مختلفة من التأهل، أو لغير المؤهلين، ومنه مـا يجـري بالتوافق مـع الدراسـة المهنية الثانويـة وما بعـد الثانوية، ومنه فـي إطار برامــج خاصة، والبعض وضع قوانين تسمح للشباب بأعمار محـددة بالحصول على ساعات مدفوعة من العمل من أجل التدريـب، والبعض الآخر أعـاد الشكل التقليدي للتمهن في إطار الحرف.

تدريب، مواصلة تدريب، إعادة تدريب، باتت سمات ظاهرة للتأقلم مع الأوضاع المتغيرة والتكنولوجيا المتطورة

إن تشجيـع المؤسسات العاملة علـى قبول تعاقدات تدريبية مدفوعـة الأجر مـن ناحية وحفـز الشبيبـة للانخراط في التدريـب والدراسة في الوقت نفسه قد تكـون سياسة ذات أكثر من وجهة، اجتماعية، أو تدريبية تعطي اعتباراً لأجواء العمـل التي تساعد علـى التطور الشخصـي والاستقلالية، والعمـل ضمن فريق، وأخلاق العمل بشكل عام، كما أنها قد تكون تخصصية في إطار بعض الصناعات.

المواصلة

وانطلاقـاً من أن التدريب أصبح اليـوم أساساً لأي كان في مواجهة الوتيرة السريعة للتغيرات التكنولوجية وإعادة البناء عالميـاً، لمن يريـد أن يحافظ على مستـوى أدائه الوظيفي أو ينخـرط في مهنة ماهرة، فإن موضـوع «التعلم المستمر مـدى الحياة» دخـل قاموس السياسـة الأوروبيـة الموحدة (عـام 2001م) كإحـدى استراتيجياتها فـي القرن الواحد والعشرين. والهدف مـن ذلك زيادة التنافسية الاقتصادية في مواكبة التطور التكنولوجي، وتعزيز التماسك الاجتماعي لتجنـب الهوة التـي يخلقها التطـور التكنولوجي، ومساعدة الفئـات الأكثر حرماناً في المجتمـع. وتعكس هذه السياسة الأهميـة المتزايدة لما يسمى بالتدريـب المهني المتواصل الذي انتقل في السنوات الأخيرة إلى موقع بارز في الأجندة السياسيـة لعدد من الدول الأوروبية، نظراً لوتيرة التغيرات الاقتصاديـة والتكنولوجيـة التـي تـؤدي إلى تغييـرات في متطلبـات المهنة في فترات تزداد قصـراً. فعادة ما تقسم برامــج التدريب إلى قسمين أساسين. أولاً، برامج التدريب الأولـي (Initial Training)، وهـو التدريـب الــذي يوفـرّه النظـام التعليمي، ويندرج فيـه تدريب فئـات الشبيبة غير



..لإعداد الشباب لوظائف غير أكاديمية

المؤهلة (والوجهة الجديدة لإعداده تقدم للمتدربين فرص المواصلـة)، والتعليـم والتدريب الثانـوي المهني أو التقني (وهناك توجـه متزايد لربطه بمتابعـة الدراسات العليا)، والتعليـم والتدريب ما بعـد الثانوي فـي مؤسسات لا يعادل تأهيلهـا التعليـم العالي إلا نـادراً. وثانياً، برامــج التدريب المتواصـل (Continuing Training)، وهـي تشمل جميع التدريبـات التي تلـي التدريب الأولي وتتوجـه بشكل أساس إلى الراشديـن العاملين والعاطلين مـن العمل والتي يقدم عليهـا الطالب أحياناً طوعـاً. ويتخذ هذا النوع من البرامج إمـا شكل تدريب مهني إضافي من أجل التأقلم مع تطورات تقنيـة جديدة، أو إعادة تدريـب ضرورية بالنسبة للعاطلين من العمل عندما لا تتوافر وظائف ضمن المهنة.

تدريب أصحاب الوظائف

التدريـب المتعلـق بالوظيفـة هـو بشـكل رئيـس مسؤوليـة الشـركات المعنيـة. والتشجيـع في هـذا المجـال تحتاجه الشركات الوسطى والصغيرة التي تكون عادة أقل استعداداً للتدريب الداخلي. وتركّز بعض الدول اهتمامها على تشجيع الشـركات مـن خلال تعزيـز التعـاون التدريبـي القطاعي وأحيانـاً الدعم المالـي. فإيطاليا مثلاً تضـع قوانين تمكّن من تصميم أنظمة تدريب متواصل، يقدم بخصوصها دعم مالي للشركات من أجل التدريب ولتدريب المدربين، وخطط لتدريب قطاعي ومناطقي بدعم من الشركاء الاجتماعيين، ونسبة التدريب داخل الشركات متدنية في إيطاليا (27 في المئـة في الشمال و15 فـي المئة في الجنوب) وذلك بسبب وجـود عدد كبير من الأعمـال المتوسطـة والصغيرة. وفي إيرلنـدا، التي تتركز فيها التدريبـات في الشركات الكبرى (80 فـي المئة من الشركات التي لديها أكثر من 50 موظفاً قامت بتدريبـات شملت 41 في المئة مـن العاملين)، تقود الصناعـات مبادرات تعاون تدريبيـة شملت أكثر من 2300 شركـة، واستفـاد منها أكثـر من 12 ألف موظـف، وأنشأت

شبكات المهارة عام 1999م لتشجيع ودعم هذا النوع من التعاون. وكان تأثيره مهماً على الأعمال متوسطة الحجم، حيث إن 73 في المئة من الشركات المشاركة لديها أقل من 50 موظفاً. وفي إسبانيا وضعت خطط تدريب للشركات، وخطط تدريب قطاعية تستخدمها شركتان أو أكثر، وخطط تدريب بين القطاعات وخطط تدريب محددة. وتنال الشركات المشاركة دعماً مالياً لتدريب موظفيها. وقدر أن 87 في المئة من الشركات التي لديها أكثر من 10 موظفين نظّمت تدريباً لموظفيها بالمقارنة مع 27 في المئة في 1993م. ومع تطبيق سياسة التعلم المستمر مدى الحياة في فرنسا، جرى التشديد على حق التدريب لكل الموظفين، وعلى جعل مداخل التدريب أكثر سهولة بالنسبة للشركات المتوسطة والصغيرة.

يتزايد الميل إلى تخفيض الأعباء المالية لتعويضات البطالة واستبدالها بمزيد من التوظيف في برامج التدريب المختلفة المشارب لإعادة تأهيل العاطلين من العمل

وتعمل السياسة الأوروبية بشكل عام على زيادة إسهامات الشركات في التدريبات الداخلية التي لا تزال دون الأهداف الموضوعة لها. بالإضافة إلى الشركات، يمكن أن يتوافر أيضاً التدريب عن طريق غرف التجارة والصناعة، هيئات مشتركة، جمعيات صناعية، جمعيات مهنية، نقابات، مؤسسات كالجامعات ومراكز خاصة. ويزيد الاتكال على المراكز الخاصة للتدريب في البلدان التي انضمت حديثاً إلى الوحدة الأوروبية، تحت تأثير الدخول السريع للاستثمارات الأجنبية، وبسبب اعتماد الشركات الأجنبية على القطاع الخاص التدريبي.

وتبعاً لاعتبارات اجتماعية وكذلك اقتصادية، فقد أصبح التدريب المتواصل أكثر انتشاراً خارج إطار الوظيفة. تقدم البرامج الحكومية الموجهة لتعليم الراشدين، خارج إطار التعليم الرسمي، مستويات مختلفة من التدريب، منها التأسيسي العام الموجه للفئات غير المؤهلة، ومنها ما يقدم مواصلة تدريب ما بعد التدريب الأولي في مجالات مختلفة لإنعاش المهارات، بما في ذلك برامج تهيء الراغبين لبدء أعمالهم الخاصة، وبرامج لذوي الحاجات الخاصة وغير ذلك. وبالرغم من أن البعد الاجتماعي لهذه البرامج الموجهة للعاطلين من العمل كان غالباً في البداية، يتوسع اليوم نطاق البرامج لرفع المهارات بشكل عام وتحقيق إمكانية المواصلة لمواكبة التطور التكنولوجي والاقتصادي. وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه الاستراتيجية الأوروبية «للتعلم المستمر مدى الحياة»، هذه الاستراتيجية التي، باستثناء الدول الأسكندنافية التي تحققت فيها درجة عالية من تطبيق التدريب المتواصل، لا تزال (حسب التقارير الأوروبية) مفتقدة في دول أخرى خاصة في جنوب وشرق أوروبا، بينما تندفع دول كبريطانيا التي تشكو من دنو المهارات الوسطى إلى وضعها كأولوية.

إن تطور التدريب المتواصل وانتشاره ينشئ في أوروبا وربما في بلدان أخرى نطاقاً واسعاً من التدريب غير الرسمي، وينمو معه قطاع خاص تدريبي واسع (يحفزه طلب الأفراد أو الشركات وسياسة ترخيص حكومية في إطار التدريب المتواصل). وبالرغم من أن الدولة لا تزال في موقع الهيمنة في معظم البلدان، إلا أن هناك انتشاراً متزايداً لتدريب غير رسمي وعلى جميع المستويات.

الشراكة الاجتماعية

الشراكة الاجتماعية في التعليم والتدريب لها تقليد في بعض الدول الأوروبية، إلا أن التوجه لربط التدريب بالعمل قد دفع دولاً لا تزال فيها الشراكة ضعيفة إلى توسيع المشاركة الاجتماعية التدريبية بما يسمح بتنفيذ أسرع للأولويات الإصلاحية في مجال التدريب. فالدول التي تفتقد إلى تقليد في هذا المجال اتخذت في السنوات الأخيرة بعض الخطوات في هذا الاتجاه، خاصة في إطار تحسين نطاق ومدى التعلم والتدريب المتواصل. الشركاء الاجتماعيون، وبشكل أساس أصحاب الأعمال والنقابات، أصبح لهم في عدد متزايد من البلدان تمثيل في الهيئات المشرفة على التدريب وتأثير أقوى على مستوى المناطق والقطاعات. ففي إيرلندا أصبح للشركاء الاجتماعيين دور في هيئات التحكيم تحت فصل التأهيل وتمثيل في مجموعة المختصين بالحاجات المستقبلية للمهارات. وفي بريطانيا بدأت ترتيبات الشراكة الاجتماعية تأخذ دور المشورة على المستوى الوطني والمشاركة أكثر على المستوى القطاعي، ودخل الشركاء في الاتفاقات الجماعية في وضع نظام المؤهل في أطر محلية ومن بينها ترتيبات التمهن، وأصبحوا ممثلين في 25 مجلس مهارات، وأعطى القانون مؤخراً (2002م) للنقابات الحق بأن يكون لها تمثيل تعليمي في كل مكان عمل. وفي تطبيق لتوجه أوروبي قامت اليونان وإسبانيا سنة 1993م ببعض الترتيبات: استبدلت إسبانيا مؤسسة التدريب المتواصل بمؤسسة ثلاثية البنية للتدريب في العمل، وأنشأت اليونان منظمة التدريب والتعليم المهني من أجل وضع إجازات وطنية للمؤهل المهني ضمت مشاركة من الشركاء الاجتماعيين رغم أنها لم تتشكل على أساس ثلاثي، وتقوّت المشاركة على مستوى المحافظة من خلال لجان استشارية ثلاثية للربط بين التدريب والسوق. وللشركاء الاجتماعيين دور أقدم في إيطاليا، حيث يعترف القانون لهم منذ عام 1983م بدور أساس في نظام التدريب المهني وبشكل خاص في المناطق، كشركاء في التخطيط للتدريب.

التقدير

فـي مواجهة حالة التنويع والانتشـار في برامج التدريب في عـدد من البلدان الأوروبية، ومن أجل جعل سياسة التدريب المتواصـل متعاقبـة ويمكـن قياسهـا، فإن إيجـاد انسجام وإطـارات تقيـم جسـراً بيـن المدارس والمعاهد الأعلى وبرامج التدريب المتنوعة تطرح بشكل متزايد، وتسير جنباً إلى جنب مع ضغـط السوق الأوروبـي الموحد لإيجاد معايير قياس وانسجام بين البلدان لتسهيل انتقال العمالـة –الذي لا يزال ضعيفاً جداً، (حيـث فقط 2 فـي المئـة مـن الأوروبيين في سن العمـل يعملون في بلـد أوروبي غير بلدهـم الأصلـي). هـذا المنحـى تواجهه اعتراضات مهمة ضمن خصوصية كل بلد، خاصـة في بلـدان لها تـراث عريـق وفعّال فـي تطوير العمالـة الماهرة. وتطرح مخـاوف من أن يؤدي تشجيـع التجانس إلـى إضعاف مؤهـلات التدريب والتعليم بشكل عام. وتحت عناوين مثل إدخال ممارسات «ابتكارية» فـإن إعـادة تقويم نظـام المؤهـل الوطني يأخـذ اهتماماً متزايـداً في عدد مـن البلدان لجعل إجـازات المؤهل أكثر شفافية وقابلية للتحويل واعتماد طريق الشهادات، وتشجيع الاعتـراف بالمعرفة والمهارات التـي يجري حيازتها خارج الإطـار الرسمي وذلك ضمن نظام أكثر ليونة يسمح بقياس المؤهـل بالنتائـج. واعترافـاً بالمصاعـب والمخاطر التي تواجه سياسة كهذه، يجري التفكير برفع مستوى المؤهلات للمهن وإيلاء اهتمام متزايـد بكفاءة المعلمين والمدربين. هـذه النظـرة المنفتحـة إلى التعليـم والتدريـب قد تلائم البلدان التي يقـوم نظامها التعليمـي والتدريبي أصلاً على قدر مهـم من المرونة وتشكو مـن شرذمته وعدم تجانسه.

> قامت معظم الدول الأوروبية بشكل أو بآخر، بتعديلات أساسية على النظام المهني الثانوي لفتح المجال أمام طلابه لمتابعة الدراسات العليا الجامعية

وقـد تندفع إليها البلـدان التي انضمت حديثـاً إلى الوحدة الأوروبيـة من خـلال توافر انسجـام أفضل بيـن برامجها والسياسـة الأوروبيـة بشكل عام. فمعظم هـذه الدول تقوم بتعديـلات فـي المناهج والمؤهـل: نظام مؤهـل جديد في أستونيـا يمكن مقاربته مـع أنظمة أوروبيـة، برامج تدريب قابلـة للتحويل في هنغاريـا لجعل مداخـل التدريب أسهل، توسيع الدخول إلى التعليم والتدريب المتواصل في بولندا.

لكـن الأمر يثير في بلدان أخرى نقاشاً حامياً لما يشكله هذا المنحى الأوروبـي للانفتاح على التدريب الواسع من اختراق غيـر مستحـب لأنظمتها الخاصـة. والنقاش علـى أشده في ألمانيـا تجاه الانفتـاح على التدريب الواسـع، بعد أن ضاقت أبـواب الشـركات أمام النـزوع التعليمي التدريبـي المزدوج وبـات يطـال السعي الأوروبـي إلـى توجيه النظـام الألماني المزدوج لينسجم مع السـوق الأوروبية الموحدة. وكان آخره قانون تدريـب مهني جديد (أبريـل 2005م) يسمح للشباب الخـارج مـن مدارس مهنية التقـدم إلى امتحانـات تنظمها الغرف. وبالنسبة لوجهة نظر عبّرت عنها التقارير الألمانية، فإن تحرير سوق العمل الأوروبي لا يحتاج أن يبنى على أساس توحيـد المعايير والتعميـم والاعتراف الرسمـي المتبادل.. ويمكن لحركية انتقال العمالة والمنافسة أن يجري تشجيعهما من خلال معلومات حول مواد التدريب ومهاراتها. وقد أثارت الخطوة الأخيرة لامتحانات مهنية قلق الشركاء الاجتماعيين لما قد يـؤدي إليه وضع مـواد التدريـب المدرسية على قدم المسـاواة مـع التمهن من جعل التدريب مـادة أكاديمية غير عملية. ذلك يعني أن التدريب وطرق تأهيله وتقديره مسألة أبعد مـن أن تكون اجتماعيـة واقتصاديـة، وتتعلق بمصالـح يغلـب عليهـا اليوم النـزوع إلـى المرونة ضمن سبـل تعزيز التنافس الاقتصادي كأولوية.



Getty images

التكنولوجيا الحديثة.. المادة الأولى للدورات التدريبية

قول في مقال

دور الفرد في ردم الهوة

تعتبر مسألة ردم الهوة بين الشباب المتعلم الممتلك للمهارات اللازمة لسوق العمل من جهة، والشباب الأقل حظاً، من القضايا التي لا تزال حلولها النظرية تدور في فلك العمل المؤسساتي والمجهودات الحكومية وتطوير القوانين وما شابه ذلك من تصورات الحلول الشاملة. وانطلاقاً من بعض قراءاته للأفكار المتداولة في هذا المجال، يسلِّط الكاتب السعودي عبدالله الشهري* الضوء على جانب قلَّما حظي بالاهتمام اللازم أو قلَّما عُلِّقت عليه آمال الإصلاحيين، حتى يمكن القول إنه يتقدَّم باقتراح جديد تماماً يعتمد على الفرد وجهده في مجال ردم الهوة التي تفصل بين فئتي شبابنا العربي.

كشف تقرير صادر عن البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، أعد بالتعاون مع قسم التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المنظمة، أنه وفي الوقت الذي كان يفترض أن تفتح العولمة بآلياتها الاقتصادية أسواق عمل جديدة أمام الشباب العربي، فإنها عملت على دمج فئة محددة من الشباب في السوق العالمية، وهي الفئة التي تملك مفاتيح العصر من المعارف والمهارات مما سيترك أثره على المدى الطويل تفاوتاً اجتماعياً واقتصادياً بين المنتمين إلى هذه الفئة العمرية.

* كاتب سعودي

الشباب المتمكن وسوق العمل

وليس من الصعب أن يصل المتأمل، سواء أكان من الجيل الأكبر أم من الشباب أنفسهم، إلى هذه النتيجة بمجرد متابعة أحوال سوق العمل والعرض والطلب على الموارد البشرية الشابة.

فهناك من الشباب فئة نستطيع أن نقول عنها إنها تلك الفئة التي حظيت بتعليم متميز، واستطاع أفرادها أن يحققوا قفزة لم تكن متوقعة في مهاراتهم المكتسبة وقدراتهم على التعلم والإنتاج بل وصنع القرار. وهي تلك الفئة التي ربما يكون تحقيق القافلة قد عناها في عدد المجلة لشهري يناير/فبراير من السنة الحالية والمعنون بعنوان «شباب في مواقع القيادة».

تحدث التحقيق عن شباب متمكن قادر على التعامل مع معطيات الحياة الحديثة بكافة أشكالها سواء أكانت تلك التكنولوجية منها أم لم تكن. شباب حر ومجدد قادر على الابتكار والإبداع، ويعي في قرارة نفسه ما يتمتع به من مهارات تكسبه ثقة وإقداماً لا يخشى معهما ما قد يأتي به المستقبل، بل تجده مطالباً بالتغيير ومتوقعاً له. وهؤلاء الشباب هم وقود سوق العمل العربي اليوم، وهم القيمة الغالية شبه الغائبة التي تتنافس على توظيفها الشركات وتبذل الكثير في تحقيق رضاها واستقرارها في العمل.

ولكن في الناحية الأخرى، نرى أن قطاع الغالبية من الشباب العربي هو الذي لم تتح له الفرص ذاتها التي أتيحت للفئة الأولى فلم يتحقق له

التعلم في جامعة بنظام تعليمي متميز، ولم يتقن اللغة الإنجليزية، ولا يزال يتعثر وهو يخطو خطواته الأولى في تعلم الكمبيوتر والتعامل مع الإنترنت. هذا على السطح، بينما إذا نظرنا بعمق إلى ما وراء ذلك، لوجدناه يفتقد إلى مهارات التواصل الجماهيري والتي تعتبر من أهم السمات المطلوب توافرها في الموظف الماهر اليوم.. ولرأينا أن ثقته في مهاراته تنقص أكثر وأكثر وتتضاءل معها قدرته على الإنجاز والتغيير في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية لا تسمح له بالالتحاق بالمؤسسات التعليمية التي يمكن لها تأهيله وتضييق المسافة بينه وبين أقرانه الأوفر حظاً.

حجم الفجوة؟

ورغم ندرة الإحصاءات التي عنيت بدراسة وتحقيق مدى هذه الفجوة المعرفية والمهارية بين أوساط الشباب إلا أنه يجوز لنا القول إنها ليست فجوة صغيرة أو هيِّنة فنسبة الشباب بفئاتهم العمرية المختلفة من (15-45) سنة من إجمالي عدد السعوديين هو 42% وهي نسبة متزايدة بصفة مستمرة نظراً لأن نسبة الفئة العمرية ما بين (أقل من 1 إلى 15) سنة تمثل حوالي 45% من إجمالي عدد السعوديين. فإن افترضنا مجرد افتراض نظري لا يستند على معلومات واقعية، أن نصف هذه الفئة من الشباب قد أتيح لها التعليم المتميز الذي يسمح لها بالحصول على المهارات والمعارف المطلوبة في سوق العمل المحلي والعالمي، تبقى لدينا أكثر من عشرين بالمئة من شباب يود العطاء والتميز، ولكنه لا يملك الأدوات الكافية لتحقيق ما يريد. وبالتعامل مع الشباب من الفئتين، ألاحظ إحساساً عميقاً بقلة الحيلة لدى كثير من شبابنا نتيجة لإحساسهم بقلة الملكة المهارية والمعرفية، وإن حاول الكثيرون منهم غض النظر عنها والسعي نحو تطوير ذواتهم بقدر ما يستطيعون.

دور الجهود الفردية

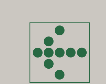
ورغم كل ما تبذله المؤسسات الحكومية من إسهامات لتقليص هذه الفجوة كإنشاء صندوق تنمية الموارد البشرية لتدريب السعوديين والذي يوفر الإعانات والمساعدات لتأهيل وتدريب الأيدي العاملة السعودية ويزوِّد مؤسسات القطاع الخاص العاملة في مجال تدريب وتأهيل الأيدي العاملة السعودية بالقروض اللازمة لتوسيع نشاطاتها واستخدام التقنيات الحديثة، ورغم كل المبادرات الخيرة التي يبذلها القطاع الخاص في مجال تمكين الشباب السعودي وتأهيله، إلا أن الفجوة لا تزال قائمة وتحتاج إلى أيادٍ أكثر لردمها. وهنا يأتي دور الجهود الفردية التي لم تكن لتقدم الكثير إن كانت لوحدها. ولكن، بإضافتها إلى الجهد الجماعي لأبناء الوطن، تستطيع أن تكون قوة تغيير لها وزنها في هذا الإطار. وأعني بالجهود الفردية قدرة الفرد شاباً كان أم ناضجاً على تقديم ما يملك من معارف إلى محتاج لها، ولو كان هذا المحتاج فرداً واحداً فقط: ابن جيران، زميل أقل رتبة في العمل، طالب جامعي على مشارف التخرج.. أياً كان ولكنه في حاجة حقيقية لتعلم المهارة سواء أكان واعياً لحاجته أم لا. ساعة في اليوم أو أقل ليست كثيرة في ميزان الأربع وعشرين ساعة التي يتكون منها اليوم، أو حتى الأسبوع، ولكنها قد تفعل الكثير لمستقبل عملي لشاب في مقتبل حياته.

إن فيلم «Pay it Forward» الذي أنتج في عام 2000م يدور حول فكرة انتقال الخير من يد إلى أخرى، فتريفور الطفل الصغير يقدِّم فكرة تمرير الخير إلى الآخرين وأساس فكرته أن يقدِّم شخص ما، أي شخص، خدمة جليلة إلى ثلاثة أشخاص في حياته، وبدلاً من أن يرد هؤلاء الثلاثة الجميل إلى الشخص الذي أسدى إليهم الخدمة، يدفعونها إلى الأمام، ويلتزمون بإسداء خدمة واحدة لثلاثة أشخاص آخرين يلتزمون بتقديم الخدمة إلى آخرين وهكذا. وفي خلال أسبوعين يقول تريفور سنجد أن الخير قد انتقل إلى 4782969 شخصاً. يقدِّم الفيلم الفكرة مغرقة برومانسية ومثالية مرهفة، ولكن الفكرة قد تتحقق على أرض الواقع إن طبقناها على المهارات والمعارف التي يحتاجها شبابنا وإن لم يكن في وقت قصير كأسبوعين فقط. وفي أفق ثقافتنا العربية والإسلامية نرى أن الفكرة قد تكون بالفعل زكاة العلم التي تقضي بتعليمه لمن يحتاجه ونقله إلى الآخرين. وفي تعليم العلم علم وخبرة ورضا ربما لا يعرفها من لم يمر بها بعد. 

إسهام سوق الأسهم
في اقتصادات العالم والأفراد

هل البورصة ضرورية

وسط انغماس الكثيرين في خوض الاستثمار في سوق الأسهم، وامتناع البعض عن ذلك لأسباب مختلفة، تغيب الصورة الشاملة للبورصة وماهيتها عن أذهان أناس عديدين. المحلل المالي راغب العثماني* يتناول هنا هذه الصورة العامة للبورصة، مركزاً على دورها بالغ الأهمية للاقتصادات الوطنية وأثرها في ازدهار قطاع الأعمال، وصولاً إلى عوائدها على الأفراد التي تبدو أكبر من عوائد غيرها من مجالات الاستثمار الآمن، إلا أنها تبقى محفوفة ببعض المخاطر.



ظهرت الحاجة إلى البورصة مع التطور الصناعي والتجاري وظهور السندات والشركات المقسمة إلى حصص، فبزغت أوائل أشكال البورصة في أواسط القرن السادس عشر الميلادي. وكانت البداية من أوروبا ومن مدينة أنتويرب في بلجيكا بالتحديد عام 1531م، حيث لحقت بها هولندا والعديد من الدول الأوروبية التي تحوي الآن أعرق البورصات العالمية كبورصة لندن.

وامتدت حمَّى البورصات عبر الأطلسي إلى العالم الجديد حيث أنشئت بورصة نيويورك عام 1792م وأخذت اسمها الحالي عام 1817م، وأصبحت بعد ذلك أكبر البورصات في العالم.

وقبل نشوء البورصات كان من يود بيع وشراء سند أو حصة في استثمار ما، يعلن عن رغبته في ذلك بوسائل الإعلان البسيطة أو يحاول أن ينشر الخبر عبر المعارف والأصدقاء حتى يعثر على زبون، وقد تغيَّر الأمر تماماً بعد بدء عمل البورصات، حيث أصبحت هي المكان الذي يستقبل طلبات البيع والشراء فتحدد هناك الأسعار، وتعلن للجميع.



علي السمين

* محلل وباحث اقتصادي من سورية

فوائد الأسواق المالية بالنسبة للحياة الاقتصادية

1. سهولة وسرعة البيع والشراء

كما ذكرنا في لمحتنا عن تاريخ البورصة، فإن المستثمرين كانوا يواجهون الكثير من الصعوبات في بيع حصة لهم في شركة أو شراء واحدة، وهو ما كان يخفِّض الإقبال على الاستثمار. إلا أن وجود بورصات الأسهم سهَّل العملية، كما أن وظيفة البورصة القائمة على إعلان عروض البيع وطلبات الشراء، والسعر الأخير المنفذ للعامة جميعاً، توضِّح الأسعار للجميع، فلا يكون هناك من يستغل الآخر أو يغبنه، فالأسعار واحدة في اللحظة الواحدة.

2. تمويل الأفكار الخلاَّقة

تشجِّع البورصة أصحاب العقول ورجال الأعمال على المضي بأعمالهم وإنشاء شركات طرق تمويلها مؤمنة. فإن شخصاً موهوباً مثل بيل غيتس الذي أسس مع بول آلان شركة مايكروسوفت عام 1975م، استطاع أن يصبح أغنى رجل في العالم بعد أن طرحت أسهم شركته في الأسواق، هذه الأسواق التي أحبت أفكار مايكروسوفت، كما وجدت أن الاستثمار فيها سيكون منتجاً في المستقبل، أدت إلى إرتفاع أسعار الأسهم بشكل كبير. ومن وجهة نظر أخلاقية، فإن العالِم استطاع بعلمه أن يجتذب الأموال الطائلة ويطبق نظرياته على أرض الواقع. وهذا النظام الاقتصادي الذي يعرِّف الناس بالشركة ويسهِّل لهم تمويلها إما عن طريق القروض أو بطرحها أسهماً جديدة، سيسمح للجيد بالاستمرار ويدفع السيء إلى الزوال. وهنا يمكننا الكلام أيضاً عن مايكل ديل الذي أنشأ شركة «DELL» لتصنيع أجهزة الكمبيوتر بمجهود شخصي، حيث بدأ برأسمال يساوي 1000$، إلا أنه وبعد رواج أعماله، طرحت أسهم الشركة للاكتتاب العام، وأصبح الآن رأس مال الشركة السوقي يعادل حوالي 57 مليار دولار. والبعض يقول إن الاقتصاد الأمريكي القوي اليوم والذي يعتبر الأضخم في العالم، هو نتيجة جهد رجال الأعمال المغامرين أمثال غيتس وديل، بالإضافة إلى دعم النظام الاقتصادي الذي أمَّن لهما التمويل لينشئوا شركات تعد الأكبر في التاريخ.

هذا لايعني أن أسهم مايكروسوفت أو ديل لا تعاني في بعض الأحيان من انخفاضات وتذبذبات قوية، وقد نعاني أحياناً من خسائر عند شرائنا تلك الأسهم كما يمكننا أن نجني الأرباح. فمن نظرة سريعة إلى تاريخ تلك الشركات، نلاحظ أنه عندما طرحت أسهمها للاكتتاب، اشتراها من كان له بعد نظر ورؤية لأعمال الشركات، حيث إنها وبعد فترة شهدت ارتفاعاً في أسعارها بشكل كبير. هذا الارتفاع جعل تلك الأسعار غالية الثمن نسبة لأرباح الشركة ومبيعاتها وأصولها، وبدأ الناس يستكشفون استثمارات أخرى أفضل، أو أنهم بدأوا بجني أرباحهم، كما أن غلاء الأسهم جعل الناس يحتاجون إلى سيولة كبيرة لشرائها وعندما لم تعد السيولة متوافرة، بدأت أسعار تلك الأسهم بالهبوط، هذا الهبوط لا يستمر على وتيرة واحدة ويبقى العرض والطلب المرافقين لتوقعات الأسواق ونتائج الشركة، المحركات الرئيسة للأسعار.



سعر سهم مايكروسوفت منذ بدء تداوله عام 1986 حتى أواخر شهر تموز عام 2006م

3. البورصة تتنبأ بالاقتصاد

تعتبر أسعار الأسهم من المؤشرات الاقتصادية القيادية. أي أنها بشكل عام تتحرك قبيل تحرك الاقتصاد، فعندما تمر دولة ما بحالة انحسار اقتصادي وقبيل انتهاء ذلك الانحسار بعدة أشهر، نلاحظ عادة ارتفاعاً في أسعار الأسهم، حيث تستطيع السوق (بالمحصلة وليس كفرد واحد) التنبؤ بنهاية الانحسار الاقتصادي وتوقعها قبل نهايته الحقيقية، ويمكننا أن نلاحظ أن أسعار الأسهم تدخل ضمن المؤشرات القيادية العشرة التي تصدر كل شهر في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال.

ظواهرها السلبية

1. المضاربة والاستثمار

يجب التفريق بين الاستثمار الذي يعني امتلاك حصة في شركة لفترة زمنية طويلة نسبياً، بانتظار نموها أو توزيعها للأرباح وزيادة أسعار أسهمها، وبين عمليات المضاربة قصيرة المدى والتي هي عبارة عن الشراء والبيع بسرعة ومن دون تخطيط كبير، وهو ما يتسبب بإرهاق كاهل المضارب نفسياً ومادياً لكثرة ما يدفع من عمولات. فقد أثبتت النظريات والتجارب أن الاستثمار في البورصات يتفوق على باقي أنواع الاستثمار بالعائد، بينما أثبتت المضاربة العكس. فمعظم المضاربين في الفترات الزمنية القصيرة، هم من الخاسرين، مع ذلك قد تكون عمليات المتاجرة بعيدة المدى نسبياً مربحة أحياناً وللقليل من الناس، شرط ألا تكون كثيفة، كما أنها تحتاج إلى الكثير من التخطيط وحساب المخاطرة واحتمالات الربح والعمولات المدفوعة.



علي السمين

تبدل الأسعار في البورصة يحدد، لحظة بلحظة، مسار الاقتصاد

2. تضارب مصالح الشركات ومصالح الجمهور

ظهرت في الآونة الأخيرة بعض المصالح قوية التأثير لشركات الوساطة المالية والبنوك، وقد لوحظ ذلك بقوة في المملكة العربية السعودية على سبيل المثال. فمن خلال مناقشات خضناها مع الكثير من المستثمرين السعوديين قبيل هبوط أسعار الأسهم الأخير، لاحظنا الحماسة الشديدة لديهم لدعم فكرة استمرار صعود الأسعار، وعدم تصديق أي شخص يتحدث عن احتمالات الهبوط رغم أن الأسعار كانت مرتفعة نسبة للكثير من المؤشرات المعروفة، كنسب السعر على الربح وغيرها. وكان من أهم أسباب تلك القناعات الأفكار التي يحاول ترويجها بعض مسوقي الحقائب الاستثمارية وبعض أقسام الوساطة في البنوك، الذين يكسبون عيشهم من عمليات المتاجرة والشراء في الأسهم والحقائب ويلعبون أحياناً دور المحللين الماليين. وقد غذى هذا ضعف الثقافة الاستثمارية لدى الكثيرين، ونفوذ تلك البنوك لدى بعض المحللين الذين يظهرون على وسائل الإعلام. وليست الفكرة أن نمنع أصحاب المصالح من الترويج لبضاعتهم، إنما أن نزيد من الثقافة الاستثمارية للمواطنين. كما أنه من الممكن ضبط عمليات التحليل المالي للأسهم وخصوصاً على وسائل الإعلام كما حدث في دول غربية وضعت عدة قوانين في هذا المجال.

من الممكن ضبط عمليات التحليل المالي للأسهم على وسائل الإعلام، كما حدث في بعض الدول الغربية التي وضعت عدة قوانين في هذا المجال

3. صعوبة التقييم

تشتد هذه الظاهرة في الأسواق النامية التي لا يستطيع فيها السوق تحديد القيم التقريبية لبعض الأسهم نظراً لغياب التوقعات الواضحة والتاريخ المعروف للشركات. كما أن ضعف الثقافة الاستثمارية وغياب استراتيجيات للاستثمار، وتحرك مجمل المستثمرين سوياً إما للشراء أو للبيع، قد يؤدي أحياناً إلى صعود كبير في الأسعار وانهيارات تلي ذلك. فقد شهدت البورصات الحديثة في الدول ذات الخبرة في مجال البورصة أيضاً انهيارات مشابهة لتلك التي يشهدها العالم النامي. فمؤشر بورصة «ناسداك» في الولايات المتحدة والذي تغلب عليه أسهم التكنولوجيا حديثة العهد، انخفض منذ عام 2000م، بعد أن تجاوز 5000 نقطة، إلى حدود 1100 نقطة خلال أقل من سنوات ثلاث. وكان للمضاربات وغياب التقييم الواضح لشركات التكنولوجيا وصعوبة التنبؤ بأدائها المستقبلي أثر واضح في انهيار الأسعار آنذاك، ومن الممكن أيضاً للبورصات قديمة العهد أن تشهد انهيارات مماثلة إنما بتواتر أقل وعلى فترات زمنية متباعدة.

4. الغوص في مستنقع المضاربة

إن السرعة والفاعلية التي بلغتها البورصات في عصرنا الحالي، دفعت بعض الناس إلى تبني نظريات خطأ عن التجارة والاستثمار. فقد يظن هؤلاء أنه من الممكن أن يستغلوا كل حركة ولو كانت بسيطة من تحركات الأسهم أو العملات أو أية سلعة استثمارية، وهذا مستحيل كما أثبتت معظم النظريات. فيجب علينا أن نتحاشى الانبهار بالتحركات السريعة، والانتباه إلى أنه في اللحظة التي نود فيها الشراء لأننا نتوقع أن الأسعار سترتفع، هناك شخص في الجهة الأخرى سنشتري منه ينظر إلى العملية نظرة مختلفة تماماً، وإلا لم يكن ليبيعنا. إذاً فالموضوع ليس بهذه السهولة ولا يخضع لعوامل ضابطة محددة.

ومن الأخطاء الشائعة لدى بعض المضاربين عدم احتساب العمولات التي يدفعونها أثناء قيامهم بعمليات البيع والشراء للوسطاء الماليين، وذلك جرَّاء التغيرات الكبيرة في الأسعار التي تحدث في البورصات وظناً منهم أن ارتفاعاً قوياً للسهم قد يغطي العمولات وبأضعاف مضاعفة. إلا أن هذا الكلام صحيح في حالة واحدة وهي أننا نربح دائماً، أما في الواقع فإن بعض العمليات سيكون رابحاً وبعضها خاسراً، وقد تكون العمولات المدفوعة هي الحكم المرجِّح بين الربح والخسارة.



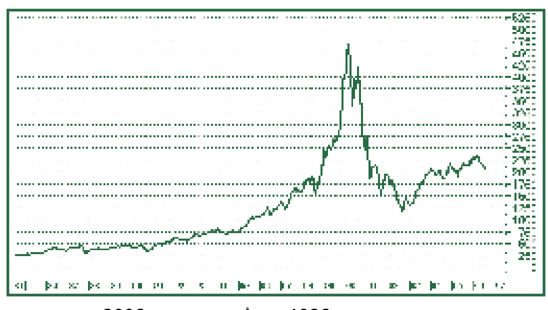
Magnum

المستثمرون.. يستفيدون من البورصة ويفيدونها

الانهيارات وآثارها السلبية

أسباب بعض الانهيارات

مرت جميع بورصات العالم من اليابان وشرق آسيا إلى أوروبا وأمريكا وبورصات الدول النامية بأشكال متعددة من الانهيارات، وكان اللوم في معظمها وبشكل رئيس على غلاء أسعار الأسهم مقابل أداء الشركات الذي كان لا يبرر ذلك الغلاء قبيل الانهيارات، إلا في البعض القليل الذي كان لعوامل أخرى خارجية دخل فيها. فقد كان أحد أهم أسباب الانهيار الذي حصل عام 1987م الارتفاع الشديد في أسعار الأسهم حول العالم وخصوصاً الأمريكية والذي بدأ عام 1986م، حيث تزامن مع انتقال الاقتصاد الأمريكي من اقتصاد متسارع النمو إلى اقتصاد معتدل النمو. إلا أن أسعار الأسهم كانت قد ارتفعت بشكل كبير بسبب توقعات المستثمرين باستمرار الأداء القوي. كما أن المضاربات والشراء من دون تفكير بالقيم الحقيقية أسهما أيضاً في الارتفاع، إلى أن جاء يوم 19 أكتوبر 1987م، والذي صار يعرف بالإثنين الأسود حين تفاجأت الأسواق بانخفاض شديد لأسعار الأسهم في الولايات المتحدة حيث سجل مؤشر الداو جونز تراجعاً بـ 22.6% واستتبع ذلك تراجع امتد إلى كافة البورصات العالمية مع نهاية أكتوبر من عام 1987م، حيث انخفضت البورصة الأسترالية 41.8% وبورصة هونغ كونغ 45.8%.



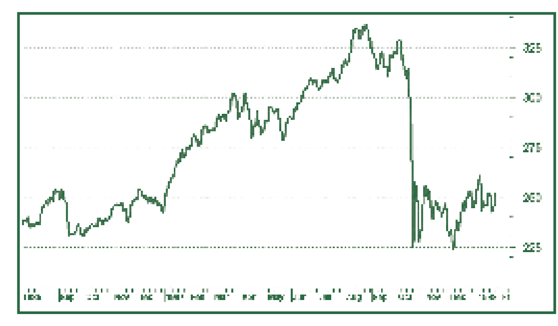
مؤشر ناسداك المجمع منذ عام 1986 حتى أواخر تموز عام 2006م ويظهر فيه بشكل جلي الانهيار الذي بدأ عام 2000 حتى 2003م

وكان للمضاربات والشراء الكثيف الذي حصل على الأسهم الأمريكية وخصوصاً أسهم التكنولوجيا حتى عام 2000م والانهيار الذي تلاه، أثر في سحب بعض السيولة من الاقتصاد الأمريكي. ورغم مرونة اقتصاد الولايات المتحدة، فقد كان للانهيارات أثر سلبي على بعض الأفراد الذين خسروا الكثير من ثرواتهم في فترة وجيزة، ويذكر أن تراجع الأسعار المذكور والذي دام قرابة سنوات ثلاث



Getty

منفذو العمليات في بورصة طوكيو



مؤشر الـ S&P500 الممثل لأهم 500 شركة أميركية قبيل وبعيد الانهيار الذي حصل عام 1987

ترافق بفضائح محاسبية للشـركات والمحللين، ما قد دفع أيضـاً المشرِّعيـن إلى تغييـر أسس مهمة فـي التعاطي مع الشؤون المحاسبية، وتعاطـي المحللين ومديري المحافظ مع الإعلام.

إلا أننـا يمكننـا اليوم، وبعـد حوالي 220 سنة مـن تأسيس بورصـة نيويورك، أن نقول إن اقتصـاداً كاقتصاد الولايات المتحدة قد اعتاد على المضاربـات والتذبذبات القوية في الأسعار، حتى أنه تكيف وأصبح أكثر مرونة أثناء الانهيارات التـي قد تتكرر. إلا أن القوة هـي في القدرة على امتصاص تلك الانهيارات، كما أن وعي المستثمر بالمخاطر المحيطة بالبورصـة وتنويع استثماراته تعد مـن العوامل المهمة التي قد تقي من التراجعات القوية.

علينا أن نحتسب نسب المخاطرة لأي استثمار وأخذها بعين الاعتبار كما نحتسب نسب الربح تماماً

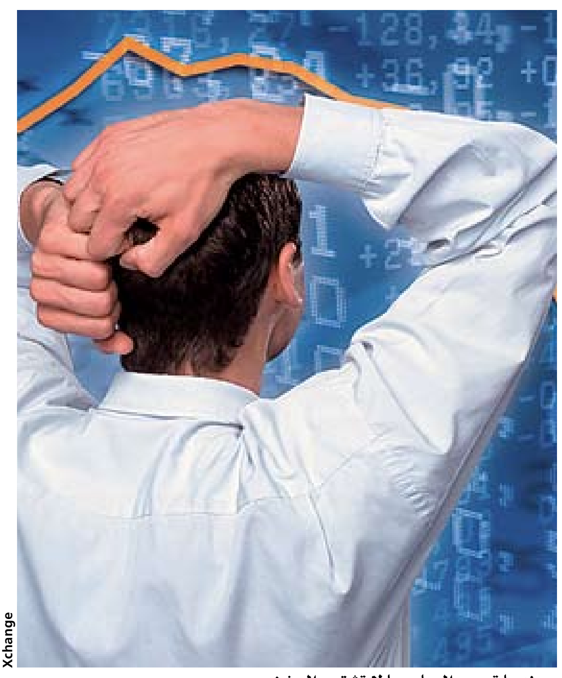
آليات الاستثمار وضبط نسب المخاطرة

لا يجـوز النظـر إلـى الاستثمار مـن وجهة نظـر الربـح فقط، ويجـب علينـا احتساب نسـب المخاطرة لأي استثمار وأخذها بعين الاعتبـار. فالشخصـ الذي قـرر عدم أخذ أيـة مخاطرة بأموالـه، يمكنه وضع تلك الأمـوال في بنوك ذات سمعـة جيدة في بلدان مضمونة ماليـاً، وأخذ الفائدة الناتجة من إيداعاته والتي عادة لا تغطي نسبة التضخم في العملة التي يدَّخر بها، أو بمعنى آخر القوة الشرائية لأمواله المودعـة في البنـوك تظل ثابتة أو تنقصـ قليلاً مع الزمن رغم أخذه الفائدة.

وأما إذا أراد زيادة أمواله والربح منها بمقدار أعلى من نسبة الفائدة والتي كمـا ذكرنا بالكاد تغطي نسبة التضخم، فهنا يجـب عليه أن يبدأ بأخذ المخاطرة، وذلك طلباً للربح، وأي توقع للمخاطرة يجب أن يزداد مع زيادة توقعات الربح.

بعض طرق احتساب المخاطرة

إن أكثـر الأساليب البسيطـة استعمالاً لحسـاب المخاطرة أو مـا يدعى الـ «Risk» أثناء شراء سلعـة معينة هي طريقة



Xchange

..عندما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

حساب الانحراف المعياري. وبما أننا لن ندخل في تفاصيل رياضيـة الآن فسنعرِّف ذلك الانحراف بأنه عبارة عن شدة التغيـر فـي سعر سهم مـا أو أية أداة استثماريـة عبر تاريخ تداولها. فكلمـا كان ذلك التغير أكبر كانت نسبة المخاطرة فـي الشراء أعلى. فشراء محفظـة أسهم معدل تغيرها 3% شهرياً ينطوي على نسبـة مخاطرة أقل من المتاجرة بسهم معدل نسبة تغيره 10% شهرياً. كما أن تكرار حدوث طفرات مفاجئـة تاريخيـاً فـي سعـر مادة مـا يزيد مـن المخاطرة المأخـوذة أثنـاء الاستثمـار في تلـك المـادة. وكلما زادت المخاطـرة فـي الاستثمار في سلعة ما يجـب على الشخص تقليل نسبة استثماراته في تلك السلعة.

ومن المعروف لدى الناس أن زيادة المخاطرة توازي زيادة احتمالات الربـح، ولكن من غير المعـروف أن هناك كثيراً من الأخطاء يقع فيها المستثمـرون وخصوصاً المضاربون منهـم، يزيـدون مـن خلالهـا كميـة المخاطـرة ويقللـون احتمـالات الربح بشكل كبيـر جداً. حيـث إن بعضهم يلغي تلك الاحتمالات الربحية تمامـاً، كالمضاربة اليومية بشكل كثيـف والتي تثقل كاهل المستثمـر بالعمولات وتلغي بالتالي أي احتمال ربح له.

وتحديـد المخاطرة يشمـل الكثير من النواحـي، ولابد من استشـارة مختصيـن، أو القـراءة والبحـث بشـكل واسـع للاضطـلاع علـى الموضوع، ومعظـم الدراسات فـي إدارة المحافظ المالية تقوم علـى ضبط مقدار المخاطرة فيها، أكثـر من محاولة التنبؤ بـأداء المحافظ مع الزمن. ويشمل ضبط المخاطرة توزيع الثـروة بين عدة أدوات استثمارية، ودراسة شـدة التغيرات التي شهدتهـا الأدوات الاستثمارية



علي السمين

.. من إحدى البورصات العربية

المـراد الاستثمـار فيها وأشيـاء كثيرة أخـرى. ومن قراءة مبـادئ المستثمر المعروف وارن بوفيه نلاحظ تركيزه على أسئلـة مفيدة في مجال تحديـد المخاطرة لشركة محددة. وفيما يلي بعض من الأسئلة التي يطرحها والخاصة بأعمال الشركة التي يرغب بشراء أسهم فيها:

– هل عمل الشركة بسيط ومفهوم؟
– هل قطاع العمل له سجل واضح ومستمر؟

إذا كان الجـواب عـن مثـل هـذه الأسئلة بنعم فهـذا يجعل تقدير التدفقات النقديـة المستقبلية أكثر موثوقية، ويجعل تقديرنا للمخاطرة أثناء الاستثمار فيها أسهل.

وفيمـا يلي أيضـاً بعض مبـادئ بيتر لينش، وهـو مدير في حقيبة ماجلان المعروفة، هذه المبادئ هي حول الاستثمار في شركة ما على المدى البعيد:

• يجـب أن تكـون منتجات الشركة غيـر آنية، بل يطلبها المستهلكون باستمرار.
• يجـب علـى الشركة أن يكون لها ميزات تنافسية طويلة المدى، وقادرة على البقاء.
• لأعمـال الشركـة ثبـات فـي السـوق، ولهـذا فحاجتها للتطويـر قليلـة، ولا خـوف أن تخسـر لصالـح منافسيهـا بسبب ضعف تقني.
• الاستقـرار السوقـي يعنـي احتمـال ضعيـف لدخـول منافسين لها.
• يمكن للشركة أن تستفيد من خفض التكاليف.
• الشركة أو المسؤلون فيها يعيدون شراء أسهمها.

موجز عن نظرية الخطوات العشوائية

هـذه النظرية قد تخيف البعض وتبعدهم عن أسواق المال. إنما يجـب ذكرها ليأخذ الجميع حذره. ونبـدأ هنا بالأخبار الجيـدة عـن أسـواق الأسهـم حيـث ظهر فـي الأبحـاث أن الاستثمـار في أسواق الأسهم على المدى البعيد هو من أنجع أنـواع الاستثمار وأربحها مقارنة مـع الاستثمار في السندات أو الادخـار في البنـوك. إنما المضاربـة والمتاجرة قصيرة ومتوسطـة المدى تحمـل مخاطر كبيرة، حيـث تقول نظرية الخطـوات العشوائية إنه لا يمكن التنبـؤ بحركة الأسواق وأن الأسعـار تتغير بشـكل عشوائـي، أي أن التحـركات قصيرة المـدى لا يمكـن التنبؤ بها حسـب هذه النظريـة، ولا تشمل التحـركات قصيـرة المدى التذبذبات اليوميـة فقط، بل قد تمتد هذه لمدة زمنية تبلغ عدة أشهر، أو أكثر.

وفـي الجـدول التالي مقارنـة لمعدل الدخـل السنوي الذي أمنه الاستثمار في مجمل الأسهم الأمريكية ممثلة بالمؤشر S&P500 مع العوائد السنوية التي أعطتها سندات الخزينة الأمريكيـة مـا بيـن عامـي 1926 و2001م، شـرط الشراء وعدم البيع ضمن المدة المذكورة:

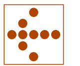
	الدخل السنوي قبل احتساب الضرائب والتضخم	الدخل السنوي عند احتساب التضخم	بعد احتساب التضخم والضرائب
الأسهم العادية	10.7%	7.9%	4.7%
سندات الخزينة طويلة المدى	5.3%	3.7%	0.6%
سندات الخزينة قصيرة المدى	3.8%	2.7%	-0.4%

المصدر العدد السابع من كتاب «Investment Analysis And Portfolio Management» للمؤلفين Frank K.Reilly & Keith C. Brown

بهذا تختلف عن غيرها..

أسواق السلع العالمية !

أدى ارتفاع أسعار النفط خلال الأشهر الأخيرة إلى بروز مفردة «السلع العالمية» في الأخبار الاقتصادية وتحليلات وسائل الإعلام. فما هي هذه السلع؟ وبماذا تختلف عن غيرها؟ وما الذي يميز أسواقها عن أسواق الأسهم والأوراق المالية؟ سحر الرويلي* تجيب عن هذه الأسئلة في الموضوع التالي.



تعرف المواد الأولية الزراعية أو المشتقة في عالم الاقتصاد والمال بالسلع. ومن الأمثلة على السلع الزراعية القطن والشاي والبن. أما السلع المشتقة فتشتمل على الذهب والفضة والنفط والغاز والفحم والسكر على سبيل المثال لا الحصر.

وهذه السلع تباع وتشترى، ولها أسواق عالمية ويجري نقلها من الدول المصدرة إلى الدول المستوردة. وكأي سوق عالمية، تتكون أسواق السلع من الباعة والمشترين والمضاربين والمستثمرين، كما تحظى بمتابعة الاقتصاديين والحكومات نظراً لتأثيراتها على النشاط الاقتصادي للمصدرين والمستوردين.

*أخصائية تحليل أسواق

وشهدت أسواق السلع العالمية في الآونة الأخيرة، وبالتحديد خلال السنوات الأربع الأخيرة نشاطاً كبيراً جداً، مقارنة بغيرها من الأسواق العالمية. ويعود ذلك إلى النفط الذي يعد أكبر سلعة تجري المتاجرة بها في العالم من حيث الكمية والقيمة. وكما هو متوقع، فلقد أسهم ارتفاع أسعار النفط إلى عائدات مالية للاستثمارات في السلع تفوق العائدات من الاستثمارات المالية العالمية الأخرى كالأسهم والسندات والأسواق العقارية.

أسواق السلع

عودة إلى أسواق السلع، فهي تعد أقدم الأسواق في تاريخ البشرية حيث إنها تتاجر بالمواد الأولية الضرورية للحياة.



ارشيف المحترف السعودي

السلع الغذائية الأساسية كالرز والسكر تعتبر من السلع العالمية

وقد واكبت هذه الأسواق النمو في المجتمعات البشرية والتطور في المعاملات المالية والتجارية كاختراع واستخدام النقود ونشوء الشركات والتجارة الدولية. فلا عجب إذن أن تعود جذور أقدم البورصات التي تتاجر بالسلع إلى القرن الميلادي التاسع عشر حيث بدأت سوق شيكاغو لتداول السلع نشاطها سنة 1848م. أما اليوم فهناك أكثر من 48 سوقاً رئيسة لتبادل السلع متمركزة في أربع دول هي الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والصين والمملكة المتحدة.

ولا تقتصر أسواق السلع على النفط فقط، بل تتاجر أيضاً بقرابة 100 صنف من السلع تصنف ضمن خمس فئات رئيسة على النحو التالي:

الفئة	أمثلة
السلع الزراعية	البن، الذرة، القطن، الخشب، حبوب الصويا، السكر، القمح.
المواشي	الأبقار.
المعادن الصناعية	الألمنيوم، النحاس، الرصاص، الحديد.
المعادن الثمينة	الذهب، الفضة، البلاتينيوم، البلاديوم.
منتجات الطاقة	النفط، الغاز، الديزل، الفحم.

ولعل أهم فائدة يجنيها بائع السلعة ومشتريها في هذه الأسواق هي معرفة السعر العادل والمناسب للسلع. وبما أن هذه السلع تتاجر أيضا بعقود آجلة (في هذه العقود يتم الاتفاق على البيع والشراء في الوقت الحالي ولكن تسليمها في فترة مستقبلية متفق عليها قد تكون بعد أشهر أو سنوات). والغاية من التعامل بطريقة العقود الآجلة هو تجنب مخاطر تقلبات الأسعار. فعلى سبيل المثال، تقوم الكثير من الشركات المصنعة للمواد الغذائية بتثبيت سعر السلع الأساسية المستخدمة في منتجاتها عن طريق شراء عقود آجلة. كما تستخدم أسواق السلع أيضاً من قبل المستثمرين للاستفادة من عوائد تغير الأسعار، فنرى المضارب يجني أرباحاً من شراء عقود للسلع تحسباً لطفرة صناعية في بلد ما والتي عادة ما تتسبب في زيادة كبيرة في الطلب على السلع، كما يحدث في دولة الصين في السنوات الأخيرة.

وتعد البنوك من أهم المتاجرين في أسواق السلع، حيث إن عمليات تجنب المخاطر والمضاربة عادة ما تنفذها بنوك دولية بالإضافة إلى عمليات المضاربة الخاصة بأموال البنك. وتقدر عوائد بنكي «غولدمان ساكس» «ومورغان ستانلي»، وهما أنشط البنوك في تجارة السلع، من جرَّاء هذا النشاط المحدد خلال عام 2004م عام بحوالي 20% من إجمالي دخلهما. وقد حفز هذا الأمر بنوكاً أخرى على



الفحم.. من السلع العالمية، ولكنه يبقى أصغر حجماً من البترول

توسيع نشاطاتها وخبراتها في أسواق السلع في السنوات الأخيرة ومنها ميريل لينش، و ج. ب. مورغان، وباركليس، ويو. بي. اس. و دويتش بانك، وا.ب.ن أمرو.

حجم أسواق السلع

عادة ما تكون الاستثمارات الدولية التقليدية في أسواق الأسهم وسندات الشركات والحكومات. وتحديداً، فإن رأس مال الأسواق العالمية للأسهم يبلغ قرابة 38 ألف مليار دولار، ولا يشمل هذا الرقم أسواق الأسهم المحصورة للمستثمرين المحليين (كسوق الأسهم السعودية). أما السندات، فيبلغ رأس مالها حوالي 22 ألف مليار دولار. وبالمقارنة، فإن رأس مال الاستثمارات في أسواق السلع العالمية يبلغ حوالي 90 مليار دولار، أي حوالي 0.2 بالمائة من حجم أسواق الأسهم! وصغر حجم سوق السلع يعني أنها عرضة للتضخم إزاء تحرك نسبة بسيطة من رؤوس الأموال من أسواقها التقليدية (الأسهم والسندات) إلى أسواق السلع، وإن كان تحركها لا يذكر في عالم الاستثمارات الدولية.

وتشير البيانات إلى حدوث زيادة في رأس مال أسواق السلع بنسبة 50% في عام 2005م فقط. ويتفق الكثير من المحللين على أن هذه الزيادة كانت سبباً في تضخم أسواق السلع، وأنها قد أسهمت في زيادة سعر جميع السلع وعلى رأسها النفط. ونظراً لتأثر السلع بتحركات المستثمرين، فإن تحليل أسعارها يجب أن يشمل حسابات العرض والاستهلاك التقليدية إضافة إلى متابعة حركة رؤوس المال الاستثمارية.

آلية الاستثمار في السلع

ذكرنا أن الراغب في الاستثمار في السلع عادة ما يقوم بفعل ذلك عن طريق بنك. وتحديداً، يقوم المستثمر بشراء وحدات من مؤشر مكون من سلع مختلفة وأشهرها مؤشر «جولدمان ساكس» للسلع. وبالطبع، يستطيع المستثمر أن يشتري عقود سلعة ما من إحدى البورصات العالمية مباشرة، شريطة أن يستوفي الشروط المفروضة من قبل إدارة البورصة والأنظمة الاستثمارية. ونظراً لذلك، ولكون استثمارات أسواق السلع أكثر تعقيداً من الاستثمارات التقليدية، فإن النصيب الأكبر من الاستثمارات المالية في أسواق السلع يتم عن طريق المؤشرات التي تعرضها البنوك. ويعتبر بعض المحللين أن تسهيل الاستثمار في أسواق السلع عن طريق المؤشرات، إضافة إلى عوائدها العالية بالطبع، قد أسهم في زيادة تدفق رؤوس الأموال إلى السلع كما تم شرحه آنفاً.

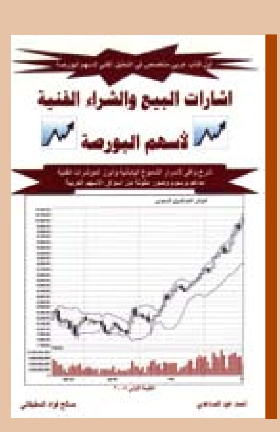
ويعرض الجدول التالي العوائد التي حققها «مؤشر جولدمان ساكس» للسلع مقارنة بالاستثمارات الأخرى في السنوات الأخيرة:

جدول العوائد المالية

السنة	مؤشر جولدمان ساكس	الأسهم الأمريكية	السندات الأمريكية
1998	-35.7	28.6	3.9
1999	40.9	21	2.2
2000	49.7	-8.1	12.7
2001	-31.9	-12.8	7.2
2002	32.1	-22.1	16.4
2003	20.7	28.7	7.8
2004	17.3	10.9	8
2005	25.6	4.9	2.3

وختاماً، فإن أحداث السنوات الأخيرة في أسواق السلع من حيث نمو رأس مالها وزيادة المشاركين فيها يفتح باباً جديداً ومهماً في تاريخ أسعارها، حيث إنها تتفاعل اليوم، وبشكل كبير، مع أداء الاستثمارات الأخرى وتحركات رؤوس الأموال، ولكن على المدى الطويل، ينفرد عامل العرض والطلب في تحديد سعر جميع السلع بما فيها النفط.

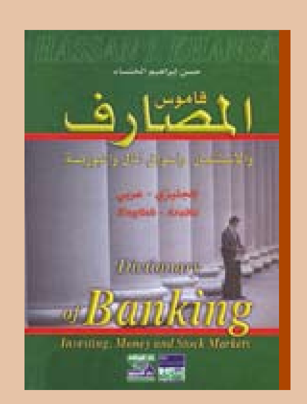
اقرأ للبورصة



إشارات البيع والشراء الفنية لأسهم البورصة

واحد من الكتب المهمة التي تبحث في أساسيات الأسهم والبورصة، من تأليف أحمد عيد الصاعدي وصالح فؤاد المطبقاني في طبعته الأولى.

يتوجه هذا الكتاب إلى المبتدئين والمحترفين أيضاً. فهو مكتوب بأسلوب سهل جداً وواضح، ومدعوم برسوم وصور توضيحية كثيرة من السوق، ويتناول هذا الكتاب قراءة المؤشرات الفنية مثل التدفق المالي، والقوة النسبية، والفوليوم، والستوكاستيك، والماكد، والبولينجر، والمتوسطات المتحركة. كما يستعرض حساب مستويات المقاومة والدعم والتعامل معها. وتفسير الأعمدة، والفجوات، وخطوط الترند. وفي آخر الكتاب نماذج من برامج التحليل الفني التي ترسم كل أدوات التحليل الفني من مؤشرات وأعمدة وشموع.



عالم المال.. بين لغتين

«قاموس المصارف والاستثمار وأسواق المال والبورصة» قاموس عصري صدر عن دار الوراق للنشر والتوزيع عام 2003م. ويتضمن أحدث المصطلحات المتداولة حالياً في الأوساط المصرفية والاستثمارية وأسواق المال والأسهم، ويسد فراغاً واضحاً ومزمناً في هذا المجال.

فهو يحتوي على المرادفات العربية المقابلة لآخر المصطلحات الإنجليزية المستخدمة في عالم المصارف والاستثمار وأسواق المال والأوراق المالية والأدوات الاشتقاقية، التقليدية منها والإلكترونية، مقرونة بتعاريف دقيقة لها عندما تعجز المرادفات العربية أحياناً عن إيفاء المصطلح الإنجليزي حقه من التوضيح.

كما ترد في هذا القاموس أسماء العملات المتداولة في شتى أنحاء العالم، ونبذة عن أهم المؤسسات المالية الدولية والمصارف المركزية، وقد أُرفق به مسرد للمصطلحات المصرفية والاستثمارية الإسلامية. واستغرق إعداده سنوات ثلاث ونيف.



..للمضاربة والاستثمار

يعتبر خبراء الاقتصاد في العالم البورصات بمثابة نظام إنذار مبكر لحدوث تغيير في الأوضاع الاقتصادية وذلك بانخفاض أو ارتفاع مؤشراتها والتي تعكس إقبال أو إحجام المستثمرين على الاستثمار والتداول تأثراً بالمناخ السياسي والاقتصادي المحيط. هذا ما يتناوله كتاب «البورصة.. كيفية المضاربة والاستثمار» ترجمة وإعداد بشر الموصللي عن دار الشعاع للنشر والعلوم في طبعته الأولى، عام 2003م.

يعرفنا هذا الكتاب على طريقة عمل البورصة والأسواق المالية من أسهم وسندات وعقود، إضافة إلى المعلومات اللازمة والضرورية للبدء في عملية الاستثمار في البورصة.

ويتكون الكتاب من فصول عدة أهمها سوق الأوراق المالية والأسهم، وكيفية فتح حساب للمضاربة والسندات، والبيانات المالية الختامية، والتحليلات الأساسية والتقنية، وصناديق الاستثمار المشتركة. ومن أبرز عناوينه الفرعية: ما هي سوق الأوراق المالية؟، ما هي الأسهم؟، كيف تقوم باختيار مضارب؟، كيف تكسب عند انخفاض أسعار الأسهم؟، بالإضافة إلى التحليلات الأساسية في عالم المال والأسواق المالية.

بعدما شهد القرن العشرون اتساعاً في الهوة الفاصلة ما بين العلوم الإنسانية كالفلسفة والآداب من جهة والعلوم الدقيقة كالفيزياء والكيمياء والهندسة من جهة أخرى، ظهرت محاولات للتوفيق ما بين هاتين الطائفتين من المعارف الإنسانية، وقد وصل بعض هذه المحاولات إلى التبشير بـ «ثقافة ثالثة» تجمع هاتين الطائفتين لتحل محلهما.

المهندس أشرف إحسان فقيه* يحدثنا عن نشوء هذه الثقافة الثالثة ويعرض بعض عناوينها الرئيسة وما لها وما عليها.

الثقافة الثالثة..

البحث عن توفيق العلوم الإنسانية والتطبيقية



ما زلت أذكر كلمات بروفيسور الهندسة الكهربائية ذات محاضرة. يومها كنا نتابعه وهو يلقننا أساسيات التخصص حين قال: «العلم أرقام وتجارب. خذوا التاريخ مثلاً.. هذا ليس بعلم!».

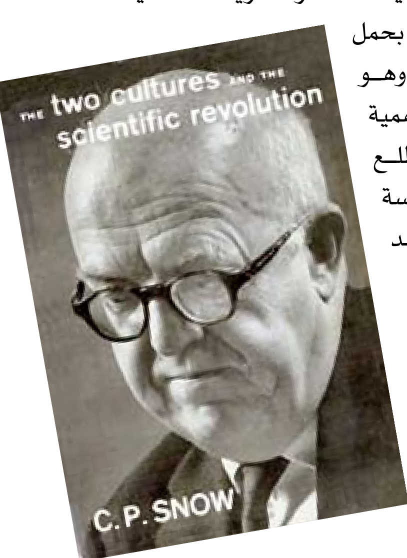
لم يعترض أحدنا يومها على كلمات البروفيسور المرموق رغم فداحتها. بل هي ربما أرضَت شيئاً من غرورنا الذاتي كوننا طلاب علم تطبيقي تقني.. علم «حقيقي» تقوم به الأمم وتنهض على النقيض من علوم «الثرثرة» التي لا تسمن ولا تغني مِن تخلّف. هكذا كان رأينا حينها.. وربما لا يزال بعضنا يعتنقه.

هذا الإسفين بن عالميّ «العلمي» و«الأدبي» يتجاوز مقررات وزارات التربية والتعليم العربية، وأحلام التلاميذ وأولياء أمورهم، ليكرِّس نفسه ككيان قائم في الواقع الإنساني بأسره. لنتخيل لقاءً بين «نيوتن» و«شكسبير» مثلاً.. أو بين «الخوارزمي» و«ابن رشد»، ولنتصور ردّ كل من هذه الهامات على السؤال البسيط: «أيكم هو المُفكِّر؟ أيكم هو العالِم؟».

سنو: ثقافتان.. وثالثة بينهما

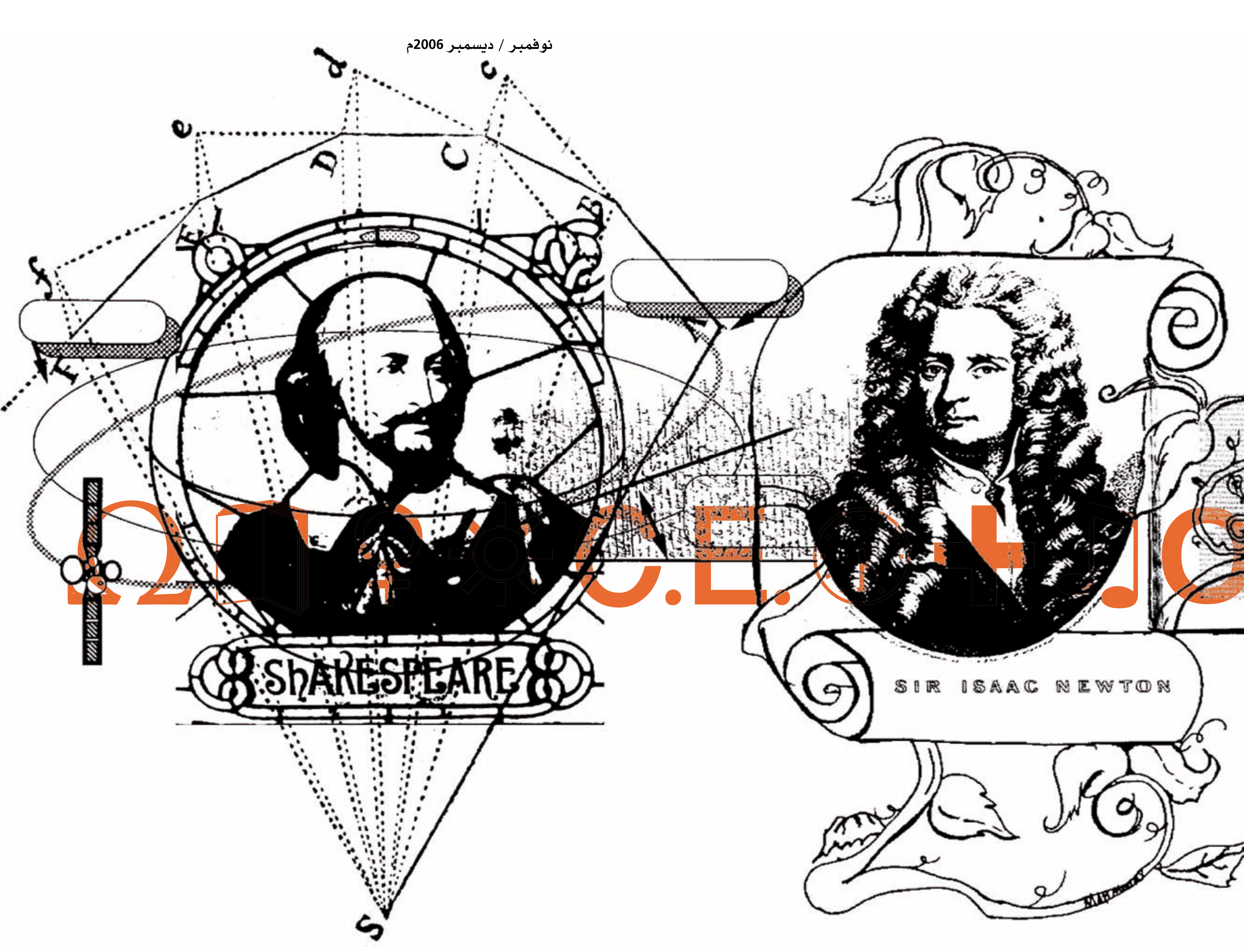
تشتُّت المعرفة البشرية بين فرعين أو (ثقافتين) وربما أكثر، قدَّم له اللورد تشارلز بيرسي سنو، في محاضرة شهيرة ألقاها بجامعة كامبردج صيف العام 1959م بعنوان (الثقافتان والثورة العلمية). والثقافتان اللتان قصدهما سنو ومثَّلهما تيارا المعارف الإنسانية (Humanities) من تاريخ وأدب ولاهوت وفلسفة، والمعارف المادية التجريبية كالفيزياء والرياضيات والفلك أو ما يُعبِّر عنه عموماً بمصطلح (Sciences) الإنجليزي الذي تقابله كلمة (علوم) في العربية.

في محاضرته كما في الكتاب ذي العنوان نفسه، تحدّث سنو عن فجوة بين العالمين؛ حيث تستأثر الشريحة المنتمية للثقافة الأولى (الإنسانية) بحمل مشعل الفكر والحضارة وهو ما لم يعد متسقاً مع الأهمية القصوى التي بات يضطلع بها علماء الطبيعة والهندسة وبخاصة في زمن ما بعد الثورة الصناعية.



تكلم سنو عن «سوء في التواصل» بين فريقيّ الثقافتين تقع ضحيته الإنسانية بأسرها. وألقى باللائمة في هذا الفصل

* محاضر بكليّة علوم وهندسة الحاسب الآلي جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

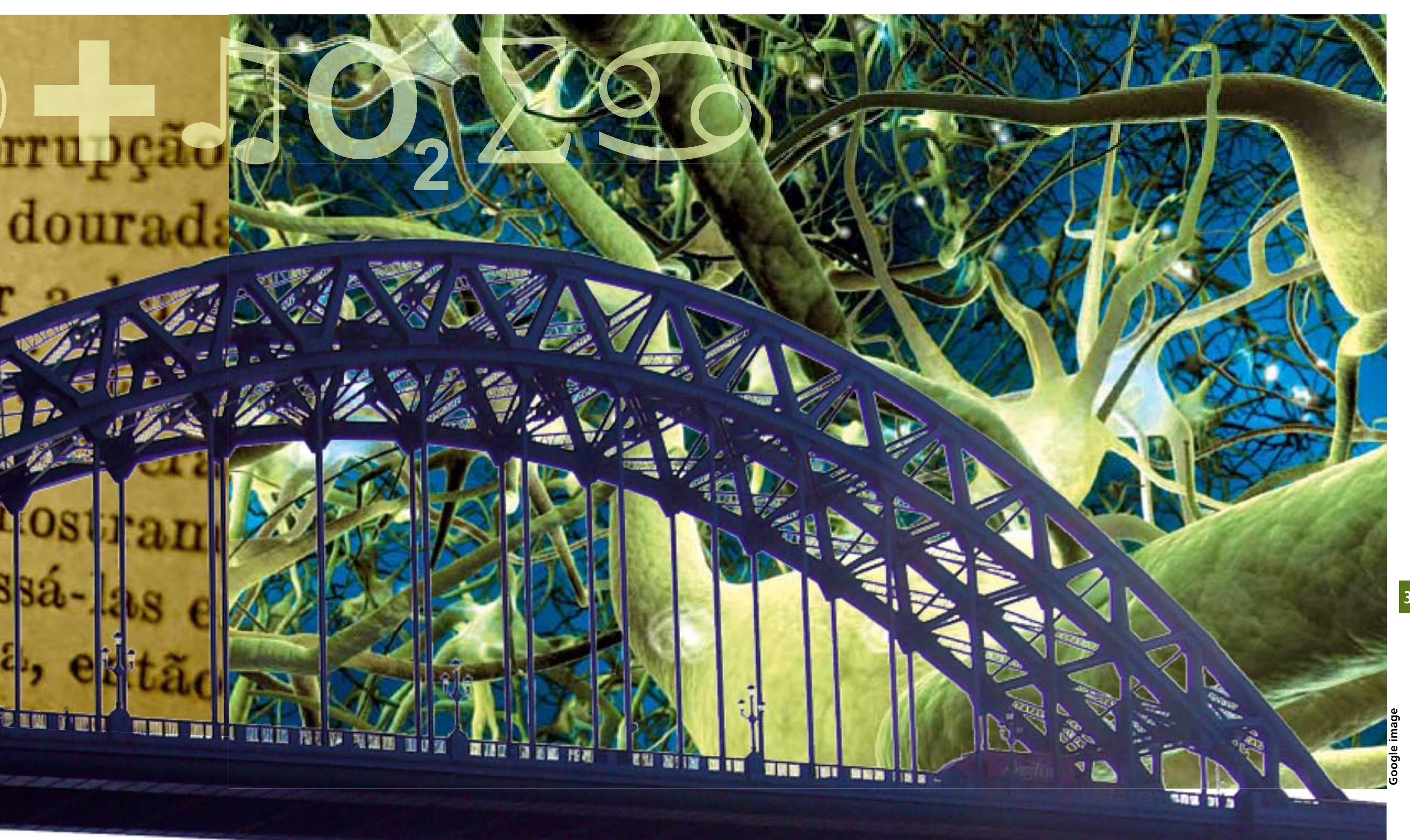


المعرفـي حينها علـى مناهج المدارس والجامعات متتبعاً أصولـه التاريخية حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي حين تم تحجيم مفـردة «عِلم» لتعبِّر عن دراسات المعارف التطبيقية و(التكنولوجية) الناهضة آنذاك، ما أدى لتكوين حاجز بين المشتغلين بالهم (العلمي) والنُخَب المثقفة من جهة، وبينهم وبين الجماهير من جهة أخرى.

ثمـة أزمة ليست مقصـورة بالتأكيـد على اللغـة أو التراث الإنجليزييـن. فالمسألـة مُثارة كذلك علـى النطاق العربي حيـث يوجد رأي قائل بحصرية مفهوم «العِلم» على المجال الشرعـي أو الدينـي. لكن لمـا كان الطرح للثقافـة الثالثة غربي الطابع؛ فسيأتي تناوله ها هنا من هذا المنطلق.

قرر سنو إذاً وقبل نصف قرن بأن ثمة خلل يعتري المنظومة الفكريـة -فـي أوروبـا على الأقـل- وبـأن مسيـرة التقدم البشـري ستتأثـر بسببـه. مبرره في هـذا الاستنتـاج كان بسيطـاً: هناك جهل فاحش بين العلماء والمفكرين من كليّ الثقافتيـن بما عنـد الآخر من أسس معرفيـة. ولاحظ سنو أن كثيـراً من العلماء لم يطّلعوا علـى أي من كتابات ديكنز كمثـال على أبرز معالـم الأدب الإنجليزي. وهو في المقابل وصـف خيباتـه المتكررة مـن أشخاص يتـم تقديمهم على أنهم على مستـوى عالٍ من الثقافة وفـق المعيار التقليدي. هؤلاء المفكرون المتحمسون أيضاً للتأكيد على مدى الأمية الثقافية لدى أندادهم من العلمـاء نادراً ما كانوا يتفاعلون إيجابـاً مـع الاستفسارات التـي تعمد سنـو طرحها عليهم حول قانون الديناميكا الحرارية الثاني، أو قانون الإنتروبية (الاعتـلاج) مثلاً. وهي أسئلة علمية مكافئة للسؤال عن أي من أعمال شيكسبير في عالم الأدب.

يقـول سنو: «أعتقد بأني حتى لو كنـت طرحت أسئلة أبسط عـن معنـى (الكتلـة) أو (التسارع)، وهـي مقابلات علمية للسـؤال «هل تستطيـع القراءة؟» فإن مـا لا يزيد على عُشر النخبة المثقفة كانت ستفهم اللغة التي أحادثها بها. وهكذا ففيمـا تتطور بنية الفيزياء الحديثـة فإن الغالبية من أذكى



Google image

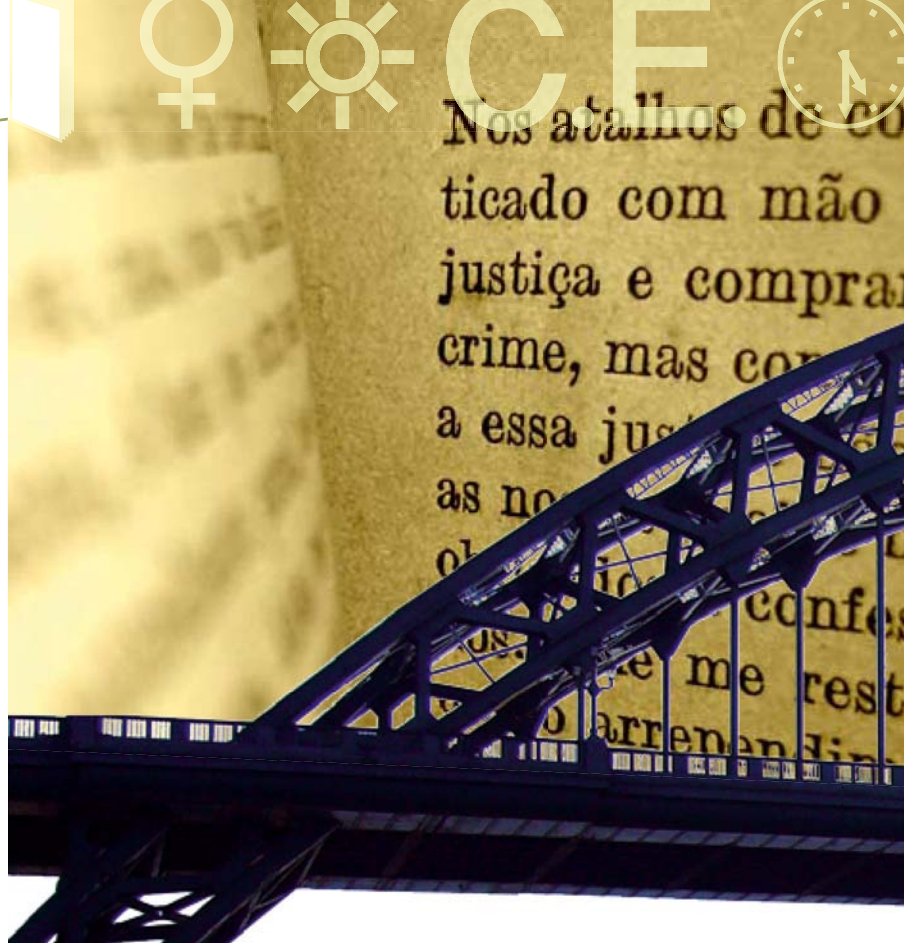
الناس في العالم الغربي لا يُلِمّون منها بأكثر مما فعل أجدادهم في أواخر العصر الحجري».

أثارت أفكار السير سنو في حينه ضجة ونقاشات مطولة على جانبي الأطلسي. وكان أسلوبه القاطع في إدانة علماء الآداب والإنسانيات واتهامهم باحتكار السلطة الفكرية والجهل بأبجديات الثقافة الحديثة سبباً في استجلاب نقمة هؤلاء ونقدهم اللاذع. لكن طرح سنو كان له وقع إيجابي بشكل عام لاسيما وأن خلفيته الإبداعية كعالم وكروائي أيضاً أضفت شيئاً من الحيادية على نظريته. فكرة الثقافتين الاثنتين كانت مصدراً لشهرة عريضة أكسبته عشرين درجة فخرية خلال عقد من الزمان. وإبان فوز حزب العمال بانتخابات العام 1964م، تم استحداث وزارة للتقنية وتعيين سنو نائباً لوزيرها، وليغدو أيضاً متحدثاً عن الحكومة في الشأن التقني لدى مجلس اللوردات البريطاني. وحتى وفاته عام 1980م تنقل سنو حول العالم كمحاضر ومستشار وكشخصية علمية عامة. بينما تضافرت دعوته مع الظروف السياسية والاجتماعية الدولية خلال تلك السنوات في تقليص عدد دارسي الإنسانيات لصالح المنتسبين للتخصصات العلمية في جامعات أوروبا وأمريكا.

في طبعة ثانية من كتابه صدرت عام 1963م، أضاف سنو فصلاً بعنوان «الثقافتان: نظرة ثانية» تفاءل فيه بظهور ثقافة ثالثة جديدة تسد الفجوة وتعمل كجسر بين الثقافتين التقليديتين: ثقافة العقليين الإنسانيين وثقافة العلماء التطبيقيين الذين ضمنهم كذلك الفنانين والتقانيين والمختصين بما وراء الطبيعيات. وفقاً لثقافة سنو المفترضة هذه، فإن النخب الأدبية سيكون بوسعها التواصل مع العلماء بعد إجادة مفردات العلم الحديث، والعكس بالعكس صحيح. وإن كان سنو يقر بأن القضايا المصيرية للثقافة الهجينة الجديدة لن تتغير: «السلام، والغذاء، وفائض البشر الذين تنوء بهم هذه الأرض».

بروكمان: بل هي الثالثة.. والوحيدة!

خلال العقود الثلاثة التي تلت طَرْح سنو، بدا وكأن الثقافة الثالثة هي بمثابة وعي عام سيتكون مع الزمن لدى المفكرين التقليديين بفعل الطفرات الكبرى التي يشهدها الوسط العلمي. إلا أن هذا التعريف قد شهد زعزعة وإعادة صياغة دفع بفكرة الثقافة الثالثة إلى الواجهة بقوة مجدداً خلال تسعينيات القرن الماضي على يد المفكر جون بروكمان.



على النقيض من سنو، يرى بروكمان أن الثقافة الثالثة لن تلعب دور الجسر أو الصلة بين الثقافتين التقليديتين، بل هي ستحل محلهما والأدبية منهما بالذات. وأكثر من ذلك؛ يقول بروكمان إن مظاهر هذه الثقافة الثالثة هي موجودة بالفعل بيننا ممثلة بشخوص العلماء المعاصرين الذين باتوا يطرحون أسئلة جديدة يملكون وحدهم مفاتيح إجاباتها مما يهمِّش دور المفكرين الكلاسيكيين الذين تنتفي الحاجة للتواصل معهم أساساً وفق هذه الرؤية.

يعتقد بروكمان أن المختصين بالفكر الإنساني، أو «أهل الكلام» كما يسميهم، قد قاموا باختطاف مفهوم «النُّخب المفكّرة» لصالحهم خلال ثلاثينيات القرن العشرين حتى صار قاصراً عن احتواء أسماء من قبيل آلبرت آينشتاين والفلكي إدوين هَبُل والرياضي جون فون نيومَن ونوربرت وينر. وعوضاً عن أن يتمركز فكر القرن العشرين حول مفاهيم العلوم والتكنولوجيا، يرى بروكمان أن هذه التخصصات قد تم إقصاؤها عن صلب المناهج الجامعية من قِبل وسط أكاديمي يسيطر عليه علماء الإنسانيات التقليديون.

في تبريره لهذا الخلل، يسوق بروكمان عدة أسباب: فالمشتغلون بالهم العلمي لم يقوموا، أولاً، بتقديم صيغ نهائية لقضايا يوظفون من خلالها الأفكار التي نتجت عن دراساتهم. وحتى العلماء المعروفين الذين توجهوا بكتاباتهم إلى القارئ العادي، مثل آرثر إدينغتُن، فقد تم تجاهل أعمالهم من قبل دائرة النخبة المنغلقة على ذاتها ولم يتم تمريرها لدائرة الأضواء خلال تلك الحقبة.

لكن الحال قد تغيَّر مع سيادة الثقافة الثالثة للمشهد، أو ثقافة «الإنسانيين الجدد» كما يسميها بروكمان، الذي يقرر بأن الاهتمام الشعبي بالكتب العلمية في أواخر القرن العشرين لا ينبغي أن يكون مفاجئاً بل يجب اعتباره مؤشراً طبيعياً على تغيير التوجه الفكري في العالم حيث يتحول «العلم» إلى «ثقافة عامة»، وحيث العلم يتصدر أهم الأخبار ويتجدد يومياً ليغير معه حياة كل منا على نحو يعجز عن مواكبته أساطين الثقافة الكلاسيكيون المتشبثون بفرويد وماركس وبدراسات الحداثة. هؤلاء الكلاسيكيون -يصر بروكمان- لا يتواصلون مع العلماء، في حين يتواصل العلماء مباشرة مع الجمهور من دون وساطة الأوصياء على الفكر ولا صحافتهم ما يشكل أبرز مظاهر قوة الثقافة الثالثة.

يقول بروكمان في مقال كتبه عام 1991م: «المثقفون ليسوا أناساً محتكرين للمعرفة، بل هم أيضاً مُشكِّلون لفكر جيلهم. المثقف إنسان خلاَّق، جماهيري وتواصلي... (المؤرخون) اليوم يندبون جيلاً من المفكرين الشعبيين الذين حلّت محلهم مجموعات جامدة من الأكاديميين. هذا التصوير صحيح لكنه خطأ أيضاً، لأن مفكري الثقافة الثالثة هم الآن مثقفوا الجمهور الجدد».

محاور الثقافة الثالثة

المواضيع والمحاور الفكرية التي تتطرق لها الثقافة الثالثة تمثل كما يقول أنصارها طرقاً جديدة لفهم النظم الفيزيائية. أو هي «طرق جديدة للتفكير بشأن التفكير، تستدعي التساؤل حول العديد من افتراضاتنا الأساسية المتعلقة بوجودنا وكينونتنا» بحسب تعبير بروكمان نفسه.

هذه الافتراضات والأسئلة الكبرى هي من قبيل: كيف ظهر الوجود؟ ما أصل الكون؟ كيف بزغت الحياة؟ وهي افتراضات موزعة على طيف من التخصصات العلمية

POEMS: WRITTEN BY WIL. SHAKE-SPEARE. Gent.

Printed at London by Tho. Cotes, and are to be sold by John Benson, dwelling in St. Dunstans Church-yard. 1640.

Corbis

وليدة العقود الأخيرة من عمر الإنسانية، بعضها ظهر حتى بعد محاضرة سنو التي أطلقت شرارة الثقافة الثالثة، وهي متفرعة عن علوم الفيزياء والكهرباء والوراثة والهندسة والأحياء وكيمياء المادة. وكلها علوم يسعى الأفراد على مختلف درجات التعليم للاطلاع عليها وبخاصة محررو الكتب والخبراء ومديرو المؤسسات الإخبارية ومسؤولو الجامعات والذين يبذلون جهوداً لزيادة حصيلتهم منها في ظل تتابع الأنباء حول التطورات الحاصلة فيها.

بينما تتطور الفيزياء الحديثة، يظل غالبية أذكياء العالم الغربي لا يعرفون عنها أكثر مما كان يعرفه أجدادهم في العصر الحجري!

والعناوين التي يخوض فيها كل هؤلاء قد تبدو مبهمة لأول وهلة إذ تشمل الأحياء الجزيئية، والهندسة الوراثية، وتقنيات التصميم دون المستوى الذري أو تقنيات النانو، والذكاء الصناعي، ونظرية الفوضى، والأداء المتوازي للمهام، والشبكات الحاسوبية العصبية، والكون المتمدد، والاستنساخ... وغيرها.

هذا الفيض من الأفكار والتطبيقات الباهرة وغير المستجلاة بعد، والذي يشغل في الآن ذاته اهتمام الرأي العام بتصدّره لنشرات الأخبار اليومية وبتعلقه بهموم الإنسان المعاصر، يشكل ذخيرة مفكري الثقافة الثالثة. ليس هناك مقياس محدد لتصنيف أي من تلك التطبيقات بحسب الأهمية ولا مدى القبول العلمي. وقوة الثقافة الثالثة تكمن في تقبلها المطلق للاختلاف في مدى جدية تناول أي من تلك القضايا من دون أن يؤثر ذلك على صدقيتها العامة كثقافة. وعلى النقيض من ثقافة الرأي، فإن منجزات الثقافة الثالثة لن تنحصر في مجرد نقاشات فلسفية قابلة للمداولة من قبل النخبة الفكرية، بل ستتعداها إلى نتائج علمية يلمس أثرها الجميع.

والقائمون على صياغة مبادئ الثقافة الثالثة لا يخططون لأن ينغلقوا بها على تخصصات بعينها دون سواها. فأي فرع معرفي لطالما هو يعتمد وسائل قياسية في الحصول على المعلومة سيتم ضمه للمجموعة، وإن كان في الأصل تخصصاً إنسانياً، كما هو الحال مع فروع علم الاجتماع من جغرافيا واقتصاد وتاريخ وعلوم سياسية، بما في ذلك دقائقها الإحصائية والتقنية بطبيعة الحال. وهو ما يمثل دعوة مفتوحة لأفراد الثقافة الإنسانية لتبني نمط التفكير العلمي والانضمام إلى فريق الثقافة الثالثة بما يضمه من فيزيائيين وعلماء أحياء، وفلاسفة، وعلماء حاسوب ونفس وسلوك وأصول أنواع، وجيولوجيين، ومبتكرين، وصحفيين علميين.

تنويريون؟ أم مجرد عابرين؟

هل يمثل بروكمان ورفاقه الذين يحملون اليوم لواء الثقافة الثالثة موجة جديدة من التنويريين تعِد بثورة فكرية علمية على غرار التنظيمات التي اصطدمت بسلطة الكنيسة الكاثوليكية وكان أبطالها غاليليو وكيبلر ورفائيل؟

التأمل في آراء بروكمان الشخصية، بصفته رائداً في الدعوة للثقافة الثالثة ومؤسساً لصالون إلكتروني خاص بحواراتها (Edge.org)، ربما يسهم في إلقاء مزيد من الضوء على طبيعة الأفكار التي تطرحها هذه الحركة. يعلن بروكمان بأن الوقت قد حان لإزاحة مفكري الرأي عن الساحة واستبدالهم بالعلماء التجريبيين أو «الإنسانيين الجدد». وهؤلاء قد لا تنقصهم مَلَكة التفلسف. فأينشتاين ذاته قد قضى شطراً معتبراً من زمن صياغة نظريته النسبية في اختيار الكلمات الأنسب للتعبير عن هذا العلم الجديد.

لكن تعليقات بروكمان، والتي لا يشاركه فيها بالضرورة كل المنتسبين إلى (Edge)، تعاني إغراقاً في التقليل من أهمية التخصصات الإنسانية عموماً وكأنها استنفدت الغايات منها. بروكمان يلمز دارسي الآداب والتاريخ مثلاً

معتبراً أن تخصصاتهم ما هي إلا حلقة من النزاعات الشخصية والجدليات التي ما أن يفرغ منها أحدهم حتى يتلقفها الآخر ويبدأ في نقضها. ألا أنه يعود ويستدرك موضحاً أنه ليس ضد دراسة التاريخ مثلاً، لكنه يشدد على ضرورة أن نسائل أنفسنا: تاريخ أي شيء بالضبط ينبغي علينا أن ندرس؟ هو يذكر أن (تاريخ العلم) على سبيل المثال يظل تخصصاً مهماً إنما منفصلاً تماماً عن مسيرة العلم التجريبي البحت.

التفاؤل المطلق بمستقبل الحضارة تحت راية الفكر العلمي هو سمة أساسية لدعوة بروكمان. النظريات القائلة بإفلاس حضارة الغرب والاستشرافات المتشائمة بقرب سقوطها ليست عنده أكثر من أعراض اكتئاب مرَضي يعاني منه مفكرو ما بعد الحداثة. يقول ساخراً: «شوبنهاور كان سيقترح نظاماً فلسفياً مختلفاً لو أنه تعاطى مضاد الاكتئاب (بروزاك)». وهو كذلك ليس من أنصار نظرية «الهمجي النبيل» والتي تلقي باللائمة على التقنية الحديثة في العبث بالتوازن بين الإنسان والبيئة وشيوع القلاقل والأزمات بين البشر.. هو ببساطة يؤمن بالعكس تماماً.

لكن أفكار بروكمان تحظى بالنقد حتى من داخل جماعة الثقافة الثالثة ذاتها. أحدهم شبه حماسته المفتقرة للتحليل المنطقي في إعلان انتصار المنهج العلمي واندحار الفكر التقليدي بإعلانات شركة (نايكي – Nike) الرياضية!

كما أن زعمه بأن علماء الطبيعة هم الأقرب بدراساتهم وأبحاثهم لمشكلات العالَم الحقيقي لم يكن واقعياً تماماً. فقائمة الدراسات التي تتطرق لها حقول العلم الحديث والمتعلقة بالمجهول واللانهاية هي أكثر من أن تحصى. وفي المقابل تبرز الأبحاث الإنسانية الخاصة بالسلوك والشخصية البشريين ملتصقة بالواقع وبالعالم الحقيقي. كثير من العلماء لا يشاركون بروكمان حَميته لثقافة ثالثة مُطلَقة. فهؤلاء يدركون عجزهم عن تناول المسائل الإنسانية الشائكة المتعلقة بالأخلاق مثلاً. وخطورة استفراد العلماء بالدور الإنساني تفسرها ذات الأسباب التي ساقها بروكمان ومن قبله سنو في الدعوة للثقافة الثالثة: فالعلماء التطبيقيون لا يزالون يفتقرون بدورهم إلى المعرفة والأدوات اللازمة للعب هذا الدور.

حتى الحقيقة التي افترضها بروكمان حول انفتاح آفاق الاستكشافات العلمية ووقوف العلم على مشارف حقبة من الإنجازات اللامتناهية، حتى هذا الفرض يجد من ينقضه من داخل البيت العلمي قبل سواه. فثمة من يعتقد أن الأسئلة العلمية الكبرى قد تم استنفادها أيضاً، أو أن ذلك على وشك الحصول ما أن يتم التوصل للنظرية الكليّة (The Theory of Everything) وسوى ذلك من المسائل العلمية العالقة والمحددة بدورها.

تجدر الإشارة إلى أن كثيراً من المفكرين العقليين يقرون بتراجع الثقافة الإنسانية مقابل الزخم العلمي. هؤلاء لا يسلّمون بهزيمتهم أما طروحات بروكمان، وإنما يعيدون توجيه نصاله إلى نحره، مذكرّين بأن كثيرًا من الإنجازات العلمية والتكنولوجية الحديثة، وبخاصة في مجال الاتصالات الإلكترونية تكاد تسلب العلاقات الاجتماعية إنسانيتها مع استغناء البشر عن بعضهم البعض مقابل رفقة الآلات الصماء التي تقدم لهم وهم التواصل من ناحية، وتخضعهم لسيطرتها الباردة من ناحية أخرى كما تنبأ عدد من المفكرين الإنسانيين في بدايات القرن أمثال جورج أورويل وكارل تشوبئك.

مثقفو الرأي يشيرون كذلك إلى أن أياً من طروحات الثقافة الثالثة لا تبدو مكترثة بالجوانب الدينية أو الروحية للحضارة. كما وأن تبجيل بروكمان للفكر العلمي من منطلق تفوق العالم الغربي في صدده، واقتصار معظم محاور الثقافة الثالثة المطروحة على هموم العالم الأول الفكرية من دون التفات حقيقي لمآسي باقي العوالم المتخلّفة والأحوج للغوث الفكري، مع تكريس مكانة الغرب –أو أميركا تحديداً– كقوة عظمى هدفاً معلناً للثقافة الثالثة، كل ذلك يرفع علامات استفهام

شتى حول خلفيات دعوتي بروكمان وسنو ويوحي بنبرات خفية تبطنها.

على كل، فأحد أوجه نقد (بروكمان) داخل أميركا تمثلت في استكتابه حصرياً للخبراء من الرجال البيض دون النساء والملونين في المؤلفات التي حررها باسمه، ما يتعارض مع قواعد الاستقصاء الشامل ويسلب دراساته الكثير من جديتها كمرآة لرأي شرائح أكثر تنوعاً واعتباراً.

لا تزال القيمة العلمية غائبة عن الأجندة العربية حتى تحت بند« الثقافة الثالثة» في مقابل الإغراق في تناول الجانب الإنساني تحت نفس المسمى

الثقافة الثالثة في المفهوم العربي

البحث عن معنى مصطلح «الثقافة الثالثة» يقود إلى أكثر من مفهوم. فبالإضافة إلى الفكرة المطروحة أعلاه، توجد أيضاً نظرية «ابن الثقافة الثالثة – Third Culture Kid» والخاصة بالأفراد الذين ولدوا أو نشأوا في أوطان غير أوطانهم الأصلية التي ينسبون إليها ثقافياً أو وراثياً. ويضم هؤلاء أبناء الدبلوماسيين والجنود والمغتربين عموماً. وهذا التفسير لمعنى «الثقافة الثالثة» هو الغالب في الأدبيات العربية المعنية بالهم الثقافي والموضوعة في معظمها من قِبل مغتربين يعيشون أنفسهم مظاهر هذه المعاناة ويشكلون جُلّ النخبة العربية المفكرة.

تظل القيمة العلمية غائبة إذاً عن الأجندة العربية حتى تحت بند «الثقافة الثالثة» ذاته، في مقابل إغراق في تناول الجانب الإنساني والاجتماعي المندرج تحت نفس المسمى. والواقع أن تقصي ملامح ثقافة ثالثة بحسب التعاريف التي وضعها سنو ومن بعده بروكمان عبر المشهد العربي يمثل مهمة صعبة ومرتبكة. ليس لأن المثقفين العرب هم بمنأى عن الفكرة وتطوراتها في الغرب. ولكن لأن القيمة العلمية للفكر تظل غائبة عن الحالة العربية التي لم تزل تحاول أن تحدد أطرها وتخرج من نفق ركودها وجمودها. لنتذكر مثلاً أن الكتاب العلمي والقصة العلمية لا تزال مشاريع غير مكتملة الأهلية في الذائقة العربية. وعليه، فإن الحديث عن ردم الفجوة بين الفكرين الإنساني والتطبيقي العربيين –على النمط الغربي- لابد وأن تسبقها بلورة وصقل للفكر الإنساني وثقافة الرأي أولاً، ثم نهضة بالفكر العلمي الطبيعي.

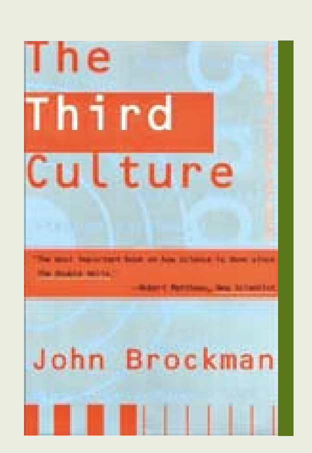
غير أن الساحة لا تخلو من محاولات لتقديم مفهوم بروكمان للثقافة الثالثة واستقراء واقعه ومستقبله عربياً. والمثقفون العرب منقسمون حيال هذا المفهوم إلى فريقين: فهناك فريق يرى فيها ثقافة مدمرة للقيمة الإنسانية ستؤدي إلى تسليم زمام القيادة إلى (التكنوقراط) ومنتهاها علمانية المجتمع، في مقابل فريق ثانٍ متحمس لها، لكن إحاطته بمفرداتها لا يتجاوز مع الأسف حد «الإنترنت» و «الاستنساخ»، على اعتبار ما يذاع في القنوات الفضائية. وتتمثل المفارقة العربية هنا في غياب النخبة العلمية شبه التام عن المشهد الثقافي، وفي ظهور الدعوة إلى الثقافة الثالثة من داخل مجاميع مثقفي الرأي والإنسانيين التقليدين الذين يدعو بروكمان في أمريكا لوقف التعويل عليهم في مسيرة التقدم!

هكذا، لا يعدو الحديث عن «الثقافة الثالثة» عربياً مجرد رجع للصدى الأجنبي، وفي الآن ذاته الذي تفصلنا فيه عن الغرب قرون من الإنجاز التقني. أليس من المخيف أن نتطلع نحن بالذات إلى هذا الغرب وهو يجلد ذاته بهذه القسوة ويلومها على تأخره العلمي وقصور مؤسساته الفكرية عن مواكبة مسيرة العلم؟! أم أننا قد كتب علينا أن نبقى أبداً أسرى ثقافة ماضوية تفتقر إلى البعد المستقبلي، ويستغرقها الواقع بآلامه ومشكلاته ليحجب عنها رؤية المستقبل؟



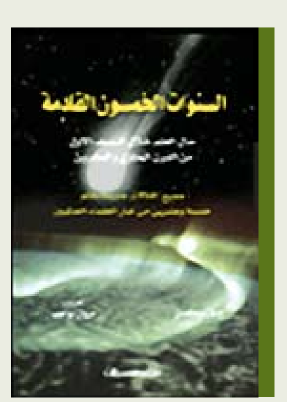
اقرأ للعلم

كتابات في الثقافة



هناك بالطبع كتاب سنو المشار إليه في الموضوع السابق (الثقافتان والثورة العلمية – The Two Cultures and the Scientific Revolution) والذي بدأت به القصة بأسرها.
ألّف (بروكمان) منذ العام 1969م العديد من الكتب لعل أشهرها (الثقافة الثالثة: ما بعد الثورة العلمية – The Third Culture: Beyond the Scientific Revolution) الذي صدر عام 1995م، وهو متوافر بصيغة رقمية عبر الموقع: www.edge.org/documents/jbbooks.html. وقد استعرضت مجلة (العربي) هذا الكتاب في عددها الصادر في نوفمبر 2003م.
وحرر بروكمان بعد ذلك عدة عناوين في فلسفة الثقافة الثالثة جميعها وإن كانت منسوبة إليه إلا أنها تشترك في كونها مجموعة مقالات لعدد من العلماء والمفكرين يتطرقون عبرها لأبرز الأسئلة التي تطرحها تخصصاتهم في لغة سهلة موجهة إلى القارئ العادي ومكرسة لبسط هيمنة هذه الثقافة بين الجمهور.
تتوافر ترجمات لبعض أعمال بروكمان في المكتبة العربية. آخرها كتاب «الإنسانيون الجدد: العلم عند الحافة» من ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي ضمن المشروع القومي للترجمة التابع للمجلس الأعلى للثقافة بجمهورية مصر العربية. هناك أيضاً ترجمة مروان أبو جيب لكتاب «السنوات الخمسون القادمة» والصادر عن مكتبة العبيكان السعودية. وكعنوان عربي صرف يبرز كتاب للدكتور أحمد أبو زيد بعنوان «المعرفة وصناعة المستقبل» المنشور ضمن سلسلة (كتاب العربي).

علوم السنوات المقبلة.. تقاطعاتها وعواقبها



تتضمَّن الثقافة الثالثة أولئك العلماء والمفكّرين في العالم التجريبي ،الذين من خلال عملهم وكتابتهم التفسيرية، يأخذون مكان المثقف التقليدي في جعل المعاني المرئية أعمق في حياتنا.
ومن أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع كتاب «السنوات الخمسون القادمة» الذي يحوي مقالات بقلم خمسة وعشرين من كبار العلماء العالميين ألفه جون بروكمان وعربه مروان أبو جيب، وصدرت طبعته الأولى عام 2004م.
تدور هذه المقالات حول التقدم الذي تم إنجازه في العلوم والتكنولوجيا، فمثلاً بول ديفيس، العالم الفيزيائي النظري والمؤلف صاحب الكتب الأكثر مبيعاً، يجول في احتمال التوصل بحلول العام 2050م إلى تحقيق تواجد بشري كامل على كوكب المشتري. والعالم النفساني ميهالي كسيكرز ينتميهالي يبحث عن تشعبات حاصل الذكاء العالي الذي يشكل من الناحية الوراثية مواليد سعداء. الطبيبة النفسانية نانسي إيتكوف تقدِّم شرحاً للبحث الذي يجري حالياً في ابتكار مجوهرات تتحسس العواطف، ويمكنها أن تقيس طبائعنا وتنبهنا إلى الوقت الذي يجب أن نبتلع فيه قرصاً مهدئاً. ويغوص ريتشارد دوكينز، العالم في ارتقاء الإحياء، في احتمال أن نحصل في القريب العاجل على طبعة لمجموعة المورثات تنبئنا بنهايتنا الطبيعية لقاء تكلفة مساوية لصورة الصدر الشعاعية. هذا الكتاب لا يتعاطى في الإمكانات العملية للمستقبل القريب فحسب، بل يتعداها أيضاً إلى العواقب الاجتماعية والعملية لتطورات غريبة سيشهدها العالم الجديد الذي لا بد أنه قادم.
في هذا الكتاب لا يكتب العلماء عموميات ترمي إلى التسلية العامة، بل مناقشات موجهة لنظرائهم في التخصصات الأخرى عن ماهية التطورات التي نتوقعها في كل مجال أو تخصص. وكيف سيكون تأثيرها ومدى تقاطعها مع بعضها البعض. ما هي التوقعات الحالية التي لن تتحقق؟. لا يدعي المؤلف في مقدمته أن كتَّاب المقالات يقدمون بالضرورة أجوبة عن الأسئلة التي تطرح في حياتنا اليومية عن تطورات العلم المتوقعة.
يقع هذا الكتاب في 446 صفحة من القطع المتوسط، وقد قُسم إلى قسمين:
الأول هو استشراف نظري للمستقبل يحتوي ضمن موضوعاته على التقدم في علم الكون «الفضاء وارتياده»، تحديات العلوم الكونية: هل نحن وحدنا، وأين؟ الرياضيات سنة 2050م ،تحت ظلال الثقافة، العقول القابلة للتبادل الأشياء التي سيعلمها الأطفال للعلماء، الاضطراب و نظرية التعقيد، ما هي الحياة؟ . أما القسم الثاني فهو استشراف عملي للمستقبل ومن مواضيعه تسلسل الحمض النووي DNA ومدى التعليم الذي يوفره لنا ، سيطرتنا على المادة، التفاعل الحميم بيننا وبين آلاتنا وعلى الأخص كومبيوتراتنا ، علم الأعصاب،اندماج اللحم والآلات ، هل سنصبح أكثر ذكاءً؟ ، العقل والدماغ والنفس ، السيطرة على المرض.. وغيرها من مواضيع.

1 ساعات الكوارتز وسرُّ الدقة



Wikipedia

يتساءل البعض لماذا تتميز الساعات العاملة على الكوارتز، مهما كانت رخيصة الثمن، بدقة تفوق دقة الساعات الميكانيكية، حتى بعض ما هو باهظ الثمن منها.

يعود السبب إلى خاصية يتميز بها حجر الكوارتز وتدعى «بيازوكهربائية»، وهي أن هذا الحجر يرتج باستمرار إذا مسه تيار كهربائي.

وفي المراحل الأولى من ابتكار ساعات الكوارتز كانت القضية في مواءمة كمية الطاقة وعدد الارتجاجات في رقاقة كوارتز صغيرة يمكن وضعها داخل الساعة. وبعد التجارب والدراسات استقر العلماء على ذبذبة مقدارها 32,768 هيرتز، تولد في الكوارتز 2^{15} ارتجاجاً في الثانية يمكن تحويله بسهولة إلى عدَّاد قادر على قراءتها.

فالشبكة الداخلية تعد هذه الارتجاجات، وتجمع كل مجموعة منها في ثانية واحدة، وتمررها عبر الأسلاك إما إلى جهاز ميكانيكي يحرِّك عقرب الثواني، وإما إلى شاشة رقمية، حسب نموذج الساعة.

2 جوائز علمية.. أين نوبل منها؟

نمت في أمريكا مؤخراً ظاهرة تخصيص جوائز مالية للإنجازات العلمية يتجاوز الكثير منها قيمة جائزة نوبل.

أولى هذه الجوائز العملاقة كانت «جائزة أنساري X» التي بلغت قيمتها 10 ملايين دولار، وكانت من نصيب أول شركة خاصة تمكنت من إرسال إنسان لمرتين إلى مدار حول الأرض قبل 1

وخصص أحد أثرياء لاس فيغاس المستثمرين في القطاع الفندقي، جائزة مقدارها 50 مليون دولار لأول من يستطيع فك الشيفرة الجينية لشخص محدد خلال بضعة أسابيع، على أن يتم ذلك قبل العام 2010م.

ومنحت المؤسسة الأمريكية لتشجيع الابتكار جائزة مقدارها مليوني دولار لمخترع أول عربة من دون سائق اجتازت بنجاح 210 كيلومترات في صحراء نيفادا..

ويسهل على مانحي هذه الجوائز تفسيرها بالقول إن عوائدها الاقتصادية مضمونة. إذ أن الجائزة تدفع بعد تحقيق الإنجاز. كما أنها تسرِّع الوصول إليه لأنها تعزز المنافسة، وتشغِّل عدداً كبيراً من فرق الأبحاث بدلاً من فريق واحد.



Wikipedia

3 المسح العالمي للمرجان


PBase

أكمل العلماء خلال الأشهر الماضية أول عملية مسح شامل بواسطة القمر الصناعي «لاندسات» لمواقع المرجان في كافة البحار والمحيطات.
وقد استغرقت العملية نحو سنوات أربع، جمع خلالها العلماء نحو 1800 صورة. أما النتيجة فلم تكن تبعث على الفرح.
فعلى الرغم من أن الدراسة حددت 19 موقعاً بحرياً كمحميات للشعب المرجانية، إلا أنها خلصت إلى التأكيد على أن المرجان يتعرض إلى أضرار بالغة فيها نتيجة الصيد العشوائي والتلوث.
الخبر الجيد الوحيد يتعلق بالمحمية التي تبلغ مسافتها 400 كلم مربع شمالي جزر هاواي، والتي أصبحت منذ شهر يونيو الماضي أكبر ملجأ لتنوع الحياة البحرية في العالم.

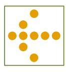
4 ارتفاع حرارة المدن.. قلي البيض على رصيف الشارع؟

ارتفاع حرارة المدن عن حرارة ضواحيها ليس جديداً، فقد تحدث عنه عالم المناخ البريطاني لوك هوارد منذ عشرينيات القرن التاسع عشر. الجديد هو ما وصل إليه هذا الارتفاع.
فقد أشارت مجلة «نيوساينتست» مؤخراً إلى أن معدل ارتفاع الحرارة في بعض المدن بلغ نهاراً درجتين عن حرارة الضواحي، وست درجات ليلاً!
وهذا الفارق الكبير يعود إلى الأسمنت والأسفلت اللذين يمتصان الحرارة أكثر من مواد البيئة الطبيعية. إضافة إلى الاستهلاك الكبير من الطاقة في السيارات وتكييف الهواء والصناعة. ولم تستبعد المجلة أن يكون الاحتباس الحراري ذا أثر معين على هذا التحول في حرارة المدن.
وتشير المجلة إلى أن معدلات الارتفاع المشار إليها أعلاه هي نتيجة دراسة شملت مدناً في مواقع مختلفة. أما في المناطق الصحراوية مثل ولاية أريزونا فيمكن لهذا الفارق الحراري أن يصل إلى عشر درجات مئوية في مدينة مثل فينكس. الأمر الذي يجعل قلي البيض ممكناً على أرصفتها!
وإضافة إلى زيادة عنف التيارات الهوائية الساخنة الذي يؤدي بدوره إلى زيادة عنف العواصف وخاصة الرعدية منها فوق هذه المدن، يمكن لهذا الفارق الحراري أن يؤدي إلى مشكلات صحية خطيرة، مثلما حدث في فرنسا في عام 2003م، عندما توفي نحو 20,000 شخص نتيجة ارتفاع درجة الحرارة التي وصلت في باريس نهاراً إلى ما فوق الأربعين درجة، ولم تنخفض ليلاً إلى أقل من ثلاثين.
والحل ؟ لا حل إلا بزيادة التشجير والمساحات المعشبة داخل المدن.

PBase

قصة ابتكار

البطاقة الممغنطة



بعدما تدخل إلى غرفة الفندق مستخدماً البطاقة الممغنطة لفتح الباب، تجد جيباً صغيراً، تضع فيه البطاقة، فتضاء الغرفة كلها. وتبقى البطاقة آمنة في مكانها.

إنها لحظة تعطي قاطن الغرفة شعورين بالارتياح. الأول هو تفادي الحاجة إلى البحث عن أزرار الكهرباء وإضاءتها الواحد تلو الآخر، فكل أضواء الغرفة تضاء دفعة واحدة. والثاني، أن البطاقة التي هي مفتاح الغرفة في العصر الإلكتروني لن تضيع بين أوراقك أو تقع في مكان مجهول وتجبرك على أن تجري عنها بحثاً بوليسياً. وطبعاً حين تهم بالخروج من الغرفة تسحب البطاقة من هذا الجيب فتطفأ الأنوار. وهذا يعطيك شعورين بالراحة أيضاً.

الأول أنك «لم تنس» المفتاح، والثاني أنك تفاديت الحاجة إلى إطفاء جميع الأنوار، مما يعفيك أيضاً من وجع الضمير إن تركت نوراً مضاءً بلا فائدة. وهي خطوة تطمئن إدارة الفندق بدورها إلى أنك لم تترك خلفك مصروفاً كهربائياً دون طائل.

ولكن، مشاعر الراحة هذه لم تكن الأسباب الحقيقية وراء ابتكار تور سورينز، المهندس والمبتكر النرويجي، للبطاقة الممغنطة. ولد سورينز عام 1925م في سولا في النرويج، ووالده راسموس سورينز كان مبتكراً ومهندساً وصانعاً للساعات. وفي عام 1950م، عمل تور كمخطط للإنتاج في مصنع لإنتاج الأدوات الفولاذية والحديدية في موس. وعندما أنشأ المصنع إدارة للأبحاث والتطوير، وكانت هذه الإدارة من أولى الإدارات في هذا المجال في البلد، كان سورينز رئيساً لها. وفي عام 1975م، أطلق المصنع قفلاً جديداً يسمح لكل ضيف جديد في أي فندق بأن يحصل على مفتاحه الخاص الذي لا يشبه أي مفتاح آخر، وبالتالي يوفر أماناً تاماً لكل محتويات الغرفة وممتلكات الضيف. هذا المفتاح عبارة عن بطاقة بلاستيكية تحتوي على 32 ثقباً تسمح بتكوين 4.2 بلايين شفرة مختلفة، وهو عدد سكان العالم بأكمله وقتذاك.



بدأت دول العالم في استيراد هذا الابتكار حالما أثبت نجاحه مع فندق «بيتشتري بلازا» في ولاية جورجيا الأمريكية، فهذا الفندق الذي كان آنذاك أطول فندق في العالم، سارع إلى اعتماد هذا الابتكار الجديد في غرفه وأجنحته المختلفة، لعله يوفر الحماية من حوادث السرقة المتكررة التي تعرض لها.

وبين عامي 1992م و1993م أطلقت البطاقة الممغنطة محل البطاقة البلاستيكية، ولاقت نجاحاً فورياً. أما تور سورينز فقد تابع عمله كنائب رئيس في المصنع نفسه الذي التحق به شاباً، حتى تقاعد في العام 1992م.

قصة مبتكر

تشستر كارلسون

ولد تشستر كارلسون في الثامن من شهر فبراير عام 1906م، في سياتل في ولاية واشنطن. وقد عانى والديه من مرض السل إضافة إلى معاناة والده من التهاب النخاع الشوكي. مما اضطره إلى العمل في سن مبكرة. فكان يومه مقسماً بين تنظيف النوافذ في الصباح الباكر قبل الذهاب إلى المدرسة وبين الأعمال المكتبية المختلفة بعد الظهر. وفي المرحلة الثانوية أنشأ مجلة كيميائية. ولكنه اضطر إلى الانتقال من ولاية إلى أخرى بحثاً عن مناخ يناسب حالة والديه الصحية ولكن محاولاته باءت بالفشل. فذاق طعم اليتم بوفاة والدته وهو في السابعة عشرة من عمره ثم توفي والده وهو في الرابعة والعشرين.

التحق كارلسون بعد فقدانه لوالديه بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا، وحصل على درجة البكالوريوس في العلوم الفيزيائية، ومع وثيقة التخرج دين ثقيل للمعهد قدره 140,000 دولار. ولأجل تسديده، حاول العمل في 82 شركة ولكنه قوبل بالرفض حتى تمكن في عام 1930م من الحصول على وظيفة مهندس باحث في معامل بيل للتليفونات بنيويورك، ولكن بسبب الركود الاقتصادي في عام 1933م، لم يستمر طويلاً في عمله. في عام 1936م، بدأ بدراسة القانون في مدرسة نيويورك للقانون وتخرج منها بعد سنوات ثلاث، ثم شغل منصباً في قسم الاختراعات في شركة ب.ر.مولري، وأكثر ما كان يحتاج إليه في عمله هذا هو نسخ العديد من الرسومات ومواصفات الاختراعات، ولكن لعدم وجود طريقة تلائم حصوله على مبتغاه كان عليه أن ينسخ ما يريد يدوياً، لذلك قرر أن يجد طريقة تسهل عمله وتوفر وقته وتجنبه العمل الطويل المرهق. وذات يوم لفت انتباهه كتاب عن الكهرباء الساكنة، فكان بداية الطريق للبدء في تجاربه معها. فنقل معمله إلى المطبخ حيث اختبر مادة الكبريت مع بعض المكونات على الفرن، مما دفع جيرانه إلى التذمر والشكوى، ومن ثم أطلقوا عليه لقب «العالم المجنون» حتى قصدته ذات يوم امرأة تدعى دوريس لتتذمر من تجربته، وإذا بها تصبح زوجته لاحقاً.



تمكن كارلسون في 22 أكتوبر عام 1938م من عمل أول صورة الكترو-فوتوجرافيكية على ورقة الشمع وذلك بالتعامل مع أوتو كوريني الفيزيائي الألماني الذي عينه مساعداً له. وبعدها بدأ كارلسون البحث عن مستثمرين لتبني اختراعه الجديد، وفي 22 أكتوبر عام 1948م ظهر أول إعلان رسمي عن آلة التصوير من قبل شركة «هوليد» التي أصبح اسمها شركة «زيروكس» وشركة «باتيل» معاً في نيويورك. وفي عام 1950م بيعت تجارياً أول آلة تصوير على هيئة «زيروكس كوبير». وقد حصل كارلسون بعدها على مبلغ قدره 150,000,000 دولار عن اختراعه، وتبرع بمبلغ 100,000,000 دولار للجمعيات الخيرية قبل وفاته عام 1968م. وفي عام 1981م تم إدراج اسمه في «قائمة مشاهير المخترعين الوطنيين».

كان قد طلب من كارلسون العودة إلى الوراء والنظر فيما مر به من أحداث فقال: «أشعر بالرضا الكامل عن كل ما مررت به. وهذا لا ينفي حقيقة أن صبري كان ينفد لأنني استغرقت خمسة عشر عاماً لأتمكن من اختراع آلة التصوير وجعلها واقعاً ملموساً. عشرة أعوام بأكملها قضيتها في العمل وحيداً متنقلاً في أماكن معدودة، ولكني أعتبر نفسي محظوظاً لأن قدري منحني منظمتين رفيعتي المستوى هما «باتل» و «هوليد».

اطلب العلم

الحقيقة العلمية.. غير الاستقامة

عثمان العبيدلي*

بين العلم والترويج التجاري منافع متبادلة. ففي إطار المنافسة على الأسواق، يسعى كل مُنتِج إلى إظهار حسنات السلعة التي ينتجها. ولكيلا يكون تميز هذه السلعة مجرد ادعاء كاذب ينهار سريعاً، يكون المنتِج متلهفاً إلى تلقف أي ابتكار أو تطوير حقيقي يميِّز إنتاجه عن الإنتاج المشابه عند غيره. الأمر الذي لطالما فتح الأبواب واسعة أمام معظم الاختراعات والابتكارات التي نعرفها اليوم. كما أدى في العصر الحديث إلى نمو صناعة الترويج بكل ما فيها، بدءاً من صورة هوية الشركة المنتجة مروراً بالتصاميم الشكلية لمنتجاتها، وصولاً إلى فن التغليف والإعلان.

ولكن هذا التحالف يبدو وكأنه قد تجاوز الحدود، وصار من الضروري حله.

فقد اتخذ الاتحاد الأوروبي خلال شهر أكتوبر الماضي سلسلة من التدابير القانونية ينتهي فيها خداع مستهلك المواد الغذائية من خلال الإعلانات.. الصادقة.

* كاتب من مصر

نعم، قد تكون الإعلانات صادقة. ولكنها توحي بصورة خطأ. فمن ضحايا القانون الجديد مثلاً، نوع شهير من السكاكر يحمل على غلافه إشارة كبيرة تقول: «0% مواد دهنية». صحيح أن هذه السكاكر خالية تماماً من المواد الدهنية، ولكن الإشارة إلى هذه الحقيقة بهذا الشكل الصارخ يراد منه الإيحاء للمستهلك بأنه لن يصاب بالسمنة من جرَّاء تناوله هذه السكاكر!!

مثل آخر: نوع شهير من الشوكولاتة يعلن احتواءه على 8 فيتامينات ومعادن وكالسيوم بالخط الكبير، مع أن كل ذلك متوافر في مادتي الحليب والكاكاو الموجودتين في كل أنواع الشوكولاتة. في حين أن الإشارة إلى أن هذه الشوكولاتة تحوي 40% من السكر تأتي في خط صغير جداً.

وإذا كان القانون الجديد قد تعامل بهذا الشكل مع الإعلانات التي «لا تتضمن أخطاءً علمية» أو «أكاذيب فاضحة»، فيمكننا أن نتصور حزمه في منع كل الإشارات غير المؤكدة مثل «يخفِّض نسبة الكوليسترول»، و «يقوي جهاز المناعة»، و «يعطيك النشاط والحيوية طيلة اليوم»، ... وما شابه ذلك مما يسميه قانون بروكسيل: «مزاعم غذائية تتعلق بالصحة».

ويقع هذا القانون في 54 صفحة، ويعطي الصناعيين مهلة 4 سنوات لـ «هضمه».

فما الذي يمكننا أن نستنتجه من ذلك؟

الحقائق العلمية والأرقام لا تكفي للترويج السليم. ولكي تكون هذه الحقائق الدقيقة ذات جدوى وقيمة فلا بد من أن تترافق مع قيمة أساسية: الاستقامة.. بمعناها الأخلاقي العميق الذي لا يمكن قياسه بالأرقام.

هل نحب عصرنا؟

كيف ينظر رجل بلغ الستين اليوم إلى جوّال فيه كاميرا رقمية، يحمله بيده ويستقبل عليه مكالمات ويرسل عبره رسائل؟
ماذا نشعر ونحن نجلس أمام جهاز تلفزيون يضم آلاف المحطات الفضائية، فنجد أحياناً، ولا نجد أحياناً أخرى، برنامجاً واحداً نرغب في رؤيته؟
حتى أية درجة نستسيغ جلسات اجتماعية لا تخلو أي منها من حديث عن السمنة والتخسيس والأكل المفيد والأكل الضار؟
كيف نحكم على هذا الشعور المتنامي بالغربة مع الكتاب، وبشعورنا بأن حتى الجريدة اليومية بدأت تضيع من بين أيدينا؟
ماذا يشعر الإنسان حين يدخل متجراً للموسيقى فينظر ليرى الكاسيتات و «السيديهات» المصطفَّة لا أول لها ولا آخر، لكنه يندر أن يجد نوع الإبداع الموسيقي أو الغنائي الذي يصبو إليه؟ ثم يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى التسجيلات القديمة التي ظهرت قبل العقدين الأخيرين من الزمن؟
ماذا يقول لنفسه حين تمضي سنوات لا يسمع فيها، رغم انتشار وسائل العلم والإعلام، إلا نادراً عن رواية جديدة جيدة أو قصيدة تستحق القراءة؟
وكيف يرى شغف كل الناس بالتعامل بالأسهم وبهذا الاندفاع والتركيز، فيخسرون كثيراً أو يربحون كثيراً؟
ماذا يقول إذا التفت يساراً ليجد اكتشافات علمية وطبية متقدمة للغاية لكنها تبدو وكأنها تحمل في طياتها خطراً ما على الجنس البشري أو القيم التي يحب أن يصونها، ثم ينظر يميناً ليرى أمراضاً مستعصية قديمة وجديدة ليس لها علاج أو تكاد؟
ثم كيف يستقبل التكنولوجيا الجديدة التي غزت بسرعة مفاجئة حياته اليومية أكان في الكاميرا الرقمية التي ألغت كاميرا الفيلم، أو الكومبيوتر ذي الذاكرة الكبيرة التي تقوم بأعمال مكتبية ومراسلات شخصية بلا انقطاع، والبيع والشراء والبحث على الإنترنت، كلها أدوات ووسائل دخلت إلى حياتنا من دون استئذان، وما زلنا ننظر إليها متسائلين!

يعرِّف أحد المفكرين النظرة «الرجعية» بأنها تلك التي ترى الخير والجمال والقيمة دوماً في الماضي، لا في الحاضر. ومثل هذه النظرة يمكن اتهامها بأنها ضرب من ضروب التشاؤم في الحياة. فالتشاؤم في أكثر أشكاله رواجاً يأتي على لسان الذين ينظرون نظرة ريبة إلى كل جديد حل محل أي قديم.

والحديث في هذا حديث يكاد لا ينقطع في الجلسات الاجتماعية. بدءاً بالتغنِّي بحياة البادية القديمة والقرية مقارنة بحياة مدن اليوم، مروراً بوصف محاسن رجالات العصر الماضي، وصولاً إلى صفات السيارة كما كانت والموسيقى والملابس انتهاءً بالحديث عن القيم والأصول والعادات. وغالباً ما يأتي هذا الحديث على ألسنة أناس يسمح لهم سنِّهم بأن يعقدوا المقارنة بين اليوم والأمس، وقد عاصروا فترات سابقة واختبروا شكل الحياة فيها.

إلا أن ذلك يأتي أحياناً على لسان شباب وفتية قرأوا كتباً أو شاهدوا أفلاماً تاريخية. تسمع فتى يبدي إعجابه بعصرٍ ماضٍ موغل في القدم أحياناً، وليس فقط بالعصر الذي سبق عصرنا مباشرة. فتراه يعبِّر عن أسفه بأنه لم يولد في عصر البطولة والفروسية، أو في خضم الإمبراطوريات القديمة الإغريقية أو الرومان والفرس أو العصر الأموي أو العباسي أو الأندلسي، أو عصر النهضة في أوروبا، أو بما يسمى بالعصر الجميل «Belle Epoque» أو غيره. يجذبه في هذه أو تلك شكل الحياة اليومية من اللباس والأثاث المنزلي وقصص الحب ومشاهد الحرب والمبارزة وأسلوب الكلام والتحديات المطروحة أمام الساسة وأصحاب الفكر والفن والأقدمين من العلماء.

لكن الشاب الذي ينشدُّ إلى تلك العصور، لا يرى بشكلٍ قاطع من تناقض بين ما وضعه العصر الحاضر بين يديه وانجذابه هذا. وليس هناك ما يستدعي، بنظره، أن يجيب عن السؤال ما إذا كنا نحب عصرنا؟

سؤال ربما يبقى من دون إجابة شافية من أيٍ كان. وعصرنا على ما يبدو يمتلك من طاقة الدفع الذاتي بقدراته الاقتصادية وعلومه وأساليبه الحياتية المتجدِّدة ما يجعله أقوى علينا من الإجابة، لأنه أقوى علينا من أن نؤثر فيه.

أوليس هذا العصر أقوى على أهله من أي عصر مضى، وكأنه امتلك ليس فقط نفسه بل كل ما سبقه من العصور؟

كميل حوا 

قائد الأوركسترا فنان يعرف الجميع بوجوده، ولكن قلّة قليلة تدرك حقيقة دوره وأهمية وجوده أمام الفرقة الموسيقية. لا بل يذهب البعض إلى حد القول بإمكانية الاستغناء عنه جملة وتفصيلاً، ويضرب هؤلاء مثلاً بالإشارة إلى أم كلثوم التي كانت تغني أجمل الغناء أمام فرقة موسيقية طويلة عريضة من دون قائد أوركسترا.

فكيف أصبح هذا القائد ضرورياً للفرقة الموسيقية؟ وأي فضل له على استمتاعنا بسماع الموسيقى؟

هنا ثلاثة إسهامات تسلّط الضوء على هذه المهنة الفنية الغامضة بالنسبة إلى الكثيرين. الأولى، ويتناول فيها **إتيان كوبليان**[1] توضيح الدور الذي يقوم به قائد الأوركسترا بشكل كامل، والثانية يحدثنا فيها **الدكتور فيكتور سحّاب**[2] عن تقنيات القيادة قبل أن يقدِّم لنا ترجمته لمقتطفات من مقالة صدرت في مجلة **«ذي نيويوركر»** الأمريكية وتتطرق إلى ميزّات أشهر قادة الفرق الموسيقية في القرن العشرين.

Corbis

قائد الأوركسترا



(1) عازف في المعهد الموسيقي الوطني العالي في بيروت

(2) دكتور في التاريخ وناقد موسيقي

1 ضبط العزف، وإضفاء لون خاص، والأمانة للأصل

إتيان كوبليان

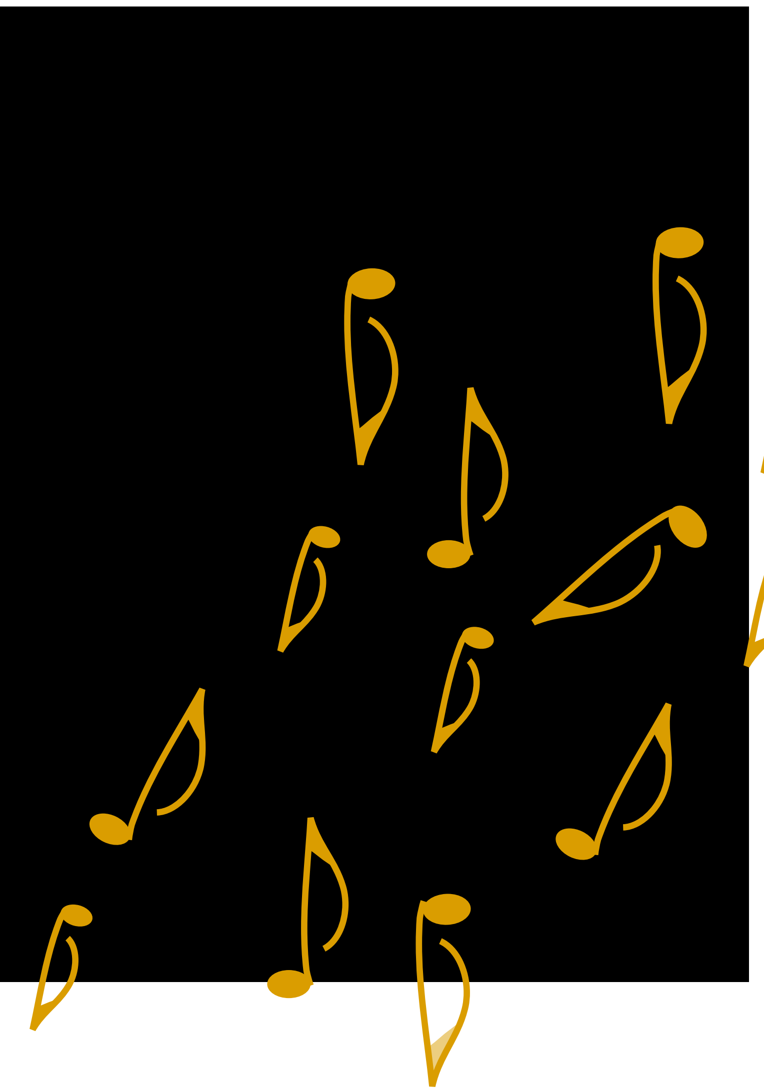
قيـادة الأوركسترا، هي أن تقود، أن تشيـر، أن تُلهم وتنسِّق عمـل مجموعـة موسيقيين يؤلفـون الأوركسـترا، من أجل إضفـاء شيء من التناسق على العمل الـذي يؤدّى. والأداء، هـو أن تنحـت العمـل المقصـود أداؤه، وتضعه فـي قالب، وتقيسـه، وتعايـره وتعطيـه شـكلاً، مـن دون أن تخون روح المؤلـف. فتصبح المقطوعـة نوعاً من الصـورة الصوتية، فيحسّها القائد بـأُذُن في داخله، ليفك رموزها وينقلها إلى كل الأوركسترا.

والأوركسـترا مـدى صوتـي هائـل تتحـرك فيـه وتتشـكل موسيقى تقتضي الكثير من الطاقة، وتجتذب الأُذُن. وكأنها مغناطيس. ويوقظ سماع قطعة موسيقية من التراث الرفيع مشاعـر من القوة ما يستوقف الأذن لتتذوق متعتها في حال من النشوة.

مثل المخرج بالنسبة إلى المسرح

أيمكـن تخيّل مسرحية تـؤدَّى من دون إخـراج؟ إن ما ينتج عنهـا هـو فوضى لا توصَـف، لا سيمـا إذا أراد كل ممثل أن يعمـل ما يحلو له. ذلـك حال الموسيقيين فـي الأوركسترا: تصوّروا مئة موسيقـي (في فرقة سمفونية) يعزف كلٌ على هـواه، حينما شـاء وكيفما يشاء، فلا يلتفت إلى الآخرين.

العازف الكبير الذي لا يعزف على أية آلة



مثـل هذا لا يُحدث ســوى فوضى لا تُسمع، ولا تُطاق، فوضى بعيدة عــن الموسيقــى التي صنعهــا الموسيقــيّ وهو يؤلف مقطوعته.

إن قائد الأوركسترا مثل المخرج. فهو يضع مقطوعة المؤلِّف في صورة صوتية. وعليه أن يجعل كل عازف في الأوركسترا يتــذوق ويفهم كل مــا كتبه المؤلف حتى تتمكــن الأوركسترا بدورها من نقل الموسيقى بيسر وأمانة إلى الجمهور.

لقــد أخــذ دور قائــد الأوركســترا يتعاظم، منــذ أن صارت الموسيقــى شائعة للجماهير العريضــة. فحتى نهاية القرن الثامــن عشر، كانــت الموسيقــى حكراً على مجتمــع لاهٍ بل مســرفٍ لا مبال. كانــت الموسيقى تُعزف فــي غرف داخل قصور وقلاع. ولم تكن الأوركسترا تتعدَّى اثني عشر عازفاً. وكان يقودهــا فــي المعتاد المؤلف نفســه، أو عازف الكمان الأول. ولكــن، حيــن انتقل عــزف الموسيقى إلــى الصالات الكبيــرة التــي تتّســع لمئــة ضعف جمهــور الغــرف، برزت مشــكلات هندســة الصوت: ولذا كان لا بد مــن زيادة عدد العازفين (أربعين ثم ستّين، وهكذا). بل إن أسلوب التأليف تبدّل، فظهــرت السمفونيات الرومانسية الشهيرة. وصار لا بد من موسيقي ينسِّق عــزف جميع الموسقيين في الفرقة. هكذا ولدت مهنة قيادة الأوركسترا.

لكل قائد بصمته الخاصة

تتألّف الأوركسترا السمفونية الكبيرة من ثلاث مجموعات:

– في الأمام تتقدَّم الآلات الوترية: الكمان والفيولا والتشيلو (الفيولونسيل) والكونترباص.

– خلــف الوتريات مباشــرة، آلات النفــخ الخشبية: الفلوت والأوبوا والكلارينيت والزماخر.

– وعلــى جانبي خشبة المسرح تتوزع آلات النفخ النحــاسية: الأبواق والترومبون والتوبا.

وأخيراً آلات الإيقــاع، ويجلس العازفون عليها في الصفوف الخلفية: الطبول والصنوج والمثلثات والزيلوفون وغيرها.

ويتضــح مــن كثــرة هــذه الآلات وضخامــة الفرقــة أن قائــد الأوركســترا يصبــح حاجــة ماسَّة. وتكــون مهمته الأساسيــة فــي أثناء التدريــب، وهي جعــل كل مجموعة موسيقييــن (الوتريــات، والنفــخ، وغيرهــا) تعزف، ثم محاولــة تنسيق كل هذا من أجل تظهير شكل الموسيقى. ومثلما يقــف الرسَّام أمام ألوانــه ليتخير منها ما يجب، هكــذا على قائد الأوركســترا أن يعرف كيف يولف عزف الموسيقيين، ويضفي لوناً صوتياً للجملة الموسيقية، من دون أن يتجاهــل روح المؤلف. ولكل قائد صوره الصوتية الخاصــة. وهي تتباين بشدة بين قائد وآخر، لأنها تتكون مــن عناصر أداء شخصــي وحسّ فريــد بالصوت. فإذا اختلــف قائــد الأوركسترا، فــإن أداءه مــع الفرقة ذاتها يختلــف عن أداء غيــره في عزف المقطوعــة الموسيقية ذاتها، مثلمــا نحصــل مــن مخرجَيْــن، علــى نظرتيــن مختلفتين للمسرحية ذاتها.

إن قائد الأوركسترا هو الذي يحضِّر مقطوعة المؤلف، حتى إذا آن أوان العرض الموسيقي، سار كل شيء على ما يرام. وعليــه أن يكون واضحاً في حركاتــه. هنا دور العصا (التي

Flickr

هيربرت فون كارايان.. أشهر قادة الأوركسترا في القرن العشرين

تثير حيرة كثير من المشاهدين) في ضبط ضرب الإيقاع ودخول الآلات المتدرِّج بحسب المقطوعة، وابتداء الجملة الموسيقية وانتهائها، وقوة الصوت وحركة الموسيقى قوةً وضعفاً، وهكذا.

كذلك على قائد الأوركسترا أن يكون مدركاً لكل المصاعب التي يواجهها كل عازف في أثناء عزفه هذا المقطع أو ذاك. وواجبه أن يسهِّل مهمة العازف، ويجد الصيغة المناسبة ليُشعره بالراحة، ويحول دونه وأي شيء قد يزعجه. ويصح هذا الأمر في قائد الجوق الغنائي أيضاً. فالعمل نفسه منتظر منه، بل في الغالب مع الحاجة إلى انتباه أكبر، لأن الصوت البشري أداة موسيقية أشد حساسية في الأداء، من الكمان والفلوت.

قائد الأوركسترا يؤدي المقطوعة الموسيقية وفقاً لرؤيته الشخصية، فيظهر عندئذ وضوح الصورة داخل نفسه، وتبدو للجمهور قدرته على تظهير هذه الصورة أثناء الأداء

وحين يكون على عازف منفرد أن يؤدي كونشرتو (للبيانو أو الكمان أو أية آلة أخرى)، فعلى قائد الأوركسترا أن يعمل ما وسعه ليكون العازف المنفرد على راحته في أدائه. وهو يتابع خطوة خطوة عزفه المنفرد، ويترقَّب الخطوات التي ينويها، فينقلها مباشرة إلى الفرقة الموسيقية. ودوره أكبر أيضاً عند قيادة الأوبرا. فعليه حينئذ تنسيق عزف العازفين المنفردين والجوق والأوركسترا عموماً.

وقائد الأوركسترا يؤدي المقطوعة الموسيقية وفقاً لرؤيته الشخصية، فيظهر عندئذ وضوح الصورة داخل نفسه، وتبدو للجمهور قدرته على تظهير هذه الصورة في أثناء الأداء.

فكيف يقيِّم القارئ هذا الأداء؟ بالسؤال:
هل أحببتَ هذه الحفلة؟
وإذا أجاب الجمهور بالإيجاب عن هذا السؤال فيكون قائد الأوركسترا قد أدَّى أداءً جيداً، لأنه أعطى الجمهور ما كان يبتغيه.

وإذا ظلَّ الآلاف من عشَّاق الموسيقى يردون بالإيجاب لسنوات طويلة، عندئذ يكون قائد الأوركسترا مستحقاً للتقدير والإعجاب.



2 تقنيات القيادة الجسدية

فيكتور سحَّاب

في الأساسيات البدائية، تفترض قيادة الأوركسترا أن يُظهر قائد الأوركسترا، بحركة يدوية للعازفين وتيرة الإيقاع الموسيقي، فتبدو عصاه، وكأنها تتحرك داخل علبة وهمية، إلى أسفل. ثم إلى اليسار، فإلى اليمين، فإلى الأعلى. ثم تعود إلى الأسفل وهكذا. وفي الإيقاع الثلاثي تذهب عصاه إلى الأسفل أولاً ثم إلى اليمين فإلى اليسار.

الإشارات سهلة، أما الأحاسيس..

ولا شك في أن تعلُّم هذه الإشارات سهل. أما ضبط الإيقاع طوال عزف السمفونية، فأمر أشد تعقيداً. ففي الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية ينضغط الوقت ويتمدَّد من دون أن يفقد بنيته الأساسية الناظمة للعمل كله. فإذا ظلَّت المقطوعة من أولها إلى آخرها على الوتيرة ذاتها، لظهرت وكأنها تسير سيراً آلياً مملاً، لا نبض فيها ولا حياة ولا حرارة. أما إذا بولغ في تواتر السرعة والبطء من دون منطق تعبيري مقصود، فإنها تظهر وكأنها فوضى غير مقنعة. والقائد الناجح هو الذي ينطوي في داخله على إحساس مرهف بوتيرة الزمن، وضرورة الإسراع والإبطاء ومتى يحدث هذا، وهل الإبطاء أبطأ من اللازم والإسراع أسرع من المطلوب، وهكذا. وهذه كلها أمور لا تُدرس في المعاهد، إنما هي من طبيعة الإحساس البشري الذي يمتاز بتفوقه الفنانون الكبار من فطرتهم.

> القائد الناجح هو الذي ينطوي في داخله على إحساس مرهف بوتيرة الزمن، وضرورة الإسراع والإبطاء ومتى يحدث ذلك

ففي بعض المقطوعات الموسيقية، يبلغ من عظمة القائد أنه يُبطيء من إيقاع العزف شيئاً فشيئاً، وكأنّه يقود إحدى عربات السكة الحديد في مدينة الملاهي، وهو صاعد إلى القمة. فإذا وصل إلى هذه القمة بلغ بطؤه أشدّه. فإذا أخذ يجتاز هذه القمة أخذت وتيرة العزف تتسارع، ليحس المستمع، وكأنه ينزلق في هذا القطار إلى قعر سحيق. كل هذه الأحاسيس وغيرها ممكنة، من دون أن يتحرك المستمع على كرسيه. وأداة هذا الإحساس هي الأذن. وكلَّما كان القائد بارعاً وحساساً، استطاع أن يؤثر في المستمع أكثر. ويقول قائد أوركسترا سمفونية وأوبرا، إن المشاعر التي تعبِّر عنها الموسيقى ينبغي أن تنشأ عند القائد، فينقلها إلى الفرقة بالحركات والتعابير المناسبة، فتؤدِّيها الفرقة لتنقل هذه المشاعر إلى الجمهور.

لغة اليدين والوجه والعصا

ومن أسرار هذه الحركات والتعابير التي تعني الكثير من دون أن يقول القائد شيئاً، أن اليد اليمنى إذا كانت ترفع العصا وتخفضها في حركة عمودية، فإنما يعني هذا أن العزف يجب أن يكون متقطعاً، غير ليِّن ولا مترابط (Staccato)، أما تحرك يد القائد من اليسار إلى اليمين، فيوحي بوضوح بطئاً وانسياباً وليونة في العزف. أما إبعاد اليدين عن جسم القائد في الاتجاهين، اليمين واليسار، مثل طائر يفرد جناحيه، فيعني أن يزيد العازفون قوة الصوت واتساعه، فيما يقتضي خفضه أن يضم القائد يديه قريبتين من جذعه. وإذا عبس القائد وضمَّ قبضة يده اليسرى وحركها بعصبية، فهذا يعني بالطبع أنه يريد عزفاً حازماً نشيطاً وقوياً. وإذا فرد يده اليسرى وقرَّبها من وجهه، وأمال رأسه، فهو يقصد حتماً عزفاً عاطفياً رقيقاً مؤثراً. وحين يرفع القائد سبَّابة اليد اليسرى، في سياق المعزوفة، ويرفع حاجبيه ويوزِّع نظراته على العازفين، فلا شك أنه يريد أن ينبه العازفين إلى قرب حدوث تبدُّل دراماتيكي في المعزوفة، حتى يستعدوا للأداء المطلوب.



Flickr

باري.. يقود الأوركسترا السيمفونية لبلدة إيرمو جنوب كارولاينا

لكل قائد لغته الخاصة

لكن الاعتقاد أن هذه قواعد صارمة غير قابلة للنقاش، أو لا تتبدل بين قائد أوركسترا وقائد آخر، خطأ أكيد. ذلك أن التعبير البشري، باليدين أو الوجه أو حتى بحركة الجسم، شديد التنوع، حتى يمكن القول إن لكل قائد أوركسترا مجموعة خاصة به من أساليب التعبير. ويروي قائد الأوركسترا روبرت سبانو أن العلاقة بين القائد وفرقته، تصبح بعد مضي سنوات، مثل العلاقة بين الزوجين، إذ يفهم كل منهما أية نبرة أو إشارة تصدر عن الآخر. ولذا، فالقائد مرشَّح لتقليل حركته وإشارته مع مضي الوقت، إلى الحد الأدنى، لأن غرضه صار مفهوماً، فلا يعود بحاجة إلى كل ما كان يؤديه في بداية عمله مع هذه الفرقة. ويقول سبانو إن البشر يتفاهمون بالحركات وتعابير الوجه أكثر من الكلمات، وهكذا في القيادة. ويضيف: «أستطيع أن أنقل الكثير من مشاعري حيال هذه الموسيقى بمجرد النظر إلى العازف». ويؤكد أن القائد يأمر الموسيقيين بأن ينتبهوا إلى طلباته بمجرد أن ينتبه هو لهم.

3 استكشاف أسرار القيادة وألمع أبطالها

بتصرف من مقالة جستين دافيدسون في مجلة «ذي نيويركر» 21 أغسطس 2006م

نشوء قيادة الأوركسترا

لا يزيد عمر مهنة قيادة الأوركسترا على مئتي سنة. ففي الأصل، لم تكن الفرق الموسيقية كبيرة وتستحق أن يتفرغ أحد في مهنة مستقلة لقيادتها. في أوروبا القرون الوسطى، كانت الفرق الموسيقية محصورة في عدد من العازفين لا يتجاوز عدد أصابع اليدين في غالب الأمر. وأخذت الفرق تكبر عدداً، مع تطور آلات العزف الموسيقي ولا سيما أسرة الكمان، التي صارت تضم الكمان والفيولا والتشيلو (فيولونسيل) والكونترباص. وفي القرن الثامن عشر الميلادي، كان عازفو الكمان أو البيان القيثاري يتولون قيادة الفرقة الموسيقية، وهم يعزفون. أما في الأوبرا الفرنسية، فكان أحدهم، وهو في الغالب الملحن، يقف خلف الستارة في المسرح ويوجه الفرقة بصوت مسموع، أو بضرب رجله على خشبة المسرح لضبط الإيقاع. ومن المآسي التي يرويها تاريخ الموسيقى الأوروبية في هذا المجال أن الموسيقي الفرنسي جان باتيست لولي، مات بعدما انغرست في رجله خشبة من أخشاب المسرح، فيما كان يقود من خلف الستارة إحدى مقطوعاته. وقد توفي بعدما تفاقم التهاب جرحه.

وفي القرن التاسع عشر كفَّ قائد الأوركسترا عن إصدار أي صوت مباشرة، بل أخذ يلف ورقة في شكل لفافة طويلة ويقود بها، أو يقود بقوس كمان. ويدَّعي قائد الأوركسترا الألماني لودفيغ شبور أنه أول من استخدم سنة 1820م عصا القيادة. وبعد ذلك، حوَّل قادة الأوركسترا مهنتهم من مجرد منظمي إيقاع عزف الفرق إلى فنانين حقيقيين ذوي إسهام أساس في الأداء الموسيقي.

ولا يعرف كثير من الناس، أن بيتهوفن، الذي يرى فيه معظم النقاد الموسيقار الأول في الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية، مات سنة 1827م، فيما كانت مهنة قيادة الأوركسترا في بدايتها. وقد شهد بنفسه من يقود سمفونياته، في كهولته، وحاول أن يتولى القيادة في بعضها، على الرغم من صممه المتفاقم في سنواته الأخيرة. ويقال إنه وقف مرة إلى جانب القائد ليقودا معاً، وكانت الأوركسترا تلتزم عصا القائد، ولا تلتزم إشارات بيتهوفن، لأن سمعه ما عاد يتيح له أن يساير إيقاع العزف.

وكان فيليكس مندلسون موسيقياً كبيراً وشخصاً جذاباً في الوقت نفسه ولذا اشتهر على خشبة المسرح في قيادته أيما اشتهار. كذلك كسب هكتور برليوز وريتشارد فاغنر شهرة ومالاً من وقوفهما على منصة القيادة. واكتمل نضج مهنة قيادة الأوركسترا مثلما نعرفها اليوم، في ثمانينيات القرن التاسع عشر (نحو سنة 1880م)، إذ كتب الناقد إدوارد هانسليك يقول إن أفضل قادة الأوركسترا هم الذين يسيطرون على كل نبرة وتعبير موسيقي يصدره العازفون تحت قيادته.

الرشاقة والجمال

في النصف الأول من القرن العشرين، كان أشهر قادة الأوركسترا السمفونية فيلم منغلبرغ، وفيلهلم فورتفنغلر. وهما من أعظم القادة في التاريخ. بل إن فورتفنغلر كان يعد مفكراً، وتنم قيادته عن عمق فلسفي ووجداني واضح. لكن قيادة هذين الاثنين تبدو الآن أقل رشاقة وجمالاً من قيادة هربرت فون كاريان، الذي ينتمي إلى الجيل التالي من القادة الأوروبيين. فقد مات هذا الأخير سنة 1989م، وكان اسمه يتصدر الأسماء في النصف الثاني من القرن العشرين مع أرتورو توسكانيني وغيرهما.

كانت قيادة فون كارايان رشيقة وجميلة في حركة الجسم أيضاً، حتى شبهت حركته بحركة هر متسلل، من شدة رشاقتها وجمالها. وشارك ليوناردو بيرنشتاين في رسم صورة المايسترو المتألق الذي صار نجماً في ذاته، مع أنه لا يعزف ولا يغني. لكن في مقابل رشاقة فون كارايان وجمال حركته على المسرح كانت حركة بيرنشتاين تمتاز بالانضباط والوضوح. وكان نقاده يتهمونه بالرقص على المنصة.

حركات القيادة تعوِّض قلَّة التمارين

قبل سنة 1920م، كانت قائمة المعزوفات التي يتوقع مرتادو المسارح سماعها من الفرقة السمفونية محدودة. ولذا كان قادة الأوركسترا يطلبون من العازفين التمرُّن على هذه القطع عشرات المرات. ولكن بعدئذٍ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية، أخذ القادة يوسِّعون قائمة معزوفاتهم، حتى تعذَّر على العازفين أن يمكثوا على عاداتهم القديمة، وصاروا مضطرين إلى التمرن مرات أقل. وأسهم في تقليل عدد التمارين قبل الحفلات، أن الطائرة مكنت كثيراً من القادة أن يزوروا فرقاً ليست فرقهم، في بلدان أخرى. فكان القائد مثلاً يحضر إلى البلد المضيف أسبوعاً أو عشرة أيام فلا يتاح له سوى ثلاثة أيام أو أربعة للتمرين.

مع تعقّد التأليف السمفوني في القرن العشرين، ولا سيما في إدراج إيقاعات معقدّة في المؤلفات الحديثة، ابتكر قائد الأوركسترا بيار بوليز، مجموعة هائلة من حركات اليدين



Flickr

تيكونيفا.. أوبريت «العودة إلى الديار» بهونج كونج

للإعراب عن هذا الجديد في حركة الموسيقى. حتى أنه تمكن من إعطاء نوعين مختلفين من الإيقاع في آن، بكل يد إيقاع.

بعض الطعون في حداثتها

لكن النقاد لا يجمعون على أن هذا كان أمراً جيداً للموسيقى. ويقولون إن فورتفنغلر كان على العكس، يتعمد بعض الغموض، ليترك مجالاً للتعبير الإنساني. ويقول بعضهم إن القيادة الحديثة مثل ناطحات السحاب الزجاجية تثيرك في البداية لكنها تغضبك بعدئذ.

ومن قادة الأوركسترا المعاصرين الذين رفضوا الأسلوب الحديث الشديد الوضوح في القيادة، هناك كارلوس كلايبر. ويقول عنه قائد الأوركسترا روبرت سبانو، «إنه أشبه بمستمع مستمتع، منه بقائد أوركسترا. وهو لا يوضح الإيقاع على الدوام، لكنه قادر على مسك هذا الخط المدهش. إنه قائد مجيد».

دور النفس والمزاج

وعلى صعيد تفاعل قائد الأوركسترا مع العازفين والمعزوفة نفسياً ومزاجياً، نشير إلى أن الباحثة تيريزا مارين ناكرا المتخصصة في دراسة قادة الأوركسترا من الناحية النفسية والوجدانية، أحصت بالوسائل الطبية دقات قلب فون كارايان وهو يقود الافتتاحية الثانية «ليونورا» للودفيغ فون بيتهوفن. وفي منتصف الافتتاحية، حين تقترب المقطوعة من ذروتها الموسيقية الانفعالية، تبلغ دقات قلب فون كارايان 150 نبضة في الدقيقة، وهذا غير عادي أبداً لرجل كان آنذاك في الستين من العمر. وكان فون كارايان يحب قيادة الطائرات النفاثة. فاختبرته هذه الباحثة مرة وهو يقود الطائرة ويغوص بها نحو الأرض، ليعاود الصعود بها نحو الفضاء. لم يخفق قلبه للمغامرة الطائرة مثلما خفق لموسيقى بيتهوفن. وابتدعت ناكرا عصا رقمية، وسترة رقمية، واختبرتهما مع عدد من القادة، لترصد علاقة الحركة، حركة يد القائد وحركة جسمه بالموسيقى والتعبير الموسيقي. وخلصت دراستها إلى أن عظمة العرض الموسيقي الحي، هي أنك لا تستطيع أن تتكهن سلفاً بالانفعال الذي يحتمله.

> عظمة العرض الموسيقي الحي، هي أنك لا تستطيع أن تتكهن سلفاً بالانفعال الذي يحتمله

ويتفوق قائد الأوركسترا لورين مازل على غيره من القادة في أن النقاد كانوا يشتكون من أنهم لا يستطيعون أن يتوقعوا بأي مزاج سيقود هذه المقطوعة أو تلك، مع أنهم يعرفونها عن ظهر قلب. لكن أحداً منهم لم ينكر على مازل قدرته الفائقة على جعل الأوركسترا تؤدي التعبير الذي يريده. يقول مازل: «القيادة من الذاكرة أمر مهم جداً. أمامك مئة موسيقي، ولا بد من أن تعرفهم بالمشاهدة. في مرحلة ما، يكون على البوق الثاني أن يعزف جملة ما، لكنه لا يرفع بوقه استعداداً. إذا كان بصر القائد مركزاً على النوتة أمامه، فلن يشاهد هذا الأمر».

وذات مرة زار قائد الأوركسترا الفنلندي ميكو فرانك إحدى الفرق السمفونية الكبرى. وكان يمرِّن الفرقة على كونشيرتو كمان. وبعد عزف أجزاء من الكونشيرتو، سألته عازفة فلوت: بأية طريقة تريدني أن أعزف هذا المقطع؟ ثم عزفت المقطع بأسلوبين مختلفين، ليقول رأيه، فأشار إليها بالعزف بواحد منهما، فقالت له: غريب. لقد عزفته في التمرين بالأسلوب الآخر ولم أسمع ملاحظتك. فقال لها مبتسماً: نعم، لكن من الآن ستعزفيها كما قلت لك.

من طرائف الأوركسترا



Corbis

• يروى عن قائد أوركسترا، أنه كان كلما همَّ بإعطاء إشارة البدء لفرقته الموسيقية، أخرج ورقة صغيرة من جيب سترته ونظر فيها، قبل رفع عصاه، إيذاناً بالبدء. ولما سأله العازفون عما كتب في الورقة، رفض بشدة أن يقول وتكتم على الموضوع. فأخذ الشك والتكهن ينتشران بين الموسيقيين، وتنوعت الروايات، إلا أن أحداً لم يصل إلى نتيجة شافية. وذات يوم، سقط قائد الأوركسترا مغشياً عليه فيما كان يقود، فهجم الموسيقيون على الفور، وآخر همهم إسعافه، إذ سارعوا إلى إخراج الورقة الغامضة من جيب سترته، فقرأ أحدهم: «مجموعة الكمان إلى اليسار، ومجموعة الإيقاع إلى اليمين».

• في حقبة سابقة من القرن الماضي، حضر موسيقي عربي إلى بغداد، ليقدِّم بعضاً من مؤلفاته ويقود الفرقة السمفونية العراقية في عزفها.

وأراد هذا الموسيقي أن يبهر العازفين في الفرقة السمفونية، فبدَّل تدوين «نوطة» في إحدى المقطوعات، في كراس التدوين الذي يخص أحد العازفَين اللذين يعزفان على آلة الكلارينيت، ثم وضع علامة في كراس القيادة يستدل به على موضع هذا الخطأ المفتعل.

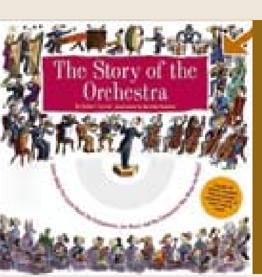
وفي يوم بدء التمارين أخذت الفرقة الموسيقية تعزف، وهو يقودها، إلى أن وصل إلى المكان المعلوم. حينئذ، ضرب بعصاه على كراسه طالباً وقف العزف، وقال بصوت مرتفع: «الكلارينيت الأولى، هنا النوطة: لا بيمول، وليست: لا بيكار مثلما عزفتها».

فوقف عازف الكلارينيت الثانية، وقال: «صحيح يا مايسترو، ولكن عازف الكلارينيت الأولى مريض اليوم، ولم يحضر للتمرين».

• يروى عن قائد أوركسترا سمفونية أنه كان في يوم يدرِّب فرقته فلاحظ أن عازف الكمان الأول، وهو أشبه بمساعد قائد، يبدي تشنجاً في وجهه كلما همَّ قائد الأوركسترا برفع عصاه للبداية. وظن القائد أن العازف مصاب بألم في بطنه، أو بانزعاج ما، فتوقف قليلاً. فلما انفرج وجه العازف، عاود القائدُ رفع عصاه، وعاد وجه العازف إلى التشنج. فلما تكرر الأمر سأل القائد عازف الكمان: «هل تشعر بألم ما؟». فردَّ عليه العازف: «لا أبداً، لكنني أكره الموسيقى منذ صغري».

اقرأ للموسيقى

«قصة الأوركسترا»



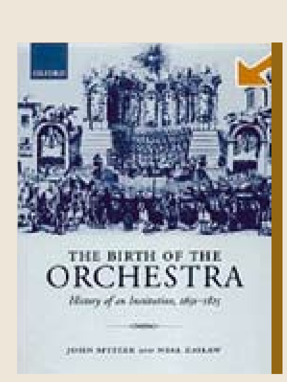
بقلم روبرت ت. ليفين، وميرديث هاميلتون. صدر الكتاب عن دار بلاك دوج آند ليفينثال عام 2001م.

يأخذ « قصة الأوركسترا» القارئ معه في رحلة موسيقية مبهجة. وقد قُسِّم الكتاب إلى جزأين. الجزء الأول عن الموسيقيين العظام أمثال فافيلدي وبيرنستين، والجزء الثاني عن أدوات وآلات الأوركسترا. ويحفل الكتاب بقصص مثيرة للاهتمام عن هؤلاء الموسيقيين، وموسيقاهم، بالإضافة إلى الأحداث التاريخية التي حدثت في حياتهم.

ويتضمن الكتاب أقوالاً مأثورة، وتعاريف في كادرات منفصلة، وصوراً ملونة بالإضافة إلى رسوم كارتونية تعزز وتدعم النصوص الواردة.

وبالإضافة إلى ذلك، يأتي مع الكتاب قرص مدمج يحتوي على مقطوعات موسيقية، يطلب إلى القارئ الاستماع إليها كأمثلة أثناء قراءة الكتاب. هذه المقطوعات قصيرة نوعاً ما، وذلك لأن الكتاب موجه إلى صغار السن، ممن تناسبهم المقطوعات القصيرة.

«ميلاد الأوركسترا»



يسرد هذا الكتاب للمؤلفَين جون سبيتزر ونيل زاسلو الصادر عن جامعة أوكسفرد للنشر عام 2005م، قصة الأوركسترا، من القرن السادس عشر عصر الفرق الوترية إلى الأوركسترا «الكلاسيكية» لهايدن، موزارت، وبيتهوفن.

كما يستعرض المؤلفان التنظيم الأوركسترالي، والتوزيع الموسيقي، والأدوار الاجتماعية، وتمرينات الأداء في أوروبا والمستعمرات الأمريكية، من حوالي عام 1800م، عام الوعي الذي انتشر حول مركزية الأوركسترا كمؤسسة في الحياة الأوروبية.

المشي..
الفعل البديهي الذي أصبح قضية

مابين الطفولة والشيخوخة، يبقى المشي فعلاً بديهياً قلما يثير الاهتمام بحد ذاته. ولكن هذه الوظيفة الأساسية هي على بساطتها الظاهرية أصبحت محور قضية بمجرد التفات العلم إليها. العلم الذي ما أن بدأ بدراسة هذا الفعل، حتى وجد نفسه أمام استنتاجات وقضايا يتقاطع فيها علم الأحياء والطب والتكنولوجيا ومتغيرات الحياة اليومية في العصر الحديث، كما يبين أمين نجيب هنا..



على الرغم من تنوع الإنجازات العلمية والذهنية والمادية التي ترسم معالم الحياة الحديثة، يجد العلماء أنها تشترك كلها في سمة أساسية وهي أنها ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بقدرة الإنسان على المشي وتؤثر عن عمد أو عن غير عمد، في هذا الفعل الذي كان الأول في صناعة التطور البشري منذ أقدم العصور وحتى اليوم.

مايقوله العلم

إن المشي هو مصدر غني بالاستعارات والمجازات. إنه يختصر التاريخ البشري بكل تلاوينه على صعيد الجنس ككل وعلى صعيد الفرد أيضاً بدءاً من تمكن الطفل من أن يخطو خطواته الأولى. ويقول الكاتب الفيتنامي تيش نهات هانه في كتاب بعنوان «الدليل إلى التأمل في المشي»: «إننا فقط عندما نواجه الموت، نتحقق من القيمة الغالية لخطواتنا على هذا الكوكب الأخضر».

في بدايات علم الأنتربولوجيا، أي علم تطور الإنسان ومعارفه وعاداته، كان التركيز منصباً على دور الدماغ كمحرك رئيس لهذا التطور. ولكن بدءاً من العام 1925م، أدت اكتشافات عالِم التشريح ريموند دارت إلى تسليط الضوء على الدور الذي لعبه مشي الإنسان في تطوره. وكثر العلماء الذين تبنوا المقولة بأن دور المشي كان أكبر من دور الدماغ، لا بل تطور المشي هو الذي أدى إلى تطور الدماغ.

المشي في عالم اليوم

لم يبالِ الإنسان بالمشي سابقاً، إلا عندما كان يفتقد القدرة على القيام به. أما في العصر الحديث فقد أصبح الاهتمام به يتصاعد مع بروز ظاهرتين مثيرتين للقلق. الظاهرة الأولى، وهي أن الإنسان أصبح قليل الحركة. فالكثير من الاختراعات يلغي دور المشي أو ينفي الحاجة إليه. ومنها على سبيل المثال ما يقوم أساساً على فكرة إلغاء المشي: الدرَّاجة، السيارة، القطار، الهاتف، البريد التقليدي والإكتروني، البسط الكهربائي المتحركة.. ومنها ما يؤدي إلى الحال نفسه من غير تعمد، مثل وعد «غوغل» بأننا سنتمتع قريباً بالسياحة أينما شئنا في العالم، ونحن أمام شاشة الكمبيوتر في منازلنا!!

وفي هذا الصدد يقول بعض العلماء إنه إذا كانت الحضارة البشرية قد بدأت بوقوفنا على قدمين وتحرير اليدين لوظائف جديدة، فإنها قد تنتهي بتراجع نوعية المشي التي نمارسها. وإذا كان الديناصور قد انقرض منذ حوالي 65 مليون سنة بسبب ضخامة جسمه وقوته الفائقة التي لم تعد تتلاءم مع الظروف التي استجدَّت حينذاك، فإن القوى الذهنية والعقلية عند الإنسان المعاصر على حساب عضلاته وبنيته الجسمانية بما فيها القدمان، سيتسبب حتماً ببروز بعض المشكلات المستقبلية.

أما الظاهرة الثانية فتتمثل في شيخوخة المجتمع، وتزايد أعداد المسنين العاجزين عن المشي. ففي مؤتمر «المؤسسة الأمريكية لمهندسي الكهرباء والإلكترونيات» الذي انعقد في مايو من العام الجاري في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا، تحدث العالم الياباني أتسوو تاكانيشي من جامعة «واسيدا» في اليابان، وقال في محاضرته: «إن المجتمع يشيخ بسرعة. وقد أصبح من الضروري جداً التخطيط لإنتاج إنسان آلي يستطيع المشي كما يستطيع الإنسان، لمساعدة المسنين على المشي». وأضاف مستنداً إلى إحصاء أجرته وزارة الصحة والعمل اليابانية: «إن في اليابان حوالي 3.5 مليون شخص لا يستطيعون المشي. ولن يجد هؤلاء سوى الروبوت لمساعدتهم».

المشي المستعصي على العلم

ولكن التطور العلمي والتكنولوجي الذي حقق إنجازات مذهلة في تعقيداتها وقدراتها، لا يزال عاجزاً عن صناعة هذا الإنسان الآلي الذي يستطيع أن يقلد تماماً مشي الإنسان في خفته ورشاقته واتزانه. لأن مشي الإنسان يتم من خلال آلية بالغة التعقيد وسرعة التنفيذ يشترك فيها الدماغ والنخاع الشوكي والعامود الفقري وعضلات الظهر والذراعان والعينان، إضافة إلى الساقين طبعاً، بكل ما فيها من عضلات ومفاصل.. وهذا ما يعجز العلم عن محاكاته آلياً حتى اليوم.

المشي لحياة أفضل

والحل؟ يتساءل البعض..
يكمن الحل بكل بساطة في الانتباه إلى أهمية المشي في الحياة اليومية فهو دواء لجسم الإنسان وذهنه أيضاً.

إننا نستعمل اليوم السيارة للانتقال إلى مسافات يمكننا المشي إليها. وقوة السيارة هي حوالي 20 حصاناً. إننا نهدر هذه الطاقة الكبيرة لينتعل الواحد منا مسافات محدودة ومعه مئات الكيلوغرامات من المعادن وغيرها ذهاباً وإياباً. ولهذا تأثير سلبي كبير على البيئة وعلى صحة الإنسان. فالسيارات هي الملوث الأكبر للبيئة. كما أن استعمال السيارة بديلاً عن المشي له مضار صحية كثيرة. كما أننا نستعمل أدمغتنا بديلاً عن المشي والحركة عند تسمرنا أمام شاشات الكمبيوتر والتلفزيون وغيرها. إزاء كل ذلك، أخذت الدراسات تراهن على العودة إلى المشي كسبيل لتغيير العالم من جديد وليس استعمال التكنولوجيات على أنواعها.

فعند المشي نستعيد الشعور الأول عندما مشينا كأطفال ونستعيد اكتشاف اللحظة الحميمة الأولى في حياتنا. وفي الطبيعة يستطيع نظرنا أن يجول في أفق متنوع وحر وغير مقيد بنافذة المركبة. فمشاهدة الأشياء على الأرض هي غيرها من هذه النافذة. وعند التصاق أقدامنا بالأرض والتراب والنباتات، نشعر بالعودة إلى البيئة الأولى التي عاشها الجنس البشري منذ ملايين السنين وليس الانتماء فقط إلى بعض سنين من عمر التكنولوجيا.

نستطيع مع المشي أن نقيم علاقة حميمة مع الإزهار والأشجار والعصافير والحيوانات التي لطالما شاطرناها الشمس والريح والعتمة وقوة الطبيعة المختلفة.

وكثيراً ما ترتبط مشاعرنا في لحظات مثيرة أو مهمة من حياتنا بالأماكن التي كنا نمشي فيها. بل يذهب بعض المفكرين إلى الاعتقاد بأن كافة الإبداعات الفنية والعلمية مرتبطة بتجوالنا في الطبيعة. وكان معروفاً عن الأديب شارلز ديكنز في القرن التاسع عشر أنه كان يمشي يومياً 20 ميلاً. وأحياناً كان يقوم باكراً ويمشي من لندن إلى سكنه خارجها.. وكان يردد دائماً «إذا لم أستطع يوماً أن أمشي بعيداً أو سريعاً، أعتقد أنني سأنفجر أو أزول». كما أن الأديب والفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو جمع مادة واحد من أهم كتبه خلال تجواله مشياً في حدائق باريس، وهو بعنوان «أحلام متنزه وحيد». والشيء العظيم في المشي أنه بسيط جداً. فما عليك إلا أن تقوم، تفتح الباب وتبدأ. أما فوائده الصحية والنفسية فتكاد توازي في أهميتها صيدلية كاملة.

صورة شخصية

قد يكون واحداً من آلاف الأوروبيين الذين جذبهم جانب من جوانب الثقافة العربية، ولكنه يختلف عن الكثيرين من هؤلاء في أن اهتمامه الثقافي العربي تجاوز حدود الاستشراف ليصبح شأناً يستحق أن يعاش العمر لأجله. إنه الفرنسي جان لامبير، الذي يعيش منذ نحو ربع قرن مع الغناء الصنعاني، حتى أصبح جزءاً من مسيرته وتاريخه.

عاشق صنعاء باحث فرنسي اسمه

جان لامبير



المحترف السعودي

في «سوق المِلْح» -بكسر الميم وتسكين اللام- الشهير ببيع التوابل، أحد أشهر الأسواق القديمة في صنعاء، قد تصادف الباحث الفرنسي: د. جان لامبير يعزف على عوده الصنعاني «الطربي» ذي الأوتار الأربعة أغنيات مثل: «صادت فؤادي» أو «رسولي قم» أو سواهما من الكلمات التراثية الأصيلة، ولكأنه يريد أن يقدِّم شاهداً زائداً على الشاهد العمراني يعيد إلى الأذهان التسمية القديمة لهذه السوق «المُلَح» -بضم الميم وفتح اللام- أي سوق كل مليح، كما ورد في كتاب الإكليل للمؤرخ محمد بن الحسن الهمداني.

من الدراسة إلى الأداء

في بداية الثمانينيات قَدِمَ الباحث الفرنسي الدكتور جان لامبير إلى صنعاء للتحضير لأطروحته لنيل درجة الدكتوراة في الموسيقى اليمنية. فكان ارتباطه العشقي بالغناء الصنعاني على خطين متوازيين: خط عام يركِّز على البحث والتوثيق، وخط خاص في التّدرب على الأداء. وقد أفلح في الثاني بعد جهدٍ ومثابرة، وكان هدفه كما يقول هو تحصيل السكينة، عندما تكتنفه آلام الحياة، وتناله قسوتها. وهو في خطه الخاص هذا لا يدعي احترافاً بل يمارس ارتباطه الوجداني بهذا الفن، وقد يشرك فيه آخرون في سوق صنعاء أو في الاجتماع الشهري الذي يعقده صديقه الفنان اليمني يحيى النونو ويدعو إليه عشاقَ الفن والأدب اليمنيين منهم والأجانب.

التقنية والتراث ..

أثمرت سنوات من البحث والتوثيق لعيون الموشحات والأغنيات والإنشاد الديني، عن إنشاء المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية، وتولى الباحث الدكتور لامبير رئاسته منذ العام 2003م، ليحرص على أن تسهم في التوثيق التقنية العالية من أسطوانات وألبومات وأشرطة فيديو وأقراص مدمجة (CD) مستضيفاً جمعاً من المغنيين الصنعانيين في باريس لهذا الغرض. فضلاً عن الكتب والمطبوعات.

ويتعاون المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية في اليمن مع معهد الموسيقى اليمني، بدعم من منظمة اليونسكو الدولية، ليجمع الجهود الفردية عبر السنين الفائتة، لتكوين قاعدة بحثية تقنية تمكن الباحثين والفنانين والمهتمين من اليمن وخارجها من الرجوع إلى هذا الفن اليمني شعراً ولحناً بيسرٍ وسهولة.

وهذا المشروع، من وجهة نظر لامبير، ليس مهماً لليمن فحسب، بل للعالم لأن اليمن ذا تراث غني جداً في مختلف الفنون الغنائية والفولكلور الشعبي المتنوع. ولذ أصبح لامبير في مرحلة لاحقة مهتماً بنشر التراث الغنائي اليمني في أوروبا والعالم. وفي هذا السياق جاء إعلان المنظمة الدولية للتربية والتعليم والثقافة «اليونسكو» رسمياً تسمية الأغنية الصنعانية ضمن التراث الإنساني الشفهي العالمي وغير الملموس. وقد أتى هذا الإعلان في إطار المحافظة على التراث غير المادي عبر العالم أجمع، وحمايته من التهديدات التي يواجهها في ظل أساليب العيش المعاصرة، ومسيرة العولمة، كما يقول كويشيرو ماتسورا مدير عام اليونسكو.

الطربي.. أوتار يمنية ..

يرى لامبير أن للغناء الصنعاني أبجديته الخاصة التي ينفرد بها، ومن أهمها مميزات تقنية إيقاعية وجمالية إضافة إلى تميز شعره الوجداني الرقيق فضلاً عن العود اليمني الذي يطلق عليه محلياً «الطربي» أو «القنبوس». ويتكون من أربعة أوتار وبطن، وذراع مغطاة بجلد الماعز، وهو مرصع بالنحاس، وتوجد في أعلى ذراع العود مرآة كي يطمئن الفنان إلى هندامه. ويتحدث لامبير عن تأثره بالفنان اليمني الراحل قاسم الأخفش، وهو أكثر من اشتهر بالعزف على «الطربي»، وبات لامبير لا يعزف الألحان إلا بشبيه عوده. ويتحدث عن تميّز اللون الصنعاني، قائلاً إنه ليس هناك ما ينافسه من الألوان اليمنية الأخرى سوى اللون اللحجي، نسبة إلى لحج وهي مدينة قرب عدن جنوب اليمن. وقد كان هذا الشغف بالغناء الصنعاني هو طريق لامبير لعلاقات إنسانية يتحدث عنها باعتزاز، وتحليلات اجتماعية ضمنها كتابه «طب النفوس».

يتحدث لامبير عن علاقته الإنسانية الوطيدة بالفنان اليمني يحيى النونو، الذي تعرف إليه أثناء بحثه عن العود «الطربي»، ليدرك بعد ذلك أن معرفته به أهم بكثير من شراء العود كما يقول، فالنونو صاحب تعليقات قيِّمة على الغناء الصنعاني لكبار الفنانين كصالح العنتري وعلي باشراحيل، وهي تتضمن ملاحظات دقيقة على كل نبرة صوت أو هزة عود، ولكأنه يلقي محاضرة في السوربون.

طب النفوس..
بين الموسيقى والاجتماع

ألَّف لامبير كتاباً بعنوان: «طب النفوس: فن الغناء الصنعاني» ضمن إصدارات الهيئة اليمنية للكتاب، وترجمه إلى العربية المؤرخ اليمني الدكتور علي محمد زيد، ويتحدث هذا الكتاب عن واقع الحركة الفنية في المجتمع اليمني، ويكاد يكون هذا الحديث هو الموضوع الرئيس في الكتاب رغم ثرائه بالمعلومات حول الأغنية الصنعانية، والتوثيق لبعض مراحلها، وحكاية تجربته معها.

واختيار عنوان الكتاب لم يكن منفصلاً عن ثقافة المجتمع الذي يتحدث عنه المؤلف. ففي صنعاء يطلق على الجلسة الموسيقية اليومية بعد الظهيرة: طب النفوس أو دواء الروح، إذ يتسم مقيل الظهيرة بالشجن والغناء العاطفي الرقيق. فالهدف المعلن كما يقول لامبير هو: رعاية موج النفس، وتدفق الروح، لذلك يمكن المراهنة على أن الموسيقى تساعد الإنسان عبر هذه العلاقة، على معرفة مكانه في العالم، وتمنح لوجوده معنىً.

تشكل روايات العنف والرعب والأفلام السينمائية طائفة شبه مستقلة في سياق النتاج الروائي والسينمائي العام. والأسئلة التي تثيرها هذه الأعمال الروائية والسينمائية هي أكثر عدداً وتشعباً من أن يحيط بها بحث واحد. ما هو أصلها؟ ولماذا تجد مثل هذا النجاح الذي يضمن لها تغذية نفسها بمزيد من الإنتاجات الهادفة إلى بث الرعب في النفوس؟

في هذا البحث يتوقف الدكتور أمين علوي صوصي* أمام استعراض مسيرة أدب الرعب منذ نشأته وحتى وصوله إلى شاشات السينما الأمريكية، مبيناً التحولات التي طرأت عليه وتلازمها مع تحوّل المعطيات الاجتماعية والثقافية جغرافياً من أوروبا إلى أمريكا، وزمنياً من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين.

رحلة الرعب

من القارة القديمة.. إلى هوليود

* أستاذ الإعلام والأيديولوجيا في معهد (EMCA) الفرنسي



لعل ما يشد الناظر إلى تاريخ الأدب الغربي تعلقه بالعصور الوسطى واجتراره لهذا الماضي إما استقراءً أو نقداً أو تمجيداً، فتارة بالتصريح وتارة بالتلميح. وظل هذا التاريخ محوراً رئيساً في فهم الغربيين للواقع وحكمهم على المجهول. فاختلاف النتاج الأدبي وارتباطه بالمتغير الظرفي لم يؤثر على هذا المعطى بل ذكّاه وبرره.

فلم يمنع الانتقال من العصور الوسطى إلى ما يسمونه بعصر «التنوير» هذا الموروث، ولم تمحه صدمة الثورة الفرنسية وما حملته من تمرد عنيف على الماضي ورموزه، بل كانت عاملاً قوياً يعيد إلى الأذهان -ببشاعة الجرائم التي ارتكبها الثوار- ظلام الأمس والرعب الذي خلفه في العقلية الشعبية. فذاكرة الشعوب الغربية مليئة بالقصص الدموية والشخصيات المفزعة التي تطل كلما استشرفت الأزمات وتملكها الخوف.



البشاعة بين الرومانسية والأدب القوطي

نقل عن الروائي الفرنسي فيكتور هوجو، أحد أقطاب الأدب الرومانسي في القرن التاسع عشر، أنه توقف أمام برج كاتيدرائية «نوتردام دو باري» مستغرباً عبارة «قدر حتمي» كتبت بأحرف يونانية محفورة بعنف. فراح يقرأ وينقب في تاريخ باريس القرون الوسطى عن سر العبارة. ماذا تعني؟ من كتبها؟ لماذا كتبت؟!

انطلق هوجو يسرد في روايته المعروفة باسم «أحدب نوتردام» تاريخاً لم تأت على بقاياه الثورة الفرنسية. فجدران الكاتدرائية التي اختفت ألوانها مع الزمن تنطق بظلمة الماضي وتجعل الأشكال والمنحوتات المخيفة التي يعج بها المكان وكأنها تخرج من كابوس مرعب. ولم تفلت شخصيات الرواية من مأساوية المصير بل كلها تنطق بتمرد الكاتب الرومانسي هوجو على كل ما هو كلاسيكي، جاعلاً بذلك كازيمودو قبيح المظهر رمزاً للنبل، ومجرداً القس فرولو من الإنسانية بأسلوب تصويري يمزج بين دقة الوصف ومبالغة في التعبير تذكر برسومات جويا المخيفة وعنف لوحات دولاكروا.


Google image



ترجع كلمة قوطي إلى شعب القوط الجرماني الذي عاش في دول شمال أوروبا وخاض حروباً ضارية مع الرومان خلفت عنه تصوراً بشعاً في الذاكرة الغربية امتد إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية. بقيت كلمة قوطي إلى يومنا هذا مرادفة لكل ما هو «بربري» واستعملت في عصر «النهضة» لازدراء ما سبقها وكان مخالفاً للتراث الإغريقي الروماني الذي شكل الهوية الغربية. كما التصقت بالطابع المعماري الذي انتشر غرب أوروبا في نهاية القرون الوسطى وانعكست على جيل من روايات القرن الثامن عشر المطبوعة بالغموض والكآبة.


Flickr

لم تتفرد رواية نوتردام دو باري بطابعها السوداوي عن باقي مؤلفات فكتور هوجو. ولم يكن هوجو نفسه الوحيد في التيار الرومانسي الذي جعل من الكوابيس مجالاً للتعبير. فقد سبقه لامارتين وستاندال وجوتيه والقائمة تطول، لكن ما ميَّز هذا التيار هو تأثره بالأحداث السياسية وتمرده على مؤسسات الماضي، رافضاً بذلك الخضوع للرغبة العقلية المتجردة، معظماً للخيال، حتى قال عنه الشاعر الفرنسي بول فاليري: «لا بد أن يكون المرء غير متزن العقل إذا حاول تعريف الرومانسية».

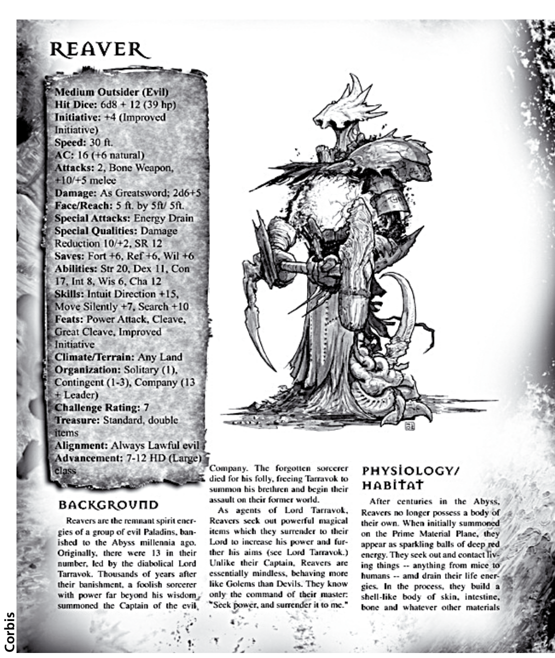
لم ينل أدب الرعب انتشاراً وشهرة واسعة إلا بظهور ما يعرف بـ «الرواية القوطية»، وهو جنس أدبي يرجع الباحثون بداياته إلى رواية «قلعة أوترنتو» للكاتب والسياسي الإنجليزي هورس والبول (1764م) الذي نقل حكاية الرعب الشعبية من التراث الشفهي إلى الرواية.

إن ظهور رواية والبول مباشرة بعد حرب السنوات السبع التي دارت في شمال أمريكا بين فرنسا وبريطانيا (1756-1763م) وحصدت أكثر من مائة ألف قتيل، حمَّلها أبعاداً سوداوية ورموزاً أقل ما يقال فيها إنها مزيج من القلق والخوف، فأصبح غموض الموت مادة للخيال وزاحم فيها الأموات الأحياء. ويبدو أن ذلك تعمق أكثر فأكثر بعدما أبعدت مقابر إنجلترا خلف أسوار المدن، فتحولت مقابر الكنيسة "churchyard" إلى ما عرف باسم "graveyard" أو ساحة القبور. فلم تحجب الأسوار الموت عن خيال الأدباء كما حجبته عن أبصارهم، بل ظهر جيل جديد من الروائيين متأثرين ببقايا التيار الرومانسي، جاعلين من أديرة وقلاع القرون الوسطى المهجورة والقرى المنعزلة، مسرحاً للأحداث.

تجاوزت رواية الرعب على يد الروائية ماري شيلي التعبير عن الخوف الذاتي إلى تشخيص الحالة المرضية للواقع

سجل عام (1764م)حدثين بارزين في تاريخ أدب الرعب، إذ اقترن فيها صدور «قلعة أوترنتو» بولادة الروائية الإنجليزية آن رادكليف التي ذاع صيتها بين نساء الطبقة الأرستقراطية، وتأثر بها من تأثر من الكتّاب مثل سير والتر سكوت والفيلسوفة ميري والستون كرافت والدة الروائية الشهيرة ماري شيلي.

وبالرغم من الأخطاء التاريخية التي تضمنتها روايات رادكليف وافتقادها لعنصر المفاجأة إلا أنها أسست لشكل جديد من السرد أكسبها الشهرة لدى جمهورها الأرستقراطي النسوي. في روايتها الشهيرة «قلعة أثلن ودان باين» (1789م) نجد خلاصة المفاهيم والرموز التي شكّلت بعد ذلك عصب روايات الرعب. فصورة البارون الغامض الذي جعل من القلعة القديمة مكاناً للتربص بالفتيات،


REAVER

Medium Outsider (Evil)
Hit Dice: 6d8 + 12 (39 hp)
Initiative: +4 (Improved Initiative)
Speed: 30 ft.
AC: 16 (+6 natural)
Attacks: 2, Bone Weapon, +10/+5 melee
Damage: As Greatsword; 2d6+5
Face/Reach: 5 ft. by 5ft/ 5ft.
Special Attacks: Energy Drain
Special Qualities: Damage Reduction 10/+2, SR 12
Saves: Fort +6, Ref +6, Wil +6
Abilities: Str 20, Dex 11, Con 17, Int 8, Wis 6, Cha 12
Skills: Intuit Direction +15, Move Silently +7, Search +10
Feats: Power Attack, Cleave, Great Cleave, Improved Initiative
Climate/Terrain: Any Land
Organization: Solitary (1), Contingent (1-3), Company (13 + Leader)
Challenge Rating: 7
Treasure: Standard, double items
Alignment: Always Lawful evil
Advancement: 7-12 HD (Large) class

BACKGROUND

Reavers are the remnant spirit energies of a group of evil Paladins, banished to the Abyss millennia ago. Originally, there were 13 in their number, led by the diabolical Lord Tarravok. Thousands of years after their banishment, a foolish sorcerer with power far beyond his wisdom summoned the Captain of the evil Company. The forgotten sorcerer died for his folly, freeing Tarravok to summon his brethren and begin their assault on their former world.

As agents of Lord Tarravok, Reavers seek out powerful magical items which they surrender to their Lord to increase his power and further his aims (see Lord Tarravok.) Unlike their Captain, Reavers are essentially mindless, behaving more like Golems than Devils. They know only the command of their master: "Seek power, and surrender it to me."

PHYSIOLOGY/ HABITAT

After centuries in the Abyss, Reavers no longer possess a body of their own. When initially summoned on the Prime Material Plane, they appear as sparkling balls of deep red energy. They seek out and contact living things -- anything from mice to humans -- amd drain their life energies. In the process, they build a shell-like body of skin, intestine, bone and whatever other materials

Corbis

أعطت الإطار الأساس لاستشعار الخوف، وأجملت رؤيتها لجدلية الصراع بين الخير والشر.

بحلول القرن التاسع عشر ظهر على رواية الرعب تغيّر ملحوظ من جرَّاء التحول السريع الذي أحدثته الثورة الصناعية في المجتمع الغربي، وردود الأفعال العنيفة التي صاحبته، فلم تكن حركة «اللوديتيز» التي واجهت أرباب المصانع بتدمير آلات النسيج، التعبير الوحيد عن الخوف من الآلة البخارية، «الوحش» الذي هدد مستقبل العمال وأسرهم.

اتخذ كتّاب هذه الفترة من الصناعة طرحاً فلسفياً يخرج كوابيس الطبقات الكادحة إلى العلن من خلال تساؤلات

الهندسة القوطية.. متهمة

حول علاقة الأخلاق بالتطور التقني. ففي رواية «آخر البشر» يصف الكاتب جون باتيست كزافيي الدمار المتوقع أن تلحقه «بربرية» الصناعة بالبشرية، ناقلاً بذاك الرواية القوطية التي كانت رهينة أشباح الماضي إلى إسقاطات مستقبلية مؤسساً لما عرف لاحقاً باسم الخيال العلمي. تطورت هذه التركيبة الجديدة لتصبح نوعاً أدبياً متكاملاً على يد الروائية البريطانية ماري شيلي التي ضمنت روايتها الشهيرة «فرانكشتاين» (1818م) تحليلاً لظاهرة الغرور العلمي السائدة آنذاك. تحكي هذه الرواية حياة عالم يفقد السيطرة على آلته الشبيهة بوحش بشري. وتعاملت شيلي مع شخصيات الرواية بشكل مركَّب خلافاً للسطحية المعتادة في روايات الرعب، فرمزية الشخصيات وتعمد اختيار الأماكن تبعاً للتسلسل المنطقي للأحداث أكسبها عمقاً معرفياً، تجاوزت به الاكتفاء بالتعبير عن خوف ذاتي إلى تشخيص الحالة المرضية للواقع. والجدير بالذكر أن بروز الخيال العلمي في هذه الحقبة وتداخله مع أدب الرعب لم يفقد الرواية القوطية حيويتها، ولم يفرغها من بنيتها التقليدية التي استمرت إلى حدود القرن العشرين في روايات الفنتاستيك الأمريكية لدى الكاتبينلوف كرافت وستيفان كينغ.

استغنى هيتشكوك عن الوحوش المخيفة ونقل الفرد الطبيعي في المجتمع إلى قاتل أو ضحية

بعد موت الروائي الأمريكي إدجار آلان بو عام 1849م أصبحت قصص الفضائع القصيرة وأشعاره السوداء منجماً لا ينضب لتيار «الفنتاستيك» الذي أُعلن عن نشأته في منتصف القرن التاسع عشر. أسس رواد هذا التيار بنية جديدة في الكتابة، مستلهمين أسلوب الفرنسي جاك كازوت Jacques Cazotte المتردد بين العقل والخيال، وقاموا ببعث الخرافات والأساطير الشعبية المليئة بحكايات الوحوش المخيفة ومصاصي الدماء كعناصر جديدة أضحت عنواناً لهذا الجنس الأدبي. كما أسهمت الأحداث المريبة والجرائم البشعة التي انتشرت آنذاك في تشكيل ملامح الشخصية المرعبة، وتحديد سلوكها. فسادية «جاك باقر البطون» مثلاً وجرائمه التي قضَّت مضاجع البريطانيين انعكست بشكل واضح على رواية «دراكولا» (1897م) للبريطاني برام ستوكر الذي عبَّر عن محيطه بدقة ونقل تفاصيل مهمة عن معتقدات عصره.

روايات الرعب الأوروبية وصناعة الأفلام

وافق ظهور روايات «الفنتاستيك» اختراع الأخوين لوميير لآلة السينماتوغراف التي أحدثت ثورة بصرية غيَّرت مجرى الأمور، ومكَّنت الأدباء والفنانين من تخطي الحواجز التقنية والتعقيدات الاجتماعية للوصول إلى الجمهور.

في الوقت الذي كان فيه الأخوان لوميير منشغلين بنقل صور وثائقية من كل أنحاء الأرض لإشباع فضول الأوروبيين، أثارت آلتهم الغريبة عام 1896م انتباه الرسام الفرنسي جورج ميلييس الذي اهتم بسحر الحركة وانكب على إخراج قصص خيالية هزلية مستمدة من الفنتاستيك، أعطت نواة ما يعرف بسينما الفرجة.

تأثر ميلييس وأثر في عصره، وتحولت أحلامه المتحركة التي لاقت إعجاباً في كل أوروبا إلى ركام أتلف بعضه وبيع الآخر إثر الأزمات المالية المتراكمة بسبب الحرب التي استنزفت كل القطاعات وفرضت مواضيعها الجادة.

بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، تحولت السينما من مجرد أداة للتسلية إلى فن مركب عكست فيه «الحركة التعبيرية» التناقضات النفسية، التي خلفها الدمار، بأسلوب تشكيلي متميز. ففيلم مصاص الدماء «نوسفيراتو» (1922م) للمخرج مورنو لم يكن سوى إحياءً لقصة دراكولا التي أعلنت دخول شخصيات مقتطفة من صفحات أدب الفنتاستيك.

اشتركت سينما الفنتاستيك في الرحلة التي خاضتها روايات الرعب إلى القارة الجديدة هروباً من واقع أوروبا الأسود. لكن وخلال أقل من سنوات عشر، واجهت الولايات المتحدة الأمريكية أكبر أزمة اقتصادية في تاريخها جرَّاء انهيار بورصة وولستريت عام 1929م، فدفعت الأوضاع المزرية كالفقر والبطالة والإحباط بقطاعات عريضة من الأمريكيين إلى السينما التي تفردت بالتعبير عن كوابيسهم. بعد النجاح الشعبي الذي لاقته شخصيتا «دراكولا» و«فرانكشتاين» بإنتاج من شركة يونيفرسال (1931م) أصبحت أفلام الرعب صناعة تحقق أرباحاً كبيرة مكنتها من الانتشار والتنوع. «المومياءات» (1932م)، «الدكتور جيكل ومستر هايد» و«كينغ كونغ» كلها أفلام حفرت في الذاكرة الجماعية كرموز لم تستطع الثورة الرقمية المعاصرة التخلص من بقاياها.

بنهاية الحرب العالمية الثانية تغير وجه العالم وتغيرت معه المخاوف، فانتعاش الاقتصاد الأمريكي أسهم في تراجع الوحوش التقليدية مقابل كائنات تخرج من رحم الحرب الباردة بأشكال تجسِّد إلى حد ما هواجس القنبلة الذرية. وأخرجت



الذئب والإنسان المستذئب.. بين الإنسان والحيوان

إذا كان العنف الذي تولَّد عن الحروب والأمراض الاجتماعية المنتشرة في الغرب قد استأثر بصناعة الرعب، فإن شخصية المريض نفسياً شكَّلت عمودها الفقري

أستوديوهات هوليود أطباقها الطائرة التي تحمل غزاة من خارج كوكب الأرض كرد فعل لحمى غزو الفضاء.

في هذه الحقبة ظهر المخرج البريطاني ألفرد هيتشكوك بكتابة سينمائية جديدة استغنت عن الوحوش المخيفة ليحل محلها عنصر الخوف النفسي. ولخصت أفلامه نظرته السوداء للحياة، حيث ينتقل الفرد الطبيعي داخل المجتمع إلى قاتل أو ضحية. وأسهم أسلوب هيتشكوك المحسوب على سينما الإثارة في تطور فيلم الرعب، فغياب الدم واعتماد التلميح لا التصريح في فيلم «Psychose» حوَّل مشهد القتل داخل الحمام إلى أحد أشهر المشاهد في تاريخ الفن السابع.

يحكي ألفرد هيتشكوك قصة MacGuffin التي ميزت أفلامه قائلاً: التقى راكبين في قطار بإنجلترا. قال أحدهما للآخر: «عفواً سيدي، لكن ما هذا الصندوق الغريب الموجود فوق رأسك؟ - آه إنه MacGuffin. - ما فائدته؟ - يستعمل لصيد الأسود في جبال سكتلاندا. - لكن لا توجد أسود في جبال سكتلاندا. - إذن لا يوجد MacGuffin».
استعمل هيتشكوك كثيراً هذه القصة للسخرية ممن يفرض تفسيراً وتناغماً تاماً لكل عناصر الفيلم.
ماكان يهمه هو خداع المشاهد، وجعله يشعر بنفس الخوف الذي يشعر به أبطال الفيلم.
فتحول MacGuffin إلى نقطة انطلاق للأحداث يغني عن البحث عن تفسير عقلي لوجوده لتحل الفرجة محل استنساخ الواقع.

سينما الدماء

إذا كانت خمسينيات القرن العشرين قد لمَّحت للخوف من الخطر الشيوعي بأفلام مثل «شيء من عالم آخر» و«غزو نابشي القبور» فإن مرحلة الستينيات والسبعينيات التي صبغت بدماء حرب الفيتنام أخرجت نوعاً عنيفاً من الأفلام تحت اسم سينما الفضائع «gore».

يعرِّف المعجم الإنجليزي مصطلح «gore» بأنه الدم المسفوك. أخذ هذا اللفظ معناه في سينما تستغل أكثر الغرائز البشرية بشاعة كالسادية، والمازوشية. وخلافاً


هيتشكوك.. سيد أفلام التشويق


Xchange

.. حتى الطفولة تصبح مرعبة

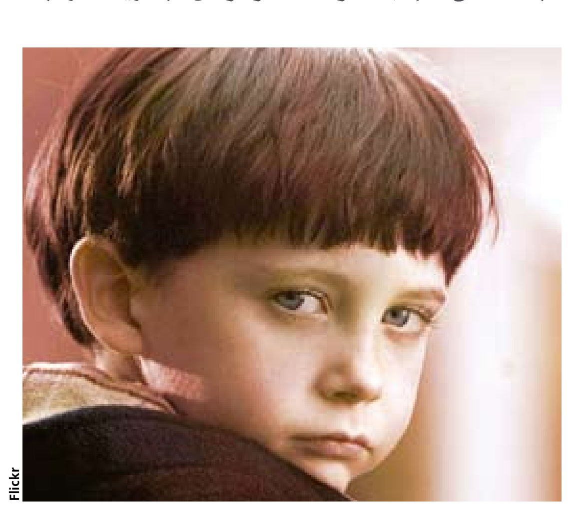
لأعمال ألفرد هيتشكوك، تعمد هذه الأفلام إلى الغلو في تصوير الجريمة بأدق تفاصيلها وتأخذ الكاميرا مكان العين التي تتمتع بالنظر إلى الجثث لإحداث خليط من الأحاسيس يتجاوز الخوف ليصل إلى حد الاشمئزاز والضحك!.

إن تعاقب أفلام مثل «ليلة الأحياء الموتى» (1968م) لجورج أ. روميرو، «طارد الأرواح الشريرة» لويليام فريدكين (1973م)، «هلوويين» (1978م) لجون كربنتر، ونجاحها الجماهيري فتح الباب على مصراعيه لعدد هائل من الأفلام اعتمدتها كمراجع وحولت مواضيع آكلي لحوم البشر والأرواح الشريرة والسيكوباتي إلى تقليد في سينما الفضائع.

إذا كان العنف الذي تولَّد عن الحروب والأمراض الاجتماعية المنتشرة في الغرب قد استأثر بصناعة أفلام الرعب فإن شخصية المريض نفسياً المخيفة شكَّلت عمودها الفقري. في فيلم «كابوس في إلم ستريت» (1984م) وجهت كاميرا المخرج ويزكرافن الانتباه نحو مشاهد الدماء وانتزع القاتل المشوه فريدي كروجر دور البطولة من ضحاياه.

ارتبطت شخصية السايكوباتي والقاتل المتسلسل في علم النفس بالسادية والعنف والجنوح وأوصاف عدوانية أخرى تبرز في تلذذه بتعذيب الضحية، وانعدام الإحساس بالندم على ما يقوم به من أعمال. البشاعة والمنهجية المقززة التي تميِّز هذا النوع من المجرمين تولِّد لديهم شعوراً بالتفوق على الآخرين وتجريدهم من بشريتهم. وتوجد هذه الجرائم المتسلسلة في كل القارات لكن بنسب مختلفة تبقى الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في طليعة المجتمعات الأكثر عرضة لهذه الظاهرة. ورغم تشكيلها 5% من سكان العالم أحصت أمريكا حوالي 80% من القتلة المتسلسلين الذين عرفهم القرن العشرون.

عملت شركات الإنتاج السينمائية الضخمة على استغلال الربح الذي تدره أفلام القتل المستوحاة من أحداث واقعية متجاهلة الآثار السلبية التي تخلفها من جرَّاء تبسيط صورة الجريمة إلى حد يبرئ المجتمع من مسؤولياته بدلاً من البحث عن أسباب ظهور هذه الوحوش البشرية المرعبة.


Flickr

ازدواجية البراءة والشر.. والخوف من نتيجة صراعهما


Xchange

بيت الرعب في أميتيفيل.. ثلاث مرات على الشاشة

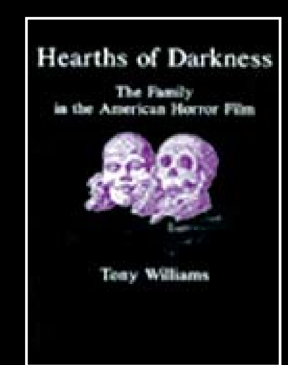
وزاد الأمر تعقيداً بإنتاجات ترسِّخ ازدواجية النظرة بين الرفض والإعجاب لشخصية القاتل السايكوباتي في أفلام مثل «صمت الحملان» الذي جعل من هانيبال ليكتر مجرماً عبقرياً يتحكم في مجريات الأحداث.

لم تكتفِ شخصية القاتل المتسلسل الدموية بحضورها المتكرر في أفلام الفضائع ولم تقف بشاعة المشاهد عند حدود التصورات التي حددتها سيناريوهات السبعينيات والثمانينيات كرمز لموجة عابرة بل فرضت نفسها على السينما بكل أنواعها فانتقلت العدوى من فيلم «سبعة» البوليسي للمخرج دافيد فينشر إلى الأفلام المقتبسة من روايات ستيفان كينغ وآن رايس المحسوبة على تيار الفنتاستيك.

وهكذا انتقلت ثقافة الرعب عبر أفلام هوليود العنيفة حيث لا مكان للأخلاق، إلى مادة يسهل تصديرها بشكل سريع خصوصاً مع تطور خلايا التوزيع التي تمتلكها مؤسسات كبيرة، وانعدام الرقابة. وأصبح جمهورها المكون أساساً من فئة المراهقين محاصراً بصور تختفي فيها الحدود بين الخيال والواقع.

اقرأ عن أفلام الرعب

موقد الظلمة:
الأسرة في فيلم الرعب الأمريكي


Hearths of Darkness
The Family in the American Horror Film
Tony Williams

يتتبع كتاب «موقد الظلمة: الأسرة في فيلم الرعب الأمريكي» للمؤلف طوني وليام، تطور ما يسمى بأفلام الرعب العائلية الأمريكية من الثلاثينيات إلى أوائل التسعينيات. ويقول البروفيسور وليام إن الرعب السينمائي يعتدي على مثالية الأسرة في المنظور الأمريكي عمداً، عبر إخضاعها لاعتداءات وحشية تقوم بها قوى فوق طبيعية، وفي نفس الوقت تمكينها من القيام بهذه الاعتداءات ذاتها تجاه فرد من أفرادها أو تجاه الآخرين.
بدأ الكاتب بتحليل دورة أفلام الرعب العالمية في فترة الثلاثينيات التي اشتملت على أهم الأفلام مثل فيلم دراكولا. ثم انتقل وليام إلى فترة الأربعينيات حيث أفلام الرعب الكلاسيكية مثل فيلم الأناس القطط. وقد لاحظ تأثير الحرب العالمية الثانية الذي نتج عنه اتجاه قوي في السينما لاستكشاف الجانب المظلم من الشخصية الأمريكية. أما في فترة الخمسينيات فقد كانت أفلام الرعب تشير بأصابع الاتهام إلى الوحدة العائلية كأصل المسخ وبالتالي أصل الرعب. ويشير الكاتب إلى أن أفلام الرعب في فترة السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات كان يسودها إحساس بأن العالم يعيش «أيامه الأخيرة»، وبالتالي أي أسباب منطقية للرعب، اجتماعية كانت أو مادية، تراجعت إلى الخلف ليحتل مكانها العنف غير المبرر في هذه الأفلام.
عموماً، يعرض الكاتب في «موقد الظلمة» مجموعة مختلفة من أفلام الرعب التي يتمتع القارئ بالقراءة عنها، كما يتناول العديد من الأفلام التي أهملت بشكل غير مفهوم من قبل الخبراء الآخرين في نفس الحقل. وما يجعل الكتاب أكثر قيمة، إلقائه الضوء على دراسات واسعة عن أفلام الرعب من قبل أهم الكتّاب مثل نويل كارول، مذهب باربرة، وبرسيم كارول، الذين اهتموا بنوعية الأفلام من الرعب السينمائية، كما يقدِّم الكتاب أطروحة ساحرة لبعض الاقتراحات الرائعة للمشاهدات السينمائية الأخرى.



الأسد في الطبيعة مجرد مخلوق يستخدم قوته الكبيرة في تأمين غذائه وسلامته من الضواري الأخرى. لكن الشعر جعل الأسد في الذهن صورة للسمو والعظمة، ورمزاً للبطش والتسلط، وعنواناً للسيطرة. الدكتور فواز أحمد طوقان* يتناول هنا بعض الصور المختلفة لعلاقة شعراء الأمس بملك الغاب، متوقفاً بشكل خاص أمام البحتري.

البحتري في وصف منازلة الأسد

أسد بشر بن عوانة

عندما اقتحم بشر بن عوانة العبديّ الآجام طلباً لمَهر يقدمه لابنة عمه، استغلّ دافعه الوحيد هذا ليقف بتحدٍّ وجهاً لوجه أمام الأسد ويصدّه ويثنيه عن خَوْض المعركة الفاصلة:

نصحتُك، فالتمس يا لَيْثُ غيري
طعاماً، إنّ لحمي كان مُرّا
وأنتَ تروم للأشبال قُوتاً،
وأطلبُ لابنةِ الأعمام مَهْرا

فكلاهما بطل اللقاء الباسل المجرَّب، ولكن أيّهما له النصر؟! هُوَذا الشاعر البطل يخطّ بدم الأسد قصيدته الملحمية، ويرسلها إلى ابنة عمّه. آخر أبياتها تبريرٌ وتعزية للأسد على «هزيمته»:

فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حُرّاً
يُحاذِرُ أن يُعابَ، فمِتَّ حُرّا

نلاحظ هنا عناية الشاعر الفائقة في المحافظة على هيبة الأسد، وتقوية رمزه كسيّد مملكة الحيوان. ففي ختام القصيدة، وجّه الشاعر كلامه إلى خصمه -أي البطل الضحية وكأنه يخاطب بطلاً لم يهزمه الشاعر-

* أستاذ الأدب والحضارة الإسلامية في الجامعة الأمريكية ببيروت

أي البطل المنتصر، وإنما هزمه الموت الذي هو أقوى من الضحية ومن المنتصر. ولذلك فالأسد الضحية بعد المنازلة، لا يزال حيّاً يرى ويسمع:

فإن تَكُ قد قُتِلتَ فليس عاراً
فقد لاقيتَ ذا طَرَفَيْن حُرّا

وإن ساوى الشاعر في نهاية القصيدة بينه وبين الأسد مما يوحي لنا بأنه رفع الأسد إلى منزلته، لكن في الواقع أضحى الشاعر نفسه هو الأسد البطل.

أما أسد المتنبي الذي جاء ذكره في مدح الأمير بدر ابن عمّار بن إسماعيل، بالرغم من براعة الشاعر ودقّة صنعته في صياغة الصورة، فقد ظهر لنا الأسد المجرد من الحياة الذي لا يسمع ولا يرى ولا يتحرك وكأنه تمثال حجريّ طفق الشاعر ينحته نحتاً من رخام اللغة الصلدة. والمنازلةُ التي تمّت بين الممدوح وبين الأسد لم تكن منازلة بين بطلين قط. هذا هو الأمير بدر يهاجمه الأسد وهو غافل عنه. والأسد هنا يحامي عن فريسته التي كان يلِغ فيها مع أسد آخر ولّى هارباً لحظة سمع وقع حوافر حصان الممدوح، وكأن الأسدين، المهاجم وأخيه الهارب كليهما من عامة الحيوان، يأكلان على قارعة الطريق. ويتّسمان بالجبن. أين هذه المواجهة الهزيلة من أسد كعب بن زهير في رائعته: «بانت سُعاد»؛ فهو «ضَيْغم من ضراء الأُسْد» يحمي غابه، وله أشبال «عيشهم في كل يوم لحم من القوم»، حتى انقطع الناس عن المرور بمنطقته: «ولا تمشّى بواديه الأراجيلُ»، أي السائرون على أرجلهم. وهذا دأبه وعادته:

ولا يزال بواديه أخو ثِقَةٍ
مُطرّح البَزّ والدرسان مأكولُ

يريد كعب بن زهير أن يقول إن هذا الأسد الشجاع لا يمرّ بواديه أحد إلا أكله وترك سلاحه وثيابه (البزّ والدرسان) مضرّجين بالدماء.

البحتري.. الفتح بن خاقان للأسد

اشتُهر البحتري بالوصف المتميّز ذي الموضوعات الفريدة. فقد وصف منازلة بينه وبين الذئب في «أُخريات الصبح» ببيداء مقفرة وكلٌّ يبغي افتراس الآخر. ووصف البحتري البركة العجيبة في قصر الخليفة جعفر المتوكل، ووصف الربيع «الطلق الضاحك من الحسن» حتى يكاد يتكلّم. ومن مشهور شعره قصيدته العصماء في وصف إيوان كسرى. وتتجلّى براعته في دمج مقاطع الوصف الرائق بجسد القصيدة مما يزيد من شاعريتها وينوّع من صورها. من الشخصيات التي أُعجب البحتري بها وتعددت مدائحه فيها، القائد الهمام: الفتح ابن خاقان.

قال يمدحه، ويذكر منازلته الأسد في متنزّه الحيوان الكبير الذي بناه المتوكل ملحقاً بقصره في سامرّاء فكان أشبه بمحمية طبيعية للحيوانات الضارية وغير الضارية كالغزلان والمها وحمار الوحش والنعام. وقد سمّي هذا المتنزه بـ: «الحائر». وكان الخليفة وحاشيته يخرجون للتنزه وسط أسراب الحيوان، إما للصيد وإما التمتّع بمباهج الطبيعة. وفي إحدى النزهات، تبهنس أسد لموكب الخليفة، فانبرى الفتح بن خاقان ينازله. ولعل البحتري كان في معية الموكب، وشهد المنازلة المدهشة. فخلّدها من ضمن قصيدة المدح.

يبدأ الشاعر مدحه بالغزل على طريقة جديدة وهي وصف طيف «زينب» الحبيبة يزوره ليلاً ليزيد من تباريح العاشق الولهان:

أجَدِّك ما ينفكّ يسري لزَيْنَبَا
خيالٌ إذا آبَ الظَّلام تأوَّبا
سرى من أعالي الشام يجلُبُه الكَرى
هبوبَ نسيم الروض تجلبُه الصَّبا

ويسترسل الشاعر بعد المطلع الغزلي إلى مدح الفتح ابن خاقان بما هو أهل له من الكرم والخلق الحسن والفضل والشجاعة حتى إن الحسّاد ضجّوا ناقمين:

وما نَقَمَ الحسادُ إلا أصالةً
لديك، وفعلاً أريحياً مُهذّبا
وقد جرّبوا بالأمس منكَ عزيمةً
فضَلْتَ بها السيفَ الحسامَ المجرّبا

فكان هذان البيتان كافيين مدخلاً لمشهد المنازلة.

ندخل مع الشاعر إلى الغابة التي زرعها الخليفة لتحتمي في أدغالها الوحوش المفترسة خلف نهر صناعي سماه «نيزك» احتفره عمال الخليفة يفصل بين عالم الضواري وبين عالم الحيوانات البرية الطليقة. وها هو الوحش الضاري يخرج باحثاً عن قوت لأشباله، وليحمي آجامه من المتطفّلين، فتقوده الأقدار عبر نهر نيزك إلى موكب الخليفة. لكن الفتح بن خاقان يمشي في ركاب سيد القصر والحائر والدولة بأكملها، فلا يهاب شيئاً، سواءً أكانوا بشراً ثائرين سبق أن أعادهم إلى حوزة الخلافة، أم كانوا وحوشاً ضارية.

غداةَ لقيت الليثَ، والليث مخدرٌ
يحدّدُ ناباً للّقاء ومخلبا
يحصّنه من «نهر نيزكَ» مَعقلٌ
منيعٌ تسامى غابه وتأشّبا

وقد التفّت غابة هذا الليث وعلا العشب النابت تحت الأشجار ليتربص من بينها كي يقتنص فريسته.

يَــرُودُ مـغـاراً بـالـظـواهـر مُكْثِـبـا،
ويـحـتـلّ روضــاً بـالأبـاطـح مُعشبا
يـلاعـبُ فـيـه أقـحـوانــاً مفضّضاً
يبصُّ، وحُـوذانـاً على الماء مُذْهبا

يدور الليث ويذهب ويجيء في طلب ما يريد، خارجاً من كهفه (عرينه) يعلو الكثبان وينزل إلى البطاح، ويتبهنس في مشيته مغروراً بين الورود والزهور (الأقحوان الفضي الابيضاض والحوذان الذهبي الاصفرار). ويبلغ الليث من غروره بنفسه أن الشاعر اختار له لفظ «إذا شاء»:

إذا شـاء عـادى عـانـةً أو عـدا عـلى
عـقـائـل سـرب، أو تـقـنّـص ربـربـا
يـجـرّ إلـى أشـبـالــه كـلّ شـارق
عـبـيـطـاً مـدمّـىً أو رمـيـلا مخضّبا

إذا شاء تكبّر على قطيع من الحُمُر الوحشية، أو هاجم قطيعاً من كرام الإبل (العقائل)، أو اقتنص ربربا (بقر الوحش). وما اصطياده هذه الحيوانات لظلم في نفسه أو شهوة البطش، وإنما لضرورة قوت أشباله التي لا تأكل الجيف، بل اللحم العبيط (الطازج) الذي ما برح الدم يقطر منه، دلالة على «ملوكية» الليث وأشباله... نلاحظ أن هذا الوصف الرشيق قد جعل من الأسد المزمجر القاسي ربّ عائلة مثله مثل الأب الرؤوف يطعم صغاره كل يوم خير ما يرزقه الرزاق الكريم. وهذا هو الممدوح يطعم من ماله الفقراء والمحتاجين كل يوم، وهو ما مرّ من المدح في القصيدة قبل هذا الموقف. فأين بطولة الممدوح التي نقمها الحسّاد؟ تكمن البطولة في المنازلة التي شهدها الشاعر، ولم يروِها له راوية، وهذا يزيد من قوة التصوير.

شـهـدتُ لقد أنـصـفـتَه يـوم تَـنْـبَـري
له مصلتا عضباً من البيض مقضبا

والعضْب المصلت هو السيف القاطع، ليقابل مطلع المقطع حيث كان الليث يحدد نابا للقاء ومخلبا. ويزيد شخصية الفتح بن خاقان روعةً أنه «أنصف» الأسد برغم مخاطر هذا الإنصاف. والإنصاف من صفات الأبيّ، العادل، المتمكّن من قوته، وشيمه. وهكذا اكتمل المشهد بالمساواة بين المتنازلين:

فـلـم أرَ ضـرغـامـيـن أصــدقَ منكما
عـراكـاً، إذا الـهـيّـابـةُ الـنُّـكـسُ كَـذّبـا!

هـزبـرٌ مـشـى يـبـغـي هـزبـراً، وأغـلـبٌ
من القوم يغشى باسلَ القوم أغلبا

لقد أنصف الشاعر هذا الأسد ورفعه إلى مرتبة القائد ابن خاقان: الواحد منهما هزبر (من أسماء الأسد)، وكلاهما أغلب (وهو المكتنز الرقبة دلالة على القوة)، وكلاهما باسل غلّاب. أما الليث فكان يتجرّأ بافتخار وزهوّ بإحداث زمجرة. لكن سرعان ما رأى أن منافسه أقوى منه قلبا وأشدّ زمجرة.

أدلّ بـشَـغْـب، ثـم هـالـتـهُ صـولـةٌ
رآك بـهـا أمـضـى جَـنـانـاً وأشـغـبـا

وتنشب المعركة. يبدؤها الأسد الذي لم يعرف أبداً إلا الهجوم والاندفاع. لكن الفتح بن خاقان ليس بالندّ السهل. فقد وقف أمام خصمه يحول دونه ودون النصر أو الانسحاب. لاحظ جدارة الفنان الشاعر: لم يلتفت إلى وصف الفتح، بل ركّز اهتمامنا على الأسد:

فأحجمَ لَمّا لم يجد فيك مَطمَعاً
وأقـدمَ لـمـا لـم يـجـد عنك مهربـا
فـلـم يُـغـنِـه أنْ كَـرّ نـحـوك مقبلاً
ولـم يُـنـجـه أن حــاد عـنك منكّبا

من صفات المقاتل المخضرم أنه لا يترك فرصة لعدوّه كي يستجمع قواه بعد الصولة الأولى. فسارعه بما تعوّده الفتح من مقارعة الأبطال:

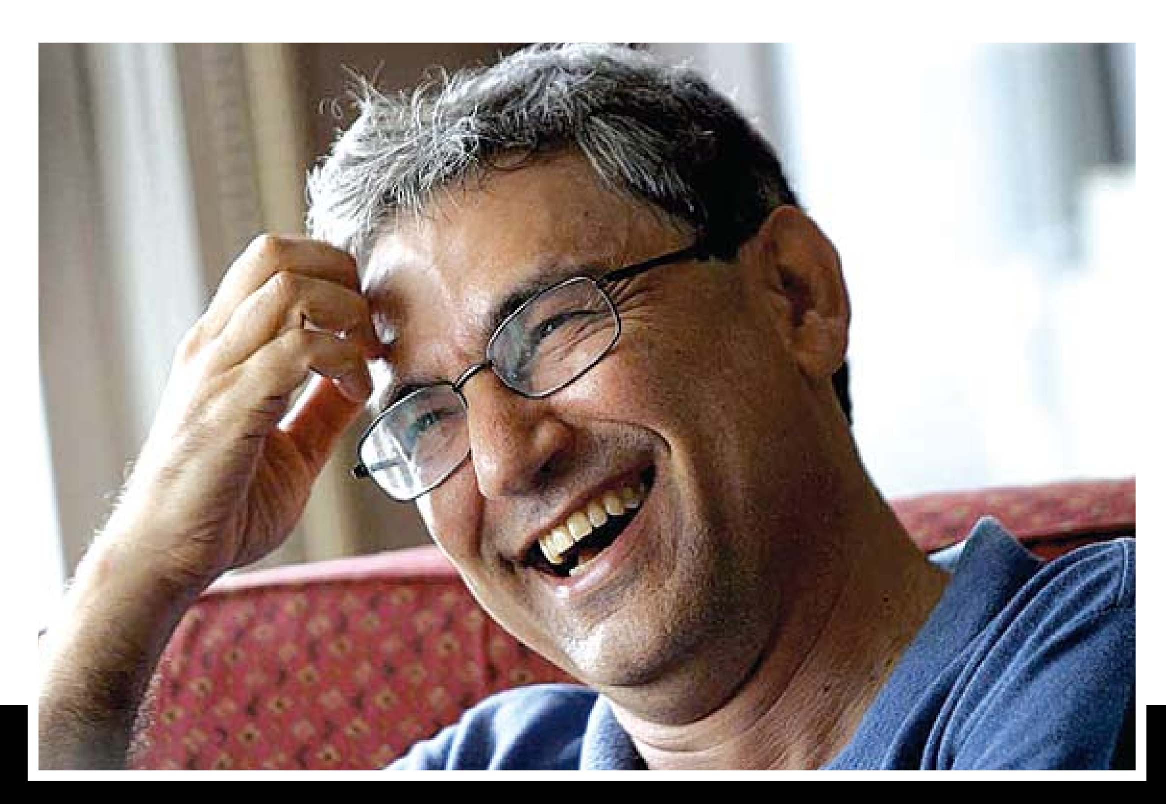
حملت عليه السيفَ، لا عزمكَ انثنى
ولا يـدُك ارتــدّت، ولا حــدُّه نَـبـا

إنها ضربة واحدة ليس إلا: سيف بتّار، وعزم لا ينثني، ويدٌ لا ترتدُّ... وشفرة سيف لا تنبو عن القطع... أفبعد هذه الصورة الشعرية المتواثبة بفعل مضمونه الإقدام (حملت عليه)، وثلاثة أفعال سلبية بإزاء الإقدام (انثنى، ارتدّ، نبا) تقلبها «لا» إلى أفعال إيجابية المضمون متساوقة مع «حملت عليه».

انظر معي كيف اكتفى الشاعر بهذا ولم يدخل في وصف ما حدث للأسد بعد ذلك، فقد تركه لخيالنا المجنح مع أجواء متنزّه الحائر وآجامه وتلاله وخصبه، والوحوش بأنواعها، ونهر نيزك، والخليفة، والحاشية، والفتح بن خاقان صاحب الضربة الفتّاكة الواحدة، والشاعر المنتشي من صولة الممدوح.

بقية سحر.. شعر: سعيد السريحي

يرفُّ كطيرٍ
يحط كقطرة ماء
وينساب نهراً من الياسمينْ.
فمن أين جئت بصوتك هذا!!
وهل كان من قبلُ..
هسهسةً لنسيمِ الصباحِ
وإشعاعَ ياقوتةٍ
وهل كان عطراً ..
نشيدَ الصبايا.. وسرباً من الفراشاتِ
أغنيةً للحنينْ
كأني أرى صوتك الآن..
جسراً يمر عليه السلامُ
التحيةُ
و «أهلاً» تقولينها ..
فتمحين بالصوت
بالعطر
حزن السنين..
من أين جئتِ بصوتك هذا..
فيه من خفر الغيد شيء،
ومن جرأة الفاتنات قليل،
ومن بوح عاشقة .. بقية وجدٍ،
فيه من شقشقةٍ العصافير..
حين تحوم على الماء.
ومن ضحكةٍ لا تكاد تبين
بقية سحرٍ مبين.



الفائز بجائزة نوبل للآداب

باموق..

فخر لتركيا أم قضية جديدة لها؟

كانت جائزة نوبل للآداب لهذا العام من نصيب يورهان باموق، الروائي التركي الذي سبق لشهرته أن تخطت حدود بلاده، كما ترجمت معظم أعماله إلى العديد من اللغات (بما فيها العربية). ومع ذلك فإن اختياره هزَّ عالم الأدب والسياسة كما قد يكون كامناً خلف هذا الاختيار، أو لما يتوجس منه البعض، خاصة المشككين دائماً بحسن نوايا الأكاديمية الآسوجية التي تمنح الجائزة.

هنا تتناول منى سكرية* المناخ السياسي والأدبي الذي لم يقتصر دوره على الإحاطة بالظرف المحدد الذي حصل فيه باموق على الجائزة، بل كان أيضاً في صميم أعماله الروائية ومحورها الأساس.

* كاتبة صحافية من لبنان



أدى إعلان الأكاديمية الآسوجية في استوكهولم فوز الروائي التركي أورهان باموق بجائزة «نوبل للآداب» إلى سلسلة من المواقف المتناقضة لجهة تأييدها أو نقدها، أو لجهة تقييمها للكاتب وللحدث.



كما واكب لحظة ولادة الإعلان عن الفوز، حدثان في السياسة أقلقا تركيا كدولة: مظاهرة للأرمن اللبنانيين ضد مشاركة قوات تركية في عداد القوات الدولية متعددة الجنسيات «يونيفيل» التي أتت إلى لبنان وفقاً لقرار الأمم المتحدة 1701، والثانية في قرار البرلمان الفرنسي الذي يقضي بمعاقبة كل من ينكر المجزرة التي ارتكبتها تركيا بحق الشعب الأرمني، فتجاوزت الجائزة موقعها الأدبي العالمي لتدخل بشدة في سياق الصراع السياسي، ومسألة الصدام بين الحضارات، الفكرة الأكثر تداولاً ونقاشاً في الألفية الثالثة منذ أن أطلق المفكر الأمريكي صموئيل هنتنغتون كتابه الشهير نهاية القرن الفائت «صراع الحضارات».

أين موقع أورهان باموق وأدبه ورواياته الثمانية إلى الآن من هذا النقاش الصاخب؟.

ثمة خيط جامع بين معظم الكتابات التي تناولت أدب باموق، تتعلق بقاسم مشترك يربط بين موضوعات رواياته وبين تاريخ تركيا القديم منها والحديث، بين هويتها المركبة من طورانية وأوروبية، إسلامية وعلمانية، تقليدية وحداثوية.

هذا ما رأته إدارة الاكاديمية السويدية في منحها الجائزة له، إذ ورد في البيان «أن الكاتب، أي باموق، ابتكر أشكالاً جديدة للتعبير عن الصراع والتداخل بين الحضارات، من خلال رصده للروح الحزينة التي تسكن مدينته حيث أبصر النور».

باموق الشخص والأديب

قبل الحديث عن أهم الروايات الصادرة للكاتب، وأهم الأفكار التي تحدَّث عنها وتسببت له بمشكلات كثيرة، والجوائز التي حصل عليها قبل فوزه بنوبل للآداب، نورد هنا لمحة عامة عنه لعلها تساعد في فهم خلفيات الإشكاليات التي أثارها هذا الفوز.

ولد أورهان باموق في 7 حزيران من العام 1952م لدى عائلة إسطنبولية الحضور البرجوازي، يتقن أفرادها اللغة الفرنسية، وميسورة الحال المادية لجهة عمل الوالد في التجارة. وتلقى أورهان علومه في إحدى المدارس الأمريكية في المدينة، ثم نال إجازتين جامعيتين في الهندسة والصحافة، لكنه تفرغ للكتابة بعد أن اقتنع **«أن الكتابة تعطي معناها للحياة، لأنها الحياة»** كما قال، وبعد **«أن قرأت كتاباً ووقعت في غرام إحدى الفتيات فتغيرت حياتي بأسرها»** كما ذكر مرة.

في الثانية والعشرين من عمره أنجز أولى رواياته «جودت بك وأولاده» (1982)، ثم «منزل الصمت»

رفض سابقاً أرفع جائزة أدبية في بلاده، ومع ذلك، تبقى شخصيته مشابهة لشخصية تركيا

(1983)، «القصر الأبيض» (1985)، «الكتاب الأسود» (1990)، «الحياة الجديدة» (1994)، «اسمي أحمر» (2001)، «ثلج» (2002) «إسطنبول» (2003) وغيرها من الروايات العديدة.

وقد سبق للكاتب أن نال جوائز عدة منها: الجائزة الأولى في مسابقة الرواية التي نظمتها جريدة «ميلليت» التركية عام 1979م على روايته «جودت بك وأولاده»، وفي العام 1980م نالت الرواية ذاتها جائزة «أورهان كمال» للرواية، وهي أرفع جائزة تركية في هذا النوع من الأدب. كما نال جائزة «مادارالي» للرواية عام 1984م، وجائزة «الاكتشاف الأدبي» الأوروبية، إضافة إلى «جائزة السلام» التي منحه إياها اتحاد الناشرين الألمان في معرض فرانكفورت للكتاب عام 2005م، وجائزة «ميدسيس» الفرنسية عن كتابه «ثلج» الأكثر إثارة للضجيج.

مثير للجدل أم أكثر من ذلك؟

إنه الكاتب الذي لا يرضي أحداً، هذا ما يمكن تلخيصه في تعاطي النقاد الأدبيين ووسائل الإعلام مع أدبه والجوائز التي حازها وصولاً إلى آخرها وهي نوبل للآداب، والتي أوقعت المتابعين في حيرة، لمن منحت الجائزة: لأدب باموق لمواقفه السياسية، أم للأدب التركي، أم نكاية بمواقف تركيا السياسية؟

فلطالما أثارت أعمال باموق التي ترجمت إلى 35 لغة عالمية، الكثير من الردود المتناقضة، لم يكن أبسطها ما يتعلق برواية «ثلج» التي شكلت منعطفاً في مسيرته الأدبية، لأنه تحدث فيها عن المأساة الأرمنية، داعياً حكومة بلاده إلى الاعتراف بها، وقد اعترف في هذه الرواية بارتكاب تركيا لمجازر بحق مليون مواطن أرمني، و30 ألف مواطن كردي **«لقد لقي هؤلاء حتفهم على هذه الأرض ولا أحد غيري يجرؤ على قول ذلك»**، وهذا ما أخضعه للمحاكمة بتهمة «الإهانة الواضحة للأمة التركية، وشتم الهوية التركية»، فضلاً عن محاكمة ثانية بتهمة قوله إن الجيش التركي يعيق تطور الديموقراطية.

إجماع آخر برز في تعليقات وسائل الإعلام حول منحه جائزة نوبل للآداب وتمحور حول «مواقف باموق السياسية»، واعتبار كثر أنها رسالة موجهة إلى تركيا على أبواب النقاش الدائر حول انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، ومحاولات إقصائها عن ذلك بتهم تتعلق بحقوق الأقليات التي لطالما دافع عنها باموق في رواياته، لا سيما «ثلج».

بين فنان الدولة والمدينة الحزينة

الكاتب الذي تصادم مراراً مع السلطات التركية حول كتاباته ومواقفه الفكرية والسياسية، رفض في إحدى المرات تكريم حكومة بلاده له عبر منحه لقب «فنان الدولة» والذي يعتبر أهم لقب ثقافي في تركيا. ولكن عندما تحدث عنه الرئيس الأمريكي جورج بوش أثناء إحدى زياراته لتركيا واصفاً إياه «بأنه كاتب كبير يسهم في ردم الهوة بين الشرق والغرب، بناءً على ما تسعى إليه قيمنا الأمريكية» اعترض باموق علناً على استغلال أدبه بهذه الصورة لتبرير الحرب الأمريكية على العراق، ورفض أن يستشهد به بوش **«لأنني لست عضواً في فريقه»** كما صرح لوسائل الإعلام.

شخصية باموق وشخصية تركيا

يصفونه بأنه يشبه روح مدينته الحزينة، وهو يتأرجح في توازن دقيق بين الشكل والفوضى، بين التاريخ ومستقبل بلاده، وبين وجهيها الشرقي والغربي. فهو يقول في إحدى المقابلات الصحفية **«أن ترهق نفسك بالأفكار القوية إنما هو شغف تركي بالذات، إذ أن الأمة التركية تمرنت خلال القرنين الفائتين على الانتقال من حضارة إلى أخرى، وهذه تجربة مؤلمة، وكتابي «ثلج» إنما هو تعبير عن صعوبة العيش مع الأفكار الكبرى المجردة...»**. ليقول في حديث آخر رداً على اتهامه «بانتحال الصفة» في معظم أعماله

«لأنني أنتمي إلى أمة تطرق باب أوروبا، أعرف جيداً أن في وسع المشاعر المتقلبة أن تتقد وتنتشر من دون وازع»

الأدبية: «**إن مسألة انتحال الصفة هذه تنعكس في الهشاشة التي يشعر بها الأتراك حين يواجهون الثقافة الغربية.. القلق حيال أن تتأثر بشخص آخر يشبه حال تركيا حين تيمم نظرها غرباً، أعني ذلك الحلم بأن تصبح جزءاً من الغرب، وفي الوقت نفسه أن تكون متهماً بأنك لست أصيلاً بما فيه الكفاية. أن تحاول القبض على روح أوروبا ثم تشعر بالذنب بسبب الدافع لديك إلى تقليدها. تلك الطلعات والنزلات في هذا المزاج تذكر بالعلاقة بين أخوين متنافسين**».

أهم رواياته

«**جودت بك وأولاده**»، نقلها إلى العربية فاضل جتكر وصدرت عن منشورات وزارة الثقافة في دمشق، رواية ترسم مسارات في القرن العشرين من خلال ثلاثة منعطفات كبيرة: انهيار الإمبراطورية العثمانية، وفاة أتاتورك (1938م)، والفوضى والانقلابات العسكرية في سبعينيات القرن الفائت.

أما روايته «**الكتاب الأسود**»، ترجمها إلى العربية عبدالقادر عبداللي وصدرت عن دار المدى، فإنها قادته إلى العالمية، ويقول عنها مؤلفها «إن هذه القصص التي أريد أن أجمعها بعضها إلى بعض في كتاب أسود تغدو كقصص عشقنا التي تنفتح الواحدة على الأخرى، كما في ذاكرتنا، تؤدي الحكاية الثالثة إلى الرابعة، وكما في قصة الرجل الباحث عن السر والمعنى المفقودين في وجهه حين يضيع في أزقة إسطنبول...».

أما روايته «**اسمي أحمر**» فإنها تتناول «الفن التشكيلي الإسلامي الذي يستخدم بقوة اللون الأحمر في الرسم الإسلامي» كما ورد في تعريف الرواية، والتي تتجاوز هذا الاختلاف بين مفهومين للفن التشكيلي، بين الرسم التقليدي في المرحلة العثمانية التي تمنع رسم الوجوه، وبين مدرسة الرسم في إيطاليا. إنها مرة أخرى صراع بين مفهومين ثقافيين متناقضين لقيمة حضارية إنسانية واحدة هي الرسم لكنها في العمق صراع بين حضارتين.

روايته «**ثلج**»، ترجمها إلى العربية عبدالقادر عبداللي وصدرت عن منشورات دار الجمل، إنما هي رواية سياسية تحكي عن الإسلاميين والأكراد والأتراك واليساريين وصراعاتهم في إحدى القرى التركية التي حاصرها الثلج، وهي محاصرة بمجموعة من القوى المتناقضة، بكل أنواع الأفكار، والانتماءات السلوكية الاجتماعية. وعنها يقول باموق «.. لا أكتب رواية سياسية حتى أقوم بدعاية سياسية لقضية محددة، بقدر ما أطمح إلى وصف الحال السيكولوجية للناس في مدينة معينة. المدينة في هذه الرواية هي قارص، وتقع عند طرف شمال شرق تركيا لكنها تمثل تركيا كلها».

في الخطاب الذي ألقاه باموق أثناء نيله «جائزة السلام» العام الماضي في فرانكفورت قال ما يأتي: «**..في كل مرة يشعر مواطن بإذلال عميق، لا تتأخر الكبرياء الوطنية في الظهور. هذه هي المادة الأولية القاتمة لرواياتي: الخجل، الكبرياء، الغضب، والشعور بالفشل، ولأنني أنتمي إلى أمة تطرق باب أوروبا، أعرف جيداً أن في وسع هذه المشاعر المتقلبة أن تتقد فجأة وتنتشر من دون وازع**».

أما صديقه الروائي التركي نديم غورسيل فكتب يقول: «غالبية الصحافيين الأتراك سيكررون أنه نال جائزة نوبل للآداب لسبب واحد لا غير: موقفه من المجزرة الأرمنية».

يبقى أن أورهان باموق نال الجائزة التي ينتظرها كثر من أدباء العالم في كل عام، وسط حمى الإبداع الأدبي، والمواجهات السياسية الآخذة بالاشتداد في عالم لم يعد رحيماً في صراعاته.

مقتطفات

«أخي»..
من «الكتاب الأسود»

نورد هنا جزءاً من الفصل الحادي عشر من روايته «الكتاب الأسود»، وحملت عنوان «أخي»، وقد بدأها الكاتب بقولٍ لـ «إيزاك د نيسن» جاء فيه: «أرى أن الحاكم الذي اقترب أكثر من الروح الحقيقية للإله من بين الحكام الذين سمعت بهم جميعاً، هو كما تعرفون هارون الرشيد البغدادي الذي يستمتع بالتجول متنكراً».

...بعد أن خرج غالب من جريدة «ملييت» وعلى عينيه نظارة سوداء، لم يسر باتجاه مكتبه بل باتجاه السوق المسقوف. وفي أثناء تقدمه بين الدكاكين التي تبيع أشياء سياحية، وعبوره من باحة جامع «نور عثمانية» شعر فجأة بنعاس إلى حد أن أسطنبول كلها بدت له مدينة مختلفة. الحقائب الجلدية والغليونات المصنوعة من حجر سيلكات المنغنيز ومطاحن القهوة التي رآها في أثناء سيره في السوق المسقوف لم تبد له أشياء مدينة شبهت نفسها بها لأنها عاشت فيها آلاف السنين، بل إشارات مخيفة لبلد غير مفهوم نفي إليه ملايين البشر بصورة مؤقتة. حين كان غالب يضيع بين أزقة السوق المسقوف المتشابكة قال لنفسه: «الأمر الغريب هو استطاعتي أن أقتنع متفائلاً بأنني سأكون نفسي تماماً بعد أن قرأت الحروف على وجهي».

حين دخل زقاق باعة الصنادل كان على وشك الإيمان بأنه هو الذي تغيَّر وليست المدينة، قرر بأنه فهم أسرار المدينة بعد قراءة الحروف التي في وجهه إلى حدّ أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً. في أثناء نظره إلى دكان بائع سجاد تحرك دافع في داخله جعله يفكر بأنه قد رأى السجاد المعروض في الواجهة من قبل، وأنه داس عليه بحذائه الطيني وصندله القديم وعلى مدى سنوات، وأنه يعرف جيداً صاحب الدكان الذي يشرب قهوته أمام دكانه وينظر إليه مرتاباً، ويعرف قصة تاريخ الدكان الملئ بالمحتالين الصغار والاحتيالات الصغيرة التي تنبعث منها رائحة الغبار. فكر بالأمر نفسه وهو ينظر إلى واجهات دكاكين كل من الصائغ وبائع الأشياء الأثرية، والحذاء. بعد أن عبر زقاقين مستعجلاً، اعتقد أنه يعرف الأشياء المبيعة في السوق المسقوف كلها بدءاً من الأباريق النحاسية وصولاً إلى الموازين ذات الكّفات، والباعة المنتظرين زبائن، والناس الماشين في الأزقة. كانت إسطنبول كلها معروفة لغالب وليس فيها أي سرّ مخفي عنه.

بهذه الطمأنينة التي منحها له هذا الشعور سار في الطرقات كأنه يسير في نومه. أول مرة بدت لغالب الأشياء التي رآها في الواجهات والوجوه التي قابلها في الأزقة مدهشة كما لو أنها في حلم من جهة، ومألوفة ودافعة للاطمئنان كأفراد أسرة جلس معهم إلى الطعام الذي يتناولونه صاخبين من جهة أخرى.

وفي أثناء عبوره من أمام واجهات دكاكين الصاغة المتلألئة خطر بباله أن هذه الطمأنينة تتعلق بالسرّ الذي تشير إليه الحروف التي قرأها وجهه مندهشاً. ولكنه بعد قراءته الحروف لم يرد أبداً التفكير بذلك الشخص المنحوس والمثير للشفقة الذي تركه في ماضيه. إذا وُجد ما يجعل العالم ذا سرّ فهو وجود شخص ثانٍ يؤويه الإنسان في داخله ويعيش معه كتوأمين. بعد عبوره من زقاق المواد الرخيصة حيث الباعة الذين لا عمل لديهم يقتلون الوقت أمام دكاكينهم، رأى غالب مناظر المدينة في بطاقات بريدية براقة لإسطنبول، فقرر بأن ذلك الشخص الذي في داخله قد تركه وراءه منذ زمن طويل: كانت البطاقات البريدية مألوفة ومليئة بمشاهد إسطنبول البائتة والخارجة من قالب واحد إلى حد أنه حين نظر إلى سفن النقل الداخلي المقتربة من جسر غلاطة ومداخن قصر «طوب قاب» وبرج البنت وجسر البوسفور تهيأ له بأنه لا يمكن أن يكون للمدينة أي سرّ. ولكنه فقد هذا الإحساس حين دخل إلى أزقة «بدستان» التي تتعاكس فيها الواجهات الزجاجية الخضراء. فكّر خائفاً: «أحدهم يتعقبني».

لم يكن في الجوار ثمة من يثير شبهة. وعلى الرغم من هذا، لفَّ غالب شعور يشبه الكارثة المقتربة ببطء ولا يمكن إيقافها. سار بسرعة. حين وصل إلى شارع الطرابيش انحرف نحو اليمين. وسار على طول الشارع. ثم خرج من السوق. كان سيعبر سوق الصحَّافين دون أن يخفف سرعته، ولكنه حين كان أمام مكتبة «ألفِ» فإن اسم الدكان الذي واجهه بشكل طبيعي على مدى سنوات بدا لغالب فجأة كإشارة. لم يكن الأمر المدهش كون اسم الدكان حرف «الألف» وهو الحرف الأول من اسم

الله، والأبجدية العربية التي تخرج منها الحروف كلها، وبالتالي العالم كله بالنسبة للحروفيين، بل كتابة الألف فوق المكتبة بالأحرف اللاتينية بالطريقة التي اقترحها «ف. م. أوتشوجو» تماماً. وحين أراد أن يرى هذا أمراً عادياً وليس إشارة، وقعت عين غالب على دكان الشيخ معمر أفندي. لم يبد لغالب إغلاق مكتبة الشيخ الزماني التي كان يتردد عليها الأرامل الفقراء مثيرو الشفقة، والمليارديرات الأمريكان مثيرو والشفقة أيضاً في زمن ما إشارة حقيقية عادية كعدم رغبة الشيخ بالخروج من البيت في البرد أو أنه قد مات، بل إشارة لسرّ ما زال مختفياً في المدينة، قال لنفسه: «ما زلت ترى هذه الإشارات في المدينة». وفي أثناء سيره ما بين أكوام الروايات البوليسية المترجمة وشروح القرآن أمام المكتبات القديمة فكّر: «هذا يعني أنني لم أتعلم ما علمتني إياه الحروف التي على وجهي». ولكن لم يكن هذا هو السبب: كلما خطر بباله أن أحداً يتعقبه تتسارع خطواته تلقائياً، وتتحوّل المدينة والإشارات المعروفة والمألوفة من زاوية مطمئنة تعجّ بالأشياء إلى عالم مخيف يعجّ بالمخاطر المجهولة والأسرار. أدرك غالب أنه إذا سار بسرعة كبيرة فقط سيبتعد عن الظلّ الذي يتبعه، ويمكنه نسيان الشعور السريّ الذي يمنحه قلقاً.

دخل إلى شارع بائعي الخيام من ساحة بيازيد مسرعاً. ومن هناك انعطف إلى زقاق «سماور» لأنه يحب اسمه، ومن هناك انحدر عبر زقاق باعة النراجيل الموازي له باتجاه الخليج. انعطف من زقاق باعة المدقات صاعداً الطريق من جديد. رأى ورشات البلاستيك والمطاعم والنحاسين وصناع المفاتيح. قال لنفسه ببراءة طفل: «هذا يعني أنني سأرى هذه الدكاكين أولاً مع بداية حياتي الجديدة». رأى دكاكين تبيع الدلاء والأوعية الكبيرة والخرز وبرق الألبسة وبزات الشرطة والجيش. سار باتجاه برج بيازيد الذي وضعه أمامه هدفاً، ثم التفت إلى الاتجاه المعاكس تماماً وخرج إلى جامع السليمانية ماراً بين الشاحنات وبائعي البرتقال وعربات الخيل والثلاجات القديمة وعربات الحمالين وكومات الزبالة والشعارات السياسية المكتوبة على جدران الجامعة. دخل إلى باحة الجامع. حين سار تحت أشجار السرو والتاث حذاؤه بالطين خرج إلى الزقاق من طرف المدرسة. وسار بين البيوت الخشبية المصبوغة بالدهان المتكئ أحدها على الآخر. كان يخطر بباله أن أسطوانات المدافئ الخارجة من نوافذ الطابق الأول للبيوت المتصدعة نحو الزقاق تشبه السبطانات أو مناظير السفن أو فتحات سبطانات المدافع. ولكنه لا يرغب باستحضار كلمة «مثل» كي لا يربط أي شيء بأي شيء...



قول آخـر

سؤال في الثقافة

عبدالقادر عقيل*

الثقافة ليست ترفاً، بل هي وسيلة أساسية من وسائل إعادة بناء الإنسان.

يقول ابن خلدون في مقدمته: «لا يكفي أن تصف موج البحر وظهور السفن حين تريد أن تتكلم عن حياة البحر.. لا بد لك أن تفهم ما في القاع.. قاع البحر الملئ بالغرائب والتيارات والوحوش.. وقاع السفينة حيث يجلس عبيد وملاحون إلى المجاديف أياماً كاملة يدفعون بسواعدهم بضائع تحملها السفن، وثروات وركاباً، وينزفون عرقاً، وتتمزق أجسامهم تحت السياط».

هل يمكن أن نتحدث عن وجود أزمة ثقافية عربية دون أن نربط وجود هذه الأزمة بعوامل عديدة، لا بد من النظر إليها ودراستها وتحليلها، حتى يمكن أن نفترض حلولاً لمعالجتها.

إذا افترضنا وجود أزمة ثقافية عربية، فلا بد أنها أزمة من أزمات المشروع النهضوي العربي، الذي لم يتحقق منذ بدايات القرن الماضي وحتى الآن. إن الأزمة الحقيقية هي أزمة إبداع، وهي أزمة الوطن العربي ككل.

فالصراع الفكري بين الاتباع والإبداع صراع عميق لم يحسم حتى الآن، والموقف تجاه الحداثة لم يحسم بعد، والعالم العربي يواجه واقع التخلف والتجزئة واتساع الهوة بينه وبين العالم المتقدم، وهذا ما يجعل الثقافة العربية تواجه مهمة شديدة التعقيد، فالثقافة، كانت، ولا تزال ، تسلك طريقاً شديد الوعورة في مواجهة ظروف صعبة: هجرة عشرات الألوف من الأدمغة العربية مما أفرز واقعاً متخلفاً، كما خلَّف القهر والحرمان الذي يعيشه الإنسان في عديد من الدول العربية تطرفاً متعدد الأوجه، إضافة إلى أن الاهتمام تركَّز في معظم الدول العربية على مطالب التنمية المرتبطة بالاحتياجات اليومية للإنسان، لذا كان على الثقافة، في معظم الأحيان، أن تتنحى عن الطريق أمام زحف المطالب التنموية. ونذكر على سبيل المثال، بناء المجمعات التجارية الضخمة والفنادق وأماكن الترفيه والتسلية، التي تتطلب أيضاً تحسينات في البنية التحتية من طرق ومواصلات وخدمات وغير ذلك، في الوقت الذي لا يلتفت إلى تحسين البنية التحتية للثقافة في كثير من الدول.

مشكلة الثقافة أنها لم تكن أبداً ضمن أولويات النمو الاقتصادي والاجتماعي، لذا كانت ولا تزال، تعاني من الإهمال والقصور، فما دمنا لا نعترف بأن مجرد النمو الاقتصادي لا يعني الحضارة والتقدم، وأنه لا سبيل إلى تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية، بكل مقوماتها، بدون التنمية الثقافية، فستظل الثقافة في أسفل قائمة الاهتمامات.

إن جوهر الثقافة هو الإبداع، وأداتها تنمية قوى الإبداع لدى الإنسان، وإفساح المجال أمام تفتحها وازدهارها، والثقافة في معناها العميق تعني انطلاق الخيال والتجديد في شتى الميادين، على أن الإبداع الثقافي كي ينطلق لا بد من أن يتوافر له مناخ ييسر الإبداع ويحفزه ولا يعيقه ولا يكبله، وعلى رأس عوامل المناخ الملائم الثقافة، الحرية، حرية المبدع، وتوفير الأمن والطمأنينة له.

إن الإبداع إما أن يكون طليقاً حراً وإما لا يكون. لذا لا بد من حماية الإبداع الثقافي الصحيح من منافسة الثقافة الرخيصة، ولاسيما ثقافة الاستهلاك التي تبثها وسائل الإعلام والفضائيات، وما تؤدي إليه غالباً من تسطيح الثقافة ونشر الثقافة المبتذلة. ولا بد من نقل الثقافة من مراكز الاهتمام الثانوية إلى المراكز الأولى، لأن الثقافة هي الاقتصاد الآخر لكل أمة، لكل شعب، ولأن القوى الثقافية عديلة القوى الاقتصادية، ومكملتها في القوة والأثر والإنتاج، هي الأصل في كل عمل تنموي، وفي كل مردود للتنمية.

* رئيس تحرير مجلة «هنا البحرين»

الضحك



إنه ردة فعل على قول أو مشهد معين. وردة الفعل هذه سريعة جداً وقصيرة العمر.
قد تحصل عفوياً وبشكل مفاجئ خلال مجريات الحياة اليومية، وقد يتم انتزاعها عمداً.
إنه الضحك، الذي أصبح منذ زمن طويل فناً وأدباً ودواءً ومادة للدراسات العلمية.
في هذا الملف تأخذنا أريج آل محفوظ * إلى عالم الضحك. هذا الفعل -أو ردة الفعل- الواحد في كل لغات العالم وحضاراته، الملازم دائماً لحياة الإنسان، وقد أصبح في العصر الحديث صناعة عملاقة بعدما كان في الماضي حرفة، ربما لسد المزيد من حاجتنا إليه.

---

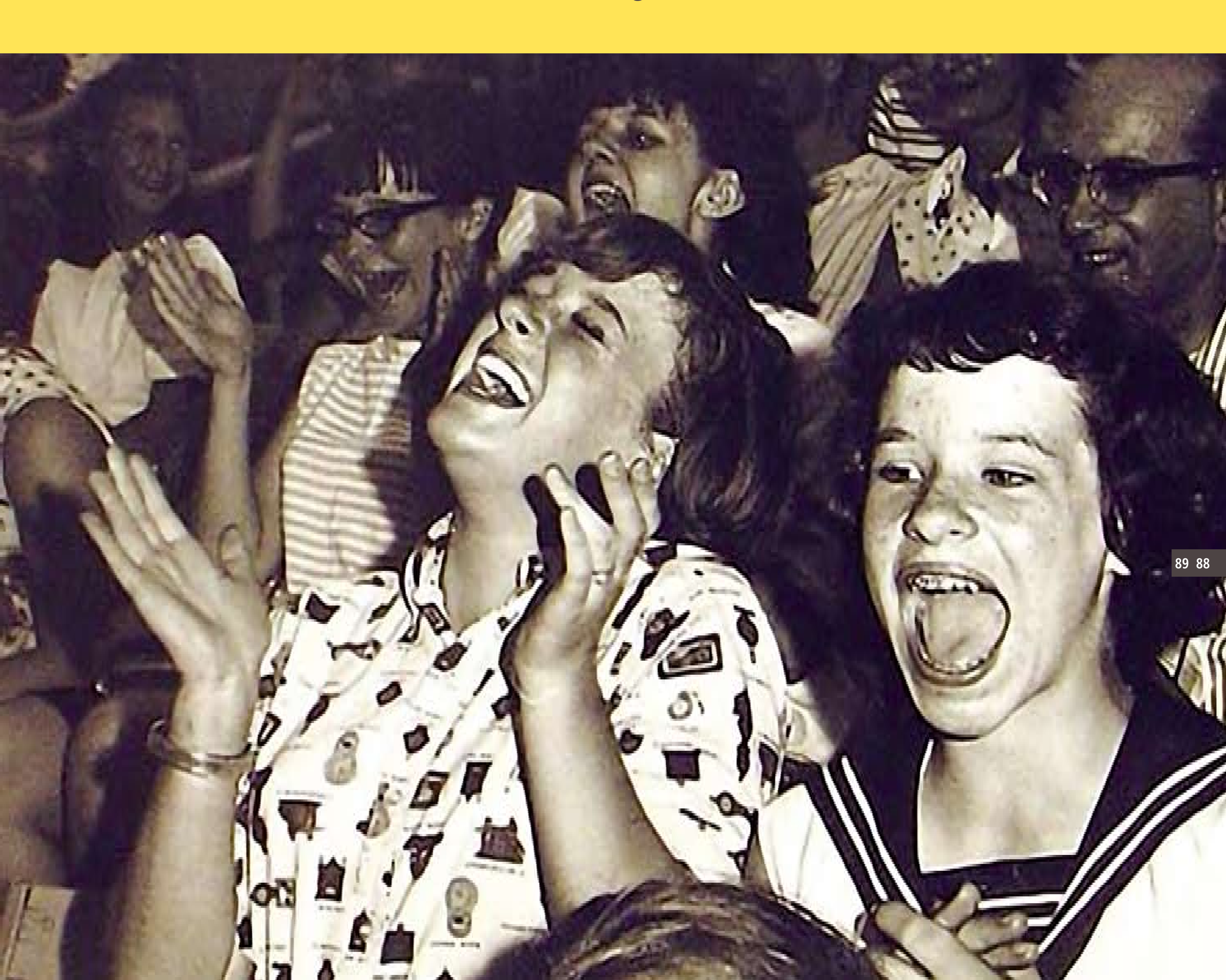
* باحثة سعودية

Corbis

بداية يمكننا أن نستغني عن التعريف بالضحك. فما من إنسان إلا وعرفه وعرف قيمته. وما من إنسان إلا وتمنى المزيد منه لنفسه، وكذلك للحالة النفسية الجميلة والمريحة التي تنشأ عنه رغم اقتصار عمرها على لحظات محدودة.

وقد قيل قديماً: «اضحك تضحك لك الدنيا»، وهذا حقيقي. فالتجهم يثقل على الفرد نفسه ومن حوله، أما الابتسام والضحك فينشران الإحساس بالفرح والبهجة. والسعي الدائم عند الإنسان للوصول إلى الفرح والبهجة، هو ما يجعله يجد في الضحك تحقيقاً ولو سريعاً ومؤقتاً لمبتغاه.

والمدهش في الضحك هو أنه على الرغم من قصر عمره الذي لا يدوم عادة أكثر من لحظات معدودة، وعلى الرغم من أنه موحَّد «لغوياً» عند كل شعوب العالم قديماً وحديثاً، فإن أوجهه تتعدد إلى درجة يصعب إحصاؤها، والأجوبة التي تثيرها أسئلته تحتاج إلى تقاطع مجموعة كبيرة من العلوم والفنون تبدأ بالفلسفة وعلم النفس والطب وعلم الاجتماع والتاريخ لتنتهي بالفنون التشكيلية والسينما والمسرح والتلفزيون.



لماذا نضحك؟

هناك ألف لون ولون من الضحك. وهناك ألف سبب وسبب. وقد حاول الباحثون حصر أسباب الضحك. فهناك الضحك دهشةً عند حدوث مفاجأة ما، والضحك عند مشاهدة الفشل البسيط الذي يُمنى به الآخرون. وقد نضحك أيضاً لحدوث بعض المفاجآت غير المتوقعة أو الصدف العارضة في بعض المواقف. وكذلك نضحك لدى مشاهدة مفارقة جديدة أو سماع نكتة مثلاً. ومن الأحوال الأخرى التي تجعلنا نضحك -بخلاف التعبير عن البهجة والسرور- الاستجابة لضحك شخص آخر، أو أثناء الاشتراك في لعبة جماعية. وقد يكون الضحك أيضاً استجابة للمس شخص آخر بعض مناطق الجسم على سبيل الدعابة، وهذا ما يسمَّى «الدغدغة».

إلى ذلك، ولأن الضحك ينتقل بالعدوى، يستخدم الضحك نفسه لصناعة المزيد منه. فكلنا نلاحظ أن مخرجي الكوميديا التلفزيونية يضيفون إلى المشاهد المصورة صوت ضحك مستعار لحث المتلقي على الضحك. وقد التفت الجاحظ إلى هذه الظاهرة، وجلاها في قوله: «ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب».

ومن استخدامات الضحك أيضاً التعبير عن السخط والضيق والتفاعل على المستوى الاجتماعي والسياسي. فهو سيف مسلَّط على رقاب الخارجين على الآداب العامة، وعلى الذين يفرضون مهابتهم قسراً على الآخرين.

وفي بعض الحالات لا يكون الضحك تعبيراً عن السرور، فهناك الضحك الاجتماعي لمجاملة الآخرين. ففي اليابان مثلاً يُنظر إلى الضحك على أنه واجب اجتماعي، وعلى الإنسان الذي ألمت به كارثة أن يرسم على وجهه ابتسامة وهو يتلقى مواساة الآخرين، وهذا ما يسمَّى أحياناً «قناع السعادة» أو ما جعله إحسان عبدالقدوس عنواناً لروايته الشهيرة: «العذاب فوق شفاه تبتسم»، أو ما ورد على تراث العرب «شر البلية ما يضحك»، أو تعبير المتنبي عن بعض المضحكات بقوله: «ولكنه ضحك كالبكاء». ونذكر في هذا الإطار أحد المثقفين الفرنسيين الذي قام بجولة عربية قبل عدة سنوات، دعا فيها المنتديات الثقافية إلى الرد على انتشار الأسلحة النووية بالضحك!

كل هذه المواقف وغيرها لا يمكن أن يكون الضحك فيها وليداً لحادثة سارة. بل ثمة حالات ومواقف مَرَضيَّة ينم فيها رد الفعل بالضحك عن الاضطراب النفسي المؤقت مثل الضحك الهستيري، ونوبات الضحك البديلة عن التشنج التي لا تكون خلالها سيطرة العقل كاملة على السلوك. ومنها الضحك نتيجة لمواد تؤثر في الأعصاب مثل غاز أكسيد النتريك المعروف بغاز الأعصاب، والمستخدم في الحروب الكيميائية، أو تعاطي الكحول الذي تنتج عنه حالة انشراح زائفة. ويصادف الأطباء في العيادات النفسية بعض الحالات التي يكون فيها السرور المَرَضي واضحاً ولا يملك الطبيب المعالج إلا أن يتفاعل معها بانشراح مماثل، مثل حالات الهوس الذي يسمَّى أحياناً «لوثة المرح»، وحالات أخرى لا تسبب للطبيب المعالج هذا الإحساس على الرغم من أن المريض يقهقه عالياً ولكن ضحكاته لا تثير أي تعاطف، مثل مرضى الفصام العقلي.

ضحك الأطفال وضحك الكبار

ولعل أجمل ألوان الضحك هو ضحك الأطفال، إنه محبب إلى درجة أنه ينتقل بسرعة إلى الكبار. ولكن أسباب

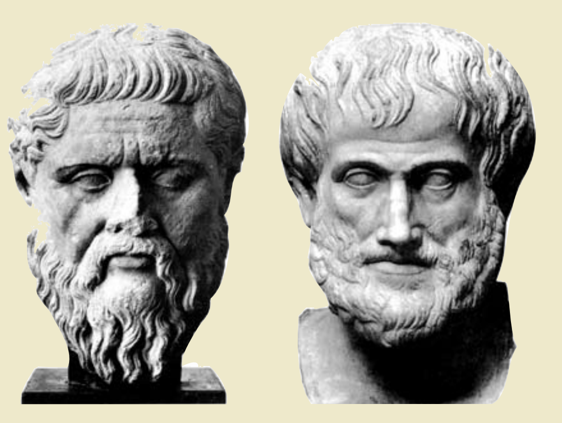


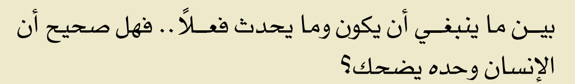
ضحـك الصغار تختلف كثيراً، وهي عديدة. فكل ما يدخل السرور إلى قلب الطفل يجعله يضحك، رؤيته لأمه وجلوسه فـي حضنها عيـد، واستقبالـه لوالـده بعد انتهـاء العمل فرحـة، وحصولـه على طعامـه المفضل أو ثيـاب جديدة وألعاب متنوعة كلها فرص سعيدة للطفل. وتختلف أسباب الضحك عنـد الأطفال أيضاً باختـلاف العمر، فالرضيع الصغيـر نـراه يبتسم عفويـاً أحياناً وربما يكـون نائماً أو يقظـاً، بينمـا يضحك الرضيع الأكبر سنـاً عندما يداعبه شخـص ما، وقد يكون سبـب الضحك لمس مناطق معينة كالبطن أو تحت الإبط أو أخمص القدمين أو العنق إذ أن الأعصـاب التي تنبّه مراكز الدماغ المسؤولة عن الضحك يختلف توزعها في الجسم مثلما تختلف عتبة الضحك من طفل لآخر.

ويضحك الأطفال قرابة 400 مرة في اليوم، أما الكبار فلا يضحكـون أكثـر من 15 مـرة، والمكتئبون قـد لا يضحكون على الإطلاق.

الضحك ظاهرة إنسانية، أو ظاهرة خلقية؟

ثمـة نظريـة تقـول إن الإنسـان هـو الكائن الحـي الوحيد الـذي يضحـك ويبكـي، لأنه يستطيـع أن يرى فرقاً





بيـن ما ينبغـي أن يكون وما يحدث فعـلاً.. فهل صحيح أن الإنسان وحده يضحك؟

يرى فلاسفة العصر الحديث ومنهم (هنري برجسون) أن الإنسان هو «الوحيد الذي يعرف كيف يضحك بل أيضاً كيف يُضحِك». فيما يعبِّر عباس محمود العقاد عن الإنسان بقوله إنه «الضاحك المضحك». وينتهي الفلاسفة إلى أن الضحك ظاهرة إنسانية، لا نظير لها عند الحيوان، وأن الإنسان هو الضاحك المضحك. بينما يرى علماء النفس أننا ما دمنا لا نعرف لغة الحيوان والطير فلن نعرف أبداً إذا كانت تضحك أم لا.

ولـم يقف علمـاء الأحيـاء مكتوفـي الأيدي حيـال هذا السـؤال. وكانـت البدايـة مـع مقارنـة الأصوات المتكـررة التي تصدرها القـردة العليا عند دغدغتها، بضحك الإنسان. وقيل بوجود تشابـه بينهما. ولاحـظ علماء آخرون حركات عند القـردة سمّوها الوجه

Corbis

بين الضحك والابتسام

جاء في فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي تحت عنوان: في درجات الضحك، أن التبسّم أولى درجات الضحك، ثم الإهلاس وهو إخفاؤه، ثم الافترار والانكلال، وهما الضحك الحسن؛ ثم الكتكتة أشد منهما، ثم القهقهة؛ ثم القرقرة؛ ثم الكركرة؛ ثم الاستغراق؛ ثم الخطخطة، وهي أن يقول: طيخ؛ طيخ؛ ثم الإزهاق والزهزقة، وهي أن يذهب الضحك به كل مذهب.

والواقع أن التبسم هو نسيب الضحك. وهناك اختلافات كثيرة ما بين الاثنين. فالتبسم قد يكون جزءاً من الطباع الراسخة دائماً في نفس فرد معين. فتراه بشوشاً دائماً. يرسم علامة الرضا هذه رغم ما يواجه في حياته من صعوبات. أما الضحك فهو مفاجئ يبدأ بسرعة وينتهي بسرعة، وهو مرتبط بحدث أو بظرف آنٍ محدد بدقة.

وفيما تكثر نسبة الابتسامات الزائفة خاصة في مجال المجاملات الاجتماعية، فإن نسبة الضحك الزائف أو المصطنع تبقى أقل منها بكثير. وفي المقابل فإن اكتشاف الضحك الزائف يبقى أسهل بكثير من اكتشاف الابتسامات الزائفة.

اللاعب، إذ يتكرر خفض جفني العين وفتح الفم إلى أقصى اتساع فتتكشف الأسنان، وعدوا ذلك شبيهاً بالابتسام. أما عالم الضحك روبرت بروفين، فقد وجد اختلافاً واضحاً بين ضحك الإنسان وما يعتقد أنه ضحك قردة الشمبانزي. وقد لا يكون الأمر كذلك فالصوت الذي يصدره الإنسان حين يضحك هو: هاهاها أما القردة العليا فتضحك بصوت آخر: أهـ أهـ أهـ.

وقد اهتم فلاسفة بارزون بالضحك وكانت لهم آراؤهم فيه. منهم أرسطو الذي اعترف بضرورته مع تأكيده الحاجة إلى الاعتدال، وأفلاطون الذي ذكر المضحكين والمضحكات عرضاً في سياق البحث عن المدينة الفاضلة التي أراد أن يقصرها على الأفاضل. لكننا عندما نذكر التوحيدي، فإننا نقف أمام عالِم عربي وفيلسوف مميز له فلسفته الخاصة في الضحك؛ ذلك أن تفسيره للضحك على مستوى عالٍ من العمق والذكاء.

تفسير أبو حيان التوحيدي للضحك هو أنه قوة ناشئة من تفاعل قوتي العقل والغريزة في الإنسان، وهو حالة من أحوال النفس تنشأ عندما يرد إليها استظراف أي شيء طارئ يجعلها تتعجب، ويقول في البصائر «إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك وتبلد طبعك».

وعلم الضحك علم حديث. فالدراسة العلمية لتأثير الضحك لم تبدأ إلا في ستينيات القرن الماضي بدأها طبيب الأعصاب وليم فراي في جامعة ستانفورد الأميركية، الذي يعد مؤسس علم الضحك.

الجسم الضاحك شكلاً وتأثيراً

عندما يضحك الإنسان تتقلص عضلات الوجه ولا سيما حول الفم مؤدية إلى شد الشفتين نحو الجانبين، وتتكون تجاعيد السرور على جانبي الوجه. وقد تظهر حفرة صغيرة على كل من الجانبين مكسبة الوجه جمالاً خاصاً. ومن ثم ينفتح الفم مظهراً الأسنان حسب شدة الضحك. ويرافق ذلك صدور صوت تختلف شدته من شخص لآخر، بسبب خروج الهواء زفيراً من الحنجرة واهتزاز حبال الصوت ومصادر

الصـوت الأخـرى. إن خلاصـة تقلصات عضـلات الوجه تؤدي إلى سحنة خاصة تنم عن الفرح. وتشارك العينان في الضحك حيث تنهمر الدموع منهما تعبيراً عن شدة الفرح، لأن عضلة الضحك تضم العضلات المحيطة بكيس الدمع. فنحـن لا نـذرف إلا الدمـوع التـي حبسناها. كمـا تحتقن الأوعيـة الدمويـة في الوجـه وتمتلىء دمـاً فتظهر حمرة الوجنـات. ويتبـدَّل التـوازن الهرمونـي خلال الضحـك وكذلك عمليات الاستقلاب، ويزيد الضغط داخل البطن وقد يؤدي إلى انفلات مصـرة البـول عنـد البعض. وقـد يتحرك الإنسـان حركات معينة أثنـاء الضحك كأن يحـرك يديـه أو يصفـق بهمـا أو يمسكهما و يضعهمـا أمـام صـدره أو فمـه، أو قـد يقفز فرحـاً أثنـاء الضحـك الشديـد. وقد يدخل بعـض اللعـاب إلـى الرغامـى ويشرق المرء بريقه. أما الأطفال فتجد مثلاً أن الرضيع يبتسم ويضحك ويصدر أصوات المناغاة والمكاغاة عندما يداعبونه.

ويلفت الانتباه مـا كتبه ليوناردو دافنشي عـن الانفعـال الإنساني فـي رسالـة في فـن التصوير عام 1551م؛ إذ لاحظ دافنشي أن لا فرق بين الوجه الذي يبكي والذي يضحك فـي العينين أو الفـم أو الوجنتين، لكن الفـرق البـارز يكون فقط فـي صلابة حواجب العينين إذ يقتربان لدى من يبكـي ويرتفعـان لدى من يضحك.

أمـا الآثـار الصحيـة للضحك فتتضمـن تنشيـط التنفس بشـدة، فيحـدث تبـادل متسـارع بيـن الهـواء المستهلك والهـواء الغني بالأوكسجين. ومن نتائـج ذلك حفز الحرق في الجسم وتسارع ضربات القلب في البداية، لكن سرعان مـا تتباطأ بوضـوح، فينخفض الضغط الدمـوي وتسترخي العضلات الهيكلية وتتحسن تروية العضلات بالدم عموماً. وتقوَّض هرمونـات الكرب وتنشـط غدد الهضـم. وتتلقى «شرطة الجسم الخاصة» إنذاراً. هكذا يمكن أن تتزايد في الدم المـواد التي تكوِّن المناعة. وأخيـرا تُطلَق «هرمونات السعـادة» المسكِّنـة للألـم «الأندروفينـات». وهي لا توجد فـي الدم عادة إلا في حـالات نادرة (على سبيل المثال بعد جري مديد).

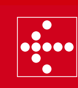
الضحك والطب

وأصبـح الضحك والفكاهة من الوسائـل التي يستعين بها الأطباء لعلاج مرضاهم. ويرى بعض الخبراء أن لإضحاك المرضـى وإدخـال البهجة فـي نفوسهم أثـراً مباشراً في أجهـزة المناعـة الطبيعية فـي أجسامهـم. إذ يؤكدون أن فائـدة الضحـك لا تقتصـر علـى تحسين حالـة المرضى النفسية، بل تتجاوزها بشحذها قدرة الجسم على مقاومة الأمراض. وقد ذكر فريق من الباحثين الأمريكيين أخيراً أنهم يبحثون في أمر يستهدف تغيير طريقة علاج الأطفال جذريـاً، وإن جانبـاً مـن هـذه الأبحـاث يسعى فـي إمتاع الأطفـال بعرض أفلام مضحكـة ودراسـة تأثير الضحك فيهم.

وأوضحـت الباحثـة مرجريـت ستوبـر، التـي تعمل في مركـز جونسون لأمراض السرطـان التابـع



الرسوم المتحركة.. صناعة الضحك الموجهة إلى الصغار



غرائب علمية عن الضحك

الضحك مسألة جادّة.
الضحك عدوى ووباء غير مؤذ.
الضحك ظاهرة اجتماعية قلّما تحدث حين يكون الإنسان وحيداً.
هذا ما تجمع عليه الدراسات النفسية والاجتماعية والإحصائية التي تناولت الظاهرة.
وإذا كان هذا مدعاة للدهشة والاستغراب، فإن مطالعة الدراسات المعمّقة في هذا المجال تنّم عن أمور أغرب مما نتصّور عن الضحك.
في مجلة «التاريخ الطبيعي» (Natural History)، صدرت للباحث الاجتماعي روبيرت بروفين دراسة، في عدد ديسمبر 2000م، جاء فيها بعض أغرب ما يمكن أن يخطر في البال، عن الضحك.

- حين نسمع شخصاً يضحك، يتحرك في دماغنا تفاعل ينشط معه مركز الضحك، وقد نبدأ بالضحك من دون أن نعرف سبباً.
- لا يعرف الضحك حدوداً في اللغة. فهو مفهوم في العالم كله. وإذا ضحك ياباني، فهم الهندي والعربي والأرجنتيني، أنه يضحك. الضحك لغة عالمية مطلقة.
- أثبتت دراسة إحصائية تناولت 1200 شخص، نظّمها بروفين، أن معظم ضحك البشر في المحادثة، لا ينتج من نكات أو طرائف، بل من كلام قد نستغرب فيما بعد لماذا ضحكنا عند سماعه.
- تبين أن المتكلم يضحك أكثر من المتلقي (المستمع) بنسبة 50% من الحالات.
- إذا أبعدت عن الإنسان كل وسائل الاتصال (التلفزيون والهاتف والسينما والصحف)، وكان وحده فنادراً جداً ما يضحك، حتى لو كان غاية في السعادة والمرح.
- تضحك النساء أكثر من الرجال، لا سيما حين يحادثن رجالاً. ويضحك الرجال معظم الوقت وهم يحادثون رجالاً، ويا للغرابة، نادراً ما يضحكون وهم يحادثون النساء.
- محادثة الرجل لامرأة، هي الحالة الاجتماعية الوحيدة التي يزيد فيها ضحك المتلقي (المرأة) على ضحك المتكلّم (الرجل).
- في المدارس المختلطة، في الغرب، يكون الشخص المضحك في الصف، في الغالب الأعم، صبياً. ونادراً ما يكون فتاة.
- قد يكون سبب هذا الفرق كون الرجل في معظم المجتمعات، في موضع المسيطر، ولذا تضحك المرأة أكثر، من باب الاسترضاء. فيما يحجم الرجل عن الضحك، إثباتاً لسلطته.

لجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس أن فريق الخبراء الذي تنتمي إليه استنتج أنه يتعين على أطباء الأطفال «وصف الضحك» لمعالجة الأطفال. فمنذ اليوم الذي أعلن فيه نورمان كوزيتز أنه قد أضحك نفسه كثيراً ليستشفي من مرض حلَّ به، خرج العلماء بنظرية مفادها أن الضحك يعزِّز كثيراً جهاز المناعة. وليست المهمة مجرد سرد النكات للمرضى بل صار الأطباء يستخدمون المرح وسيلة لتمكين مرضاهم من التعامل مع مشكلات صحية معينة.

هذا وقد أسست لهذا الغرض «غرف قهقهة» زُوِّدت بوسائل تشجع على الضحك مثل: الكتب والمجلات والأشرطة والعروض والأفلام. ويستخدم في هذا المجال أيضاً العلاج الجماعي مثل رواية النكات وسط مجموعة من الناس. وقد تابع كثير من الممرضات وأطباء الأطفال دورات تأهيل لإتقّان هذا العلاج. وفي ألمانيا، عدد من الجمعيات تخرِّج «مهرجين سريريين» أو «دكاترة مهرجين».

وفي إطار المؤتمر الدولي الذي يُعقد كل سنة وعنوانه: «الفكاهة في المعالجة» يستمع المؤتمرون إلى تقارير عن تقدم هذا الخط من الطب. فالضحك يُحسِّن نظام المناعة. فزيادة إنتاج خلايا تسمى (T-cells) وهي مسؤولة عن مقاومة العدوى وتحفز الجسم على الشفاء السريع وهي من اللمفاويات، وذات دور كبير في مقاومة السرطان وأمراض القلب والأوعية الدموية. ويؤدي الضحك إلى تزايد الخلايا القاتلة الطبيعية التي تلعب دوراً مهماً في التخلص من الخلايا المتضررة والفاسدة. ويخفض الضحك نسبة الكوليسترول. ويحفز الضحك الجسم على إنتاج مسكن الألم الطبيعي الذي ينتجه الجسم. ويخفض الضحك إفراز المواد الكيميائية





الدغدغة.. تحتاج إلى اثنين

لماذا يضحك الإنسان إذا دغدغه أحد بأصابعه في بطنه، بينما لا يضحك إذا تولى هو الدغدغة بنفسه ولنفسه؟

هذا السؤال حيّر البشرية منذ القدم. وفي تجربة علمية، كوَّن العلماء ثلاث مجموعات، الأولى دغدغ فيها كل شخص زميله فضحك الجميع، وفي المجموعة الثانية دغدغ فيها كل شخص نفسه فلم يضحك أحد، وفي المجموعة الثالثة تولَّى جهاز آلي دغدغة المجموعة فضحك من المجموعة الثالثة النصف فقط.

ولأن معظم المواقف المثيرة للضحك مواقف اجتماعية، وهي تشتمل على علاقات بالآخرين، أو تتطلب على الأقل حضورهم، فلا بد أن يتولى الدغدغة شخص آخر. ويؤكد لنا ذلك أننا نضحك أكثر إذا كنا نعرف من يدغدغنا، ولا نضحك كثيراً إذا كنا نجهله. وهذا أمر يتساوى فيه كبارنا وصغارنا.

المرتبطة بحالات التوتر العصبي، ويساعد في تخفيف توتر العضلات. وجرعة يومية من الضحك مفيدة للقلب، ذلك أن الضحك مثل التمارين البدنية يجعل الأوعية الدموية تعمل بكفاءة أعلى.

لقد أكد باحثون في جامعة ميريلاند الأمريكية أن الضحك يزيد انبساط الأوعية الدموية فتسمح بتدفق الدم بسهولة إلى أعضاء الجسم ولا سيما القلب والمخ فتقلل التوتر الذهني والعصبي. وأوضح الباحث مايكل ميلر أن حصول الشخص على قسط من الفكاهة والضحك مفيد جداً. إذ ترتبط مشاعر السعادة بانخفاض مستوى هرمون الكورتيزول المسبب للتوتر.

وأضاف أن الضحك والسرور يساعد أيضاً في مرونة الغشاء المبطن للأوعية الدموية، فينتظم تدفق الدم ويقل حدوث الجلطات، ويفرز الجسم مواد كيميائية لمقاومة الجروح والعدوى بالجراثيم. ويستطيع من يصابون بأزمة قلبية تجنّب الإصابة بأزمة ثانية والتعرض لارتفاع ضغط الدم، والاستغناء عن تعاطي كثير من الأدوية إذا ضحكوا نصف ساعة كل يوم. ويفيد الضحك مرضى التهاب الشعب الهوائية وأزمات الربو؛ إذ يزيد نسبة الأكسجين في الدم. و يقلل الشخير.

وللضحك فوائد كبيرة في علاج بعض الأمراض النفسية، مثل: حالات الاكتئاب والقلق. ويرى الأطباء أيضاً أن المرح داخل مراكز العلاج مفيد للأطباء والممرضين أيضاً، لأنه يساعدهم في التخلص من الضغط العصبي الناتج من طبيعة عملهم الشاقة. وأثبتت الدراسات أن الضحك يرفع مستوى الأداء العقلي، وقدرة الإنسان على الاحتفاظ بالمعلومات أطول مدة ويقوي الذاكرة، ويحد آثار الشيخوخة، ويزيد القدرة على التأمل والاسترخاء، وهو دواء مضاد للتشاؤم واليأس والغضب. بل يساعد الضحك والمرح في جعل العلاقة الزوجية أكثر استقراراً وراحة؛ لأن الضحك يسهم في نزع فتيل التوتر.

ولكن قد يموت المرء من الضحك فعلاً، وهذا أمر معروف. إذ يروي المؤرخون عن أنواع من التعذيب الوحشي خلال حرب الثلاثين عاماً على سبيل المثال. كان الآسرون يطلون بالملح قدمي الأسير ويتركون الماعز يلعقهما حتى يموت المعذب من الضحك فعلاً.

يُضعف الإغراق في الضحك القدرة على التحكم بالنفس، كما هو يشيع في اعتقاد العامة. وجاء في دراسة نشرتها مجلة لانسيت الطبية أن الضحك الشديد يضعف قوى الإنسان وقدرته على التحكم في ركبتيه. ولكن هذا لا يحدث



جحا.. نجم الإضحاك في التراث العربي القديم

في حال النكات التي تثير الضحك المعتدل أو الابتسامة فقط. ولا بد من الإشارة إلى أن نوبات الضحك بعد الطعام قد تكون خطيرة.

الضحك في التراث الأدبي

لأن الإنسان كان دائماً على ما يبدو بحاجة إلى الضحك أكثر مما يحصل عليه من مفارقات الحياة اليومية ومجرياتها، تولى الأدب والفن مهمة إشباع هذه الحاجة.

فأدب الفكاهة من الآداب الشيقة والممتعة التي لا يخلو منها الموروث الثقافي لأية حضارة. فهو «نزهة النفس وربيع القلب ومرتع السمع ومجلب الراحة ومعدن السرور». ومن حكم العرب قديماً ما يقول: «روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلَّت عميت».

ففي الشعر العربي على سبيل المثال، يمكننا أن نقول إن فناً مستقلاً اعتمد الضحك والإضحاك سبيلاً لتحقيق مبتغاه ألا وهو فن الهجاء. وفي النثر لمع الكثيرون ممن أفردوا للضحك والفكاهة مؤلفات كاملة مثل «البخلاء» للجاحظ و «الظراف والمتماجنون» لابن الجوزي، و «الفاشوش في حكم قراقوش» لابن مماتي. لا بل إن الفكاهة فرضت نفسها حتى على الكتَّاب الذين

التزموا الجد كما في «عيون الأخبار لابن قتيبة» و«الإمتاع والمؤانسة لأبي حيَّان التوحيدي».

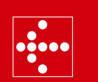
«إن كنَّا قد أمللناك بالجد والاحتجاجات، فإننا سننشطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريبة»، كان يقول الجاحظ.

وإلى جانب الأدب، اشتهر في التراث الشعبي مجموعة من الظرفاء والمضحكين؛ لكن أشهرهم جميعاً هو بطلنا العربي الشعبي جحا.

تدور حكايات جحا في إطار معاناة من الفقر ولوم الزوجة دوماً، وسيطرتها على كثير من المواقف، وكان لجحا ابن ينشئه بحكمته ويحاوره بفكاهته وسخريته. وخير ما يصور ارتباط جحا بالأحياء تعاطفه مع حماره، الذي جعل منه صديقاً أوشبه صديق يتحدث إليه، ويصب في أذنيه سخرياته اللاذعة من الحياة والأحياء. ولا يغيب عن بالنا أن جحا العربي شخصية حقيقية، فنسبه ينتهي به إلى قبيلة فزارة العربية. ولد في العقد السادس من القرن الأول الهجري، وقضى الشطر الأكبر من حياته بالكوفة. وجحا شخصية مركبة وليست بسيطة. وقد طرحت شخصيته لا لتتحدث عن هموم العرب فقط، بل عن هموم العالم بأسره. فهي متكررة في كل الأمم والشعوب كالترك والفرس وحتى الغرب، فالمهرج «جوكر» من بدلاء جحا، وقد عنيت الدراسات المقارنة بهذا عناية كبيرة.

وفي الأدب العربي الحديث

لم يخلُ أدبنا العربي من روح الفكاهة، وتناوله مشكلات فئات عديدة من المجتمع باستخدامه أسلوب الفكاهة. فمن طرائف الشعراء والأدباء، والمصريين، والعاملين، والمهجريين، والقضاة، والنساء والجواري إلى فئة الأذكياء



العلاقة الغامضة بين النكتة والضحك

لاحظ بعض الباحثين أن بعض من يلقون النكات على المستمعين يضحكون أكثر منهم ربما لكي يجعلوهم يضحكون بالعدوى، فالضحك بلا شك عدوى. وأقرّ بعض الباحثين في علم النفس أن الفعل يسبق الانفعال؛ فالإنسان يضحك على النكتة بمجرد إلقائها لأنه مهيأ لذلك قبل أن يستوعبها، ونحن نضحك أيضاً على النكات السخيفة والنكات القديمة التي سمعناها كثيراً من قبل. وقد يكون الضحك لسبب آخر غير النكتة التي ألقيت قبل الضحك مباشرة، فلربما كانت النكتة بمنزلة العامل المحفز. أما السبب الحقيقي للضحك فهو التفاعل الاجتماعي، فالإنسان لا يضحك وحيداً وإلا اتهم بالجنون. والنسبة بين ضحك الإنسان مع آخرين وضحكه وحيداً هي ثلاثون على واحد.

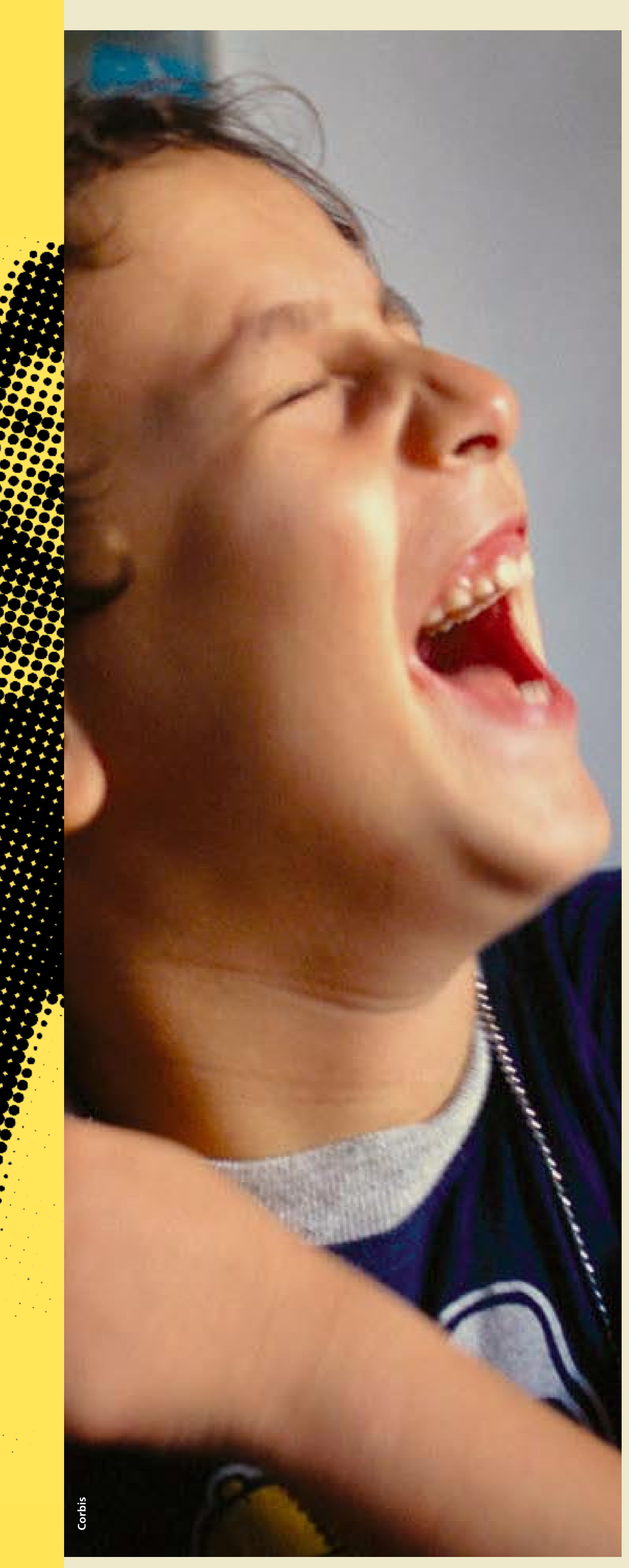
إذن، الضحك ليس استجابة غريزية فطرية للفكاهة كالإجفال عند الألم والرعشة عند البرد. ولكنه شكل من أشكال الارتباط الاجتماعي الغريزي تقدح الفكاهة زناده. ويؤكد ذلك أيضاً العالم روبرت بروفين، وهو عالم متخصص في دراسة الضحك، حيث وجد أن 80% من ضحك الناس خلال حديثهم العادي ليس له علاقة بالفكاهة.

يقول قانون التطور: إن البقاء للأصلح. لكن من هو الأصلح؟ أثبتت البحوث الحديثة في مجال المخ والأعصاب أن قدرة الإنسان على الفكاهة والمرح والسخرية المهذبة هي التي تجعله الأرقى بين بني جنسه، فالبقاء ليس للأصلح، بل للأمرح.

الضحك والذكاء

الاستمتاع بالفكاهة والنكات التي تحتوي على رمز وتورية، من طبيعة الأذكياء، وكلما ازداد مُعامل الذكاء، استمتع الإنسان بالنكتة، حتى يصح القول إننا لا نضحك من النكتة بقدر ما نضحك إعجاباً بذكائنا على أننا فهمناها.

ففي عام 1999م، وُضعت دراسة تحليلية لمرضى مصابين بتلف في الفصوص الأمامية اليمنى وتبيّن أن هؤلاء المرضى لا يستطيعون اختيار موضوعات الفكاهة. وعادة يختارون الفكاهة الأشد سخفاً ومنافاة للعقل. ومخترعو النكات ذكاؤهم عالٍ، إذ يقول المعالج والمحلل النفسي الدكتور ميخائيل تيتسه عن رواة النكتة وعن منشأ النكات: «النكات من إبداع الأشخاص الذين يجدون مسرّة ولهواً في كل أنواع خرق المعيار والقاعدة. ولما كانت النكتة أحياناً عبارة عن لعب ذكي بالألفاظ، فلابد أن هؤلاء الأشخاص شديدو الذكاء من جهة، ويجدون في السخرية من الذكاء بالذات لهواً ومتعة من جهة أخرى. وهكذا تنشأ خروق منطقية أو مفارقات بين كل من التفكير الطبيعي العادي والتفكير غير المعقول والمخالف للمنطق».


Corbis

والمغفّلين والظرفاء، إلى طائفة البخلاء والطفيليين وغير ذلك. والسخرية تعد أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج إليه من ذكاء، وخفة، ومهارة، وخفاء، ومكر. ولقد استخدم الأدباء العرب فن السخرية ليربوا في الناس ملكة النقد، ويوقظوا فيهم الوعي بأخطائهم وحماقتهم فتهكّموا من المغرور، والمغفل، والجاهل، والبخيل، والجبان، والفوضوي، والكسول.

في العصر الحديث أديب فكه ساخر، لبق، بارع النكتة، حلو الحديث، إنه الأديب عبدالعزيز البشري. يقول عنه الدكتور شوقي ضيف: «الحق أن البشري أديب معروف، يحسن صناعة الفكاهة قولاً وكتابة غاية الإحسان ولا نبالغ إذا قلنا إنه ترك لنا بكتبه متحفاً للضحك من كل شيء، ومن كل لون، لذعاً ومرحاً ودعابة».

إن رواية الضحك وغيرها من روايات مثل «حجر الضحك» لهدى بركات وغالب هلسا، وأعمال إميل حبيبي ولا سيما «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» و «أخطية» ليست أعمالاً فكاهية على الرغم من الكثير من المواقف والمشاهد المتفكهة والساخرة والتورية الهزلية، لكنها اهتمت بالضحك لتناقش دور بطلها في الحياة وتأثيره في التفكير والوجدان. وهناك أعمال تغيب عنها الرؤية الفلسفية والنظرية بشأن الضحك، ولكنها توحي بهذه الرؤية وتلمح إليها «التاريخ السري لنعمان عبدالحافظ» لمحمد مستجاب، وهناك أعمال تجمع بين الرؤية الفلسفية عن الضحك وحالة التفكه والسخرية مثل رواية حبيبي المذكورة.

ومن الشعوب التي اشتهرت بالفكاهة الشعب المصري، المشهور من قديم الزمن بالقفش والنكت. ولعل نوادر قرقوش التي شاعت في مصر، والتي دونت في كتاب «الفاشوش في حكم قراقوش» خير مثال عنها. ومن أدباء النكتة وشعرائها في مصر، حافظ إبراهيم وعلي الجارم وعبدالعزيز البشري، وكانوا يمتازون بالنكتة اللطيفة واللاذعة والصارخة.

ومن مصر إلى سورية التي يمكننا القول إن شعبها اشتهر بالفكاهة أيضاً، يدل على ذلك صدور العديد من المجلات الضاحكة أو الساخرة في سورية، ولعل أشهرها مجلة «المضحك المبكي»، والتي أصدرها المرحوم حبيب كحالة عام 1928م، وهي بحق رائدة المجلات الساخرة الكاريكاتورية في الصحافة العربية.



الكاريكاتور.. والكتابة الساخرة

الكاريكاتور ليس للضحك فقط. مكانه على صفحات الجرائد والمجلات وفي التلفزيون والإنترنت. وهو فن ساخر هادف يتناول عدة قضايا، ويتعامل مع الضحك. فمن منا لم يستغرق ضحكاً على رسم كاريكاتيري لأحد رسامي هذا الفن، وإن كان أحياناً يدعو إلى البكاء..

هل تأملتم لوحة الفنان الراحل ناجي العلي راسماً بها مجرد مرآة مكتوب فوقها: مطلوب؟ وهل تأملتم رسوم الراحل مؤيد نعمة وما بها من صدق وعفوية وألم رغم ومضات الضحك؟ ألم تضحكوا كثيراً على رسوم خضير الحميري وهو يضحك ويدين مشكلاتنا الاجتماعية.

لهذا الفن المركب من عنصري التشكيل والكوميديا، أو السخرية جذوره القديمة الضاربة في أعماق التاريخ. غير أنه بلغ ذروة نضوجه واستقراره الذي نعرفه حالياً، على يد الفنان هونوريه دوميه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولهذا الفن عدة أقسام، وله أعلام وفرسان يعبرون به عن قضايا الأمة على نحو جاد ومحترم؛ واغتيال الفنان ناجي العلي يؤكد أن للكاريكاتير قيمة كبيرة في التأثير والمقاومة.

أما الكتابة الساخرة فنجدها على صفحات الجرائد وربما المجلات. إنها فن راق جداً، وهي تعد من أرقى أنواع الفكاهة. وعلى الرغم من امتلائها الظاهر بالمرح والضحك والبشاشة، إلا أنها تخفي أنهاراً من الدموع. إنها مانعة صواعق الانهيار النفسي. هي أساساً -وإن تعدد تعريفها- ثورة وتمرد فكري ضد البداهة التقليدية الاجتماعية والسياسية. إن مايكتبه ويخطه الكاتب الساخر بسخريته اللاذعة المستمدة من واقعه البائس، يكوِّن ملامح لوحة الغد المشرق المفعم بالأمل والحرية، وهو العنوان المفقود لكل الباحثين عن حياة أخرى، أكثر تألقاً وجمالاً.

وعلى المسرح وفي السينما

ونقفز فوق موضوع الإضحاك في الغناء العربي، لأننا تناولناه سابقاً وبالتفصيل على صفحات القافلة بعنوان «حسُّ الفكاهة في الأغنية العربية» (المجلد 55 العدد 4)، لنشير إلى أن السينما العربية قدَّمت أفلاماً فكاهية لا تُنسى، منها: «غزل البنات»، و «الآنسة ماما»، و «سلامة في خير»، و «سلفني 3 جنيه»، و «ألف ليلة وليلة» و «العزّ بهدلة» و «علي بابا والأربعين حرامي».. وكثير غيرها.

حسن علاء الدين.. «شوشو»


Corbis

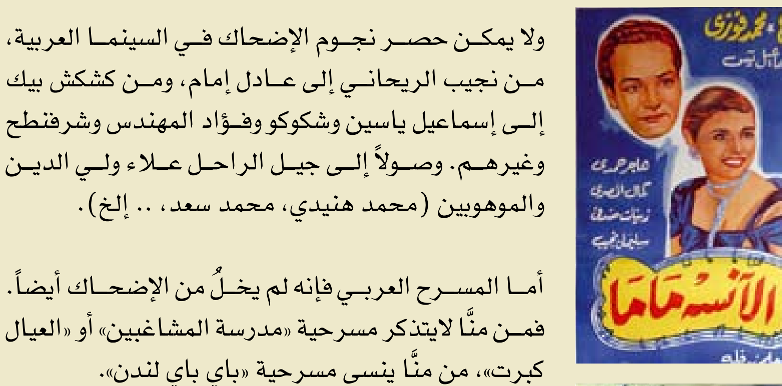


يوم بدون ضحك هو يوم ضائع

شارلي شابلن







ولا يمكـن حصـر نجـوم الإضحاك فـي السينمـا العربية، مـن نجيب الريحانـي إلى عـادل إمام، ومـن كشكش بيك إلـى إسماعيل ياسين وشكوكو وفـؤاد المهندس وشرفنطح وغيرهـم. وصـولاً إلـى جيـل الراحـل عـلاء ولـي الديـن والموهوبين (محمد هنيدي، محمد سعد، .. إلخ).

أمـا المسـرح العربـي فإنه لم يخـلُ من الإضحـاك أيضاً. فمـن منَّا لايتذكر مسرحية «مدرسة المشاغبين» أو «العيال كبرت»، من منَّا ينسى مسرحية «باي باي لندن».









ونشـأت فرق القطاع الخاص المسرحية في الوطن العربي، وضمت أقطاباً في الوطن العربي، وهي: فرقة عبدالحسين عبدالرضا في الخليج، وفرقة دريد لحام في سورية، وفرقة عـادل إمام في مصر. ومن أعلام هـذا التيار في المسرح العربـي: نجيـب الريحانـي، وعـادل إمام، وسعيـد صالح، وحسن مصطفى، ودريـد لحام، وعبدالحسين عبدالرضا، ويوسـف العانـي (الذي يعد بحق رائـد المسرح العراقي)، وحسـن علاء الدين «شوشو» الـذي لمع مسرحه في بيروت خلال الستينيـات والسبعينيات من القرن الماضي، وصولاً إلـى مسرح زيـاد الرحباني الذي يمثِّـل ذروة الاعتماد على الإضحـاك في نقد قضايا ومسائل بالغـة الخطورة ومثيرة للحزن مثل الحالة الطائفية والاقتتال الأهلي في لبنان.







وفي السعودية يشتهر مسلسل «طاش ما طاش» الذي استمر عرضـه لأربع عشرة سنة، حتـى رمضان الفائت، وقد حقق شهرته على أساس سخونة الكوميديا الاجتماعية التي أبدع فيهـا بطـلاه عبدالله السدحـان وناصر القصبـي وبإدارة المخرج عبدالخالق الغانم.















وفي الآداب والفنون الغربية

واشتركت الآداب والفنون في الغرب في أنها أفرزت للأعمال المضحكة حيزاً خاصاً بها، كان يتسع ويشتد زخماً باتساع وتنشيط العطاء الثقافي بشكل عام.

فبالتزامن مع نهضة المسرح الفرنسي، وإلى جانب المسرحيات المأساوية التي كتبها راسين، ظهر موليير الذي اقتصر إنتاجه تقريباً على كتابة المسرحيات الساخرة والمضحكة مثل «الطبيب الوهمي»، «البرجوازي الكريم».. التي سخر فيها من الحياة الاجتماعية في عصره. واحتل هذا المسرح الساخر مكانته المرموقة في فرنسا حتى أنه أعطى اسمه لأكبر المسارح الوطنية في باريس «لا كوميدي فرانسيز» (أي الكوميديا الفرنسية).

وحتى اليوم، لا تزال هناك عشرات المسارح في فرنسا التي تقتصر عروضها على المسرحيات المضحكة، التي وإن كانت تتمتع بقيمة أدبية أقل من أعمال موليير مثلاً، فإنها تشهد إقبالاً واستمرارية وتعرف اليوم باسم «مسرحيات البولفار».

وكما هو حال المسرح، فقد شهدت السينما منذ انطلاقتها نجاحات تاريخية في مجال الإضحاك، ونجوماً اقتصرت نجوميتهم على الأفلام المضحكة. مثل شارلي شابلن والثنائي لوريل وهاردي في السينما الأمريكية، ولويس دوفونيس وبيار ريشار وبورفيل في السينما الفرنسية.

وإلى جانب هؤلاء الكلاسيكيين، يمكن القول إن معظم المخرجين والفنانين يقدمون بين الحين والآخر على إنتاج أفلام كوميدية، حتى أن نسبة هذه الشريحة من الأفلام باتت تشكِّل جزءاً أساساً من شخصية فن السينما بشكل عام.

ولا يمكن اختتام الحديث في هذا الجانب من دون الإشارة إلى الكوميديا التلفزيونية التي تحمل الضحك إلى بيوتنا. فقد شهدت هذه الفئة من الأعمال رواجاً ونجاحاً عالمياً جعل منها جزءاً من الحياة اليومية للملايين.

«فراندز»، «فرايزر»، «بيكر»، «كوسبي»، «مالكوم في الوسط»، «مالكولم وإدي»... أسماء أصبحت أقرب إلى أسماء أفراد العائلة المشاهدة للتلفزيون.. فهذا النوع الجديد من الكوميديا هو غالباً ما يأتي على شكل مسلسل، أبطاله هم أنفسهم، نتابعهم في المشكلة التي تعترضهم اليوم، نضحك لسذاجتهم وغبائهم ومكرهم وذكائهم.. وننتظرهم في حلقة مقبلة. والحلقات قد تتوالى لسنوات وسنوات، فيكبر أبطال الكوميديا وتتبدل قضاياهم ونرافقهم بكل سرور في رحلاتهم الطويلة هذه.. إلى أن يتوقفوا عن إضحاكنا، أو إلى أن نجد كوميديا تضحكنا أكثر.






كيف نشجع الأطفال
على القراءة؟
نقرأ
لهم
معهم
أمامهم
ارامكو السعودية
Saudi Aramco
طاقة للعالم.. للوطن طاقات



القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين

عن أرامكو السعودية

نوفمبر - ديسمبر 2006

المجلد 55 العدد 6

ص . ب 1389 الظهران 31311

المملكة العربية السعودية

www.saudiaramco.com